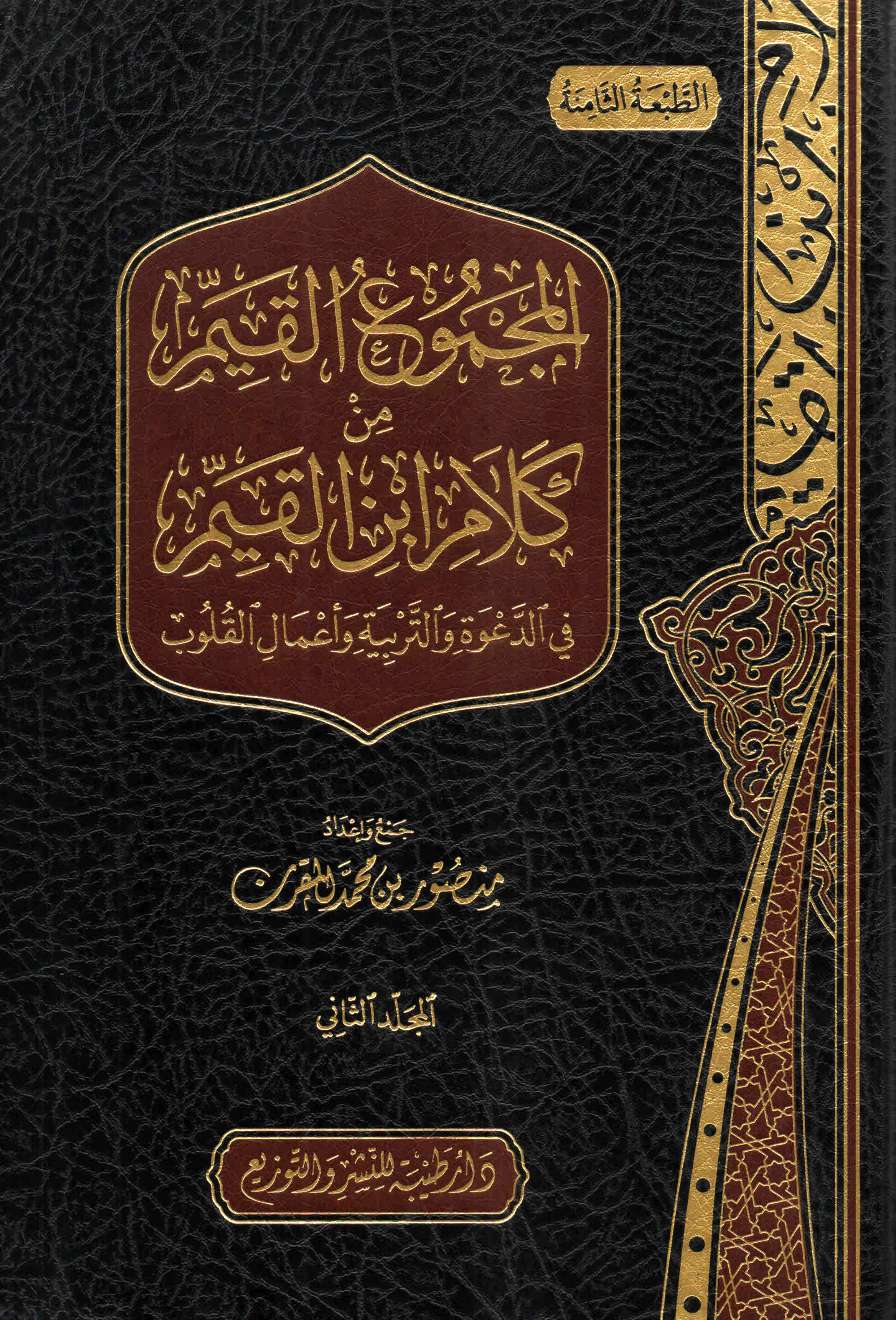


الطبعة الثامنة
المجموع القيم
من
كلام ابن القيم
في الدعوة والتربية وأعمال القلوب
جمع وإعداد
منصور بن محمد المقرن
المجلد الثاني
دار طيبة للنشر والتوزيع

ⓒ دار طيبة للنشر والتوزيع ، 1445هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المقرن ، منصور بن محمد
المجموع القيم من كلام ابن القيم
في الدعوة و التربية و أعمال القلوب (جزئين)
منصور بن محمد المقرن - ط 8 - الرياض ، 1445 هـ
2 مج 608 ص؛ 17×24 سم
ردمك: 978-603-8073-87-2 (مجموعة)
ردمك: 978-603-8073-89-6 (ج 2)
1- الدعوة الإسلامية 1- التربية الإسلامية أ. العنوان
ديوي 240 1445/2288

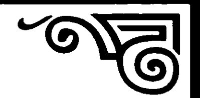
رقم الإيداع: 1445/2288
ردمك: 978-603-8073-87-2 (مجموعة)
ردمك: 978-603-8073-89-6 (ج 2)

الطَّبْعَةُ الثَّامِنَةُ
(1445هـ - 2023م)

حُقُوق الطَّبْع والنَّشْر مَحفُوظَة

دَارُ طَيْبَة لِلنَّشْرِ وَالتَّوزِيع

الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
+966114253737 +966554253737
www.tayba-store.com




الباب الرابع: الدعوة والتربية

وفيه:

* الحاجة إلىٰ الدين والتوفيق.
* عبوديات.
* الإقبال علىٰ الله وصفات أهله.
* العلم.
* الدعوة.
* الابتلاء.
* الجهاد.
* الدعاء
* عوائق.
* ضوابط منهجية.
* فروق ينبغي التَّنَبُّه لها.
* المُعرضون عن الله.










الفصل الأول: الحاجة إلى الدين والتوفيق

[حاجتنا إلى الدين]

حاجة الناس إلىٰ الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلىٰ كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلىٰ علم الطب إليها؛ ألا ترىٰ أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأمَّا أهل البدو كلهم وأهل الكفور كلهم -وعامة بني آدم- فلا يحتاجون إلىٰ طبيب، وهم أصح أبدانًا وأقوىٰ طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة.

وقد فطر الله بني آدم علىٰ تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم، وجعل لكل قوم عادة وعرفًا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتىٰ إن كثيرًا من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم، وأمَّا الشريعة فمبناها علىٰ تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها علىٰ الوحي المحض.

والحاجة إلىٰ الشريعة أشد من الحاجة إلىٰ التنفس -فضلًا عن الطعام والشراب- لأن غاية ما يُقَدَّر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه، وأما ما يُقَدَّر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد.

وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلىٰ شيء أحوج منهم إلىٰ معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من

خرج عنه حتىٰ يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور علىٰ هذا الجسر. اهـ[1].

[حاجتنا للتوحيد]

اعلمْ أنَّ حاجة العبد إلىٰ أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلىٰ روحه والعين إلىٰ نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به؛ فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بدَّ لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلىٰ نوع، ومن شخص إلىٰ شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب به ولا بد في وقت آخر، وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملتذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجَرِب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يُؤْثِر ذلك لما له في حكها من اللذة، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله وهو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة، لا تزيد لذته علىٰ لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣١٨، ٣١٩).



الأمرين ويُؤْثِر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة. والمقصود أن إله العبد الذي لا بد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، فهو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة؛ ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، والله أعلم. اهـ[١].

[اهدنا الصراط المستقيم]

قال تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]؛ **فالهداية:** هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلىٰ البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه: هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثِرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان؛ لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خَلْق القدرة لنا علىٰ القيام بموجب الهدىٰ بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلىٰ الوفاة.

ومن هنا علم اضطرار العبد إلىٰ سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان

---

(١) «طريق الهجرتين» (٥٧، ٥٨).

قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نقدر عليه -مما نريده- كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلىٰ الهداية التامة؛ فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرىٰ -وهي آخر مراتبها- وهي الهداية يوم القيامة إلىٰ طريق الجنة -وهو الصراط الموصل إليها- فمن هُدي في هذه الدار إلىٰ صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ جنته ودار ثوابه، وعلىٰ قدر ثبوت قدم العبد علىٰ هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قَدَمه علىٰ الصراط المنصوب علىٰ مَتْن جهنم.

وعلىٰ قدر سيره علىٰ هذه الصراط يكون سيره علىٰ ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطَّرْف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدِّ الركاب، ومنهم من يسعىٰ سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حَبْوًا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردَس في النار.

فلينظر العبد سيره علىٰ ذلك الصراط من سيره علىٰ هذا، حَذْو القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقًا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره علىٰ هذا الصراط المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بجنبَتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر. اهـ(١).

[الدعاة الحرية]

لا ريب أن إلزام الناس شريعة يأتمرون بأوامرها التي فيها صلاحهم، وينتهون عن مناهيها التي فيها فسادهم أحسن عند كل عاقل من تركهم هملًا كالأنعام لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، وينزو بعضهم علىٰ بعض نزو الكلاب والحمر، ويعدو بعضهم علىٰ بعض عدو السباع والكلاب والذئاب، ويأكل قويهم ضعيفهم، ولا يعرفون الله، ولا يعبدونه، ولا يذكرونه، ولا يشكرونه، ولا يمجدونه، ولا يدينون بدين، بل هم من جنس الأنعام السائمة.

ومن كابر عقله في هذا سقط الكلام معه، ونادىٰ علىٰ نفسه بغاية الوقاحة ومفارقة الإنسانية.

وما نظير مطالبتكم هذه إلا مطالبة من يقول: نحن نطالبكم بإظهار وجه المنفعة في خلق الماء والهواء، والرياح والتراب، وخلق الأقوات والفواكه والأنعام، بل في خلق الأسماع والأبصار، والألسن والقوىٰ والأعضاء التي في العبد؛ فان هذه أسباب ووسائل ووسائط.

وأما أمره وشرعه ودينه: فكماله غاية وسعادة في المعاش والمعاد.

ولا ريب عند العقلاء أن وجه الحسن فيه أعظم من وجه الحسن في الأمور

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٦، ٢٧).

الحسية، وإن كان الحسن هو الغالب علىٰ الناس، وإنما غاية أكثرهم إدراك الحسن والمنفعة في الحسيات، وتقديمها وإيثارها علىٰ مدارك العقول والبصائر؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٦، ٧]، ولو ذهبنا نذكر وجوه المحاسن المودعة في الشريعة لزادت علىٰ الألوف. اهـ[(١)].

[منفعة القصاص]

قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر أن إعدام هذه البنية الشريفة، وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول تكثير لمفسدة القتل، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء وبهرت حكمته العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ...﴾ ؛ وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يُقْتَلُ قصاصًا بمن قتله كفَّ عن القتل وارتدع، وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر؛ وهو أنهم كانوا إذا قُتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره، وتشتد مؤنته، فشرع الله تعالىٰ القصاص، وألا يُقتل بالمقتول غير قاتله؛ ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).



ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل، بل من حيث كونه قصاصًا يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز، والبلاغة والفصاحة، والمعنىٰ العظيم؛ فصدَّر الآية بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم، لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه، ثم عقبه بقوله: ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ﴾ إيذانًا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل. اهـ(١).

[مثل المشرك والموحد]

قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩]، هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد؛ فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون، والرجل المتشاكس: الضيق الخلق، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتىٰ شُبِّه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده، فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلَّم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلىٰ رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٢٢، ٥٢٣).

وهذا من أبلغ الأمثال؛ فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه، ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون. اهـ[١].

[طرق الهداية وأثرها في الثبات]

طرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده، ولطفًا بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم:

فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به الرسول ﷺ وما دعا إليه، من غير أن يطلب منه برهانًا خارجًا عن ذلك، كحال الكُمَّل من الصحابة، كالصديق رضي الله عنه.

ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فُطِر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله ألا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة؛ كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له ﷺ: «**أبشر فوالله لن يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين علىٰ نوائب الحق**»[٢]، فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته علىٰ أن من كان كذلك، فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه، بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبته وتوبته.

وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلىٰ الآيات

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٠٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في بدء الوحي، (ح٤)، ومسلم في الإيمان، (ح١٦٠).



والخوارق والآيات المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها. وأضعف الناس إيمانًا من كان إيمانه صادرًا من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للناس، فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة علىٰ صحة الرسالة، فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة، وقد ناله من قومه ضروب الأذىٰ، وأصحابه في غاية قلة العدد والمخافة من الناس؟ ومع هذا فقلبه ممتلئ بالإيمان، واثق بأنه سيظهر علىٰ الأمم، وأن دينه سيعلو كل دين.

وأضعف من هؤلاء إيمانًا من إيمانه إيمان العادة والمَرْبَىٰ والمنشأ؛ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين وأقارب وجيران وأصحاب كذلك، فنشأ كواحد منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمهما، ولا من الدين إلا ما رأىٰ عليه أقاربه وأصحابه! فهذا دين العوائد، وهو أضعف شيء، وصاحبه بحسب من يقترن به، فلو قيض له من يخرجه عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه.

والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكماله، وشهدت قبح ما خالفه ونقصه ورداءته خالط الإيمان به ومحبته بشاشة قلوبهم، فلو خير بين أن يلقىٰ في النار وبين أن يختار دينًا غيره، لاختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار دينًا غيره.

وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه، وأحقهم بالثبات عليه إلىٰ يوم لقاء الله، ولهذا قال هرقل لأبي سفيان: أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له؟ قال: لا، قال: فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

والمقصود أن الداخلين في الإسلام المستدلين علىٰ أنه من عند الله لحسنه وكماله، وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عند غيره هم خواص الخلق. اهـ(١).

[عجز وضعف العبد]

العبد أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضْعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه، فيشهد قلبَه كريشة مُلْقاة بأرض فلاةٍ تُقلبها الرياح يمينًا وشمالًا، ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تَهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج؛ ترفعها تارة، وتخفضها تارة أخرىٰ، تجري عليه أحكام القدر، وهو كالآلة طريحًا بين يدي وليه، مُلقًىٰ ببابه، واضعًا خدَّه علىٰ ثَرَىٰ أعتابه، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما، فالهلاك أدنىٰ إليه من شِراك نعله؛ كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع، لا يردها عنها إلا الراعي، فلو تخلَّىٰ عنها طَرْفة عين لتقاسموها أعضاء.

وهكذا حال العبد ملقىٰ بين الله وبين أعدائه، من شياطين الإنس والجن؛ فإن حماه منهم وكفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلًا، وإن تخلىٰ عنه ووكله إلىٰ نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظَفَر به منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقًّا، ويعرف ربه، وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: «من عرف نفسه عرف ربه»، وليس هذا حديثًا عن رسول الله ﷺ، إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضًا: «يا إنسان، اعرف نفسك تعرف

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣٤١- ٣٤٣).



ربك»، وفيه ثلاث تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز، ومن عرفها بالجهل، عرف ربه بالعلم؛ فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنىٰ، والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه، وعيبه، وفقره، وذله، وضعفه: ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثاني: أن من نظر إلىٰ نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولىٰ به؛ فمعطي الكمال أحق بالكمال، فكيف يكون العبد حيًّا متكلمًا سميعًا بصيرًا مريدًا عالمًا، يفعل باختياره، ومَن خَلَقه وأوجده لا يكون أولىٰ بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال، بل مَنْ جعل العبد متكلمًا أولىٰ أن يكون هو متكلمًا ومن جعله حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا فاعلًا قادرًا، أولىٰ أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد، وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي؛ أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك؛ فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟

والمقصود: أن هذا المشهد يُعَرِّف العبد أنه عاجز ضعيف، فتزول عنه رعونات الدعاوىٰ، والإضافات إلىٰ نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء؛ إن

هو إلا محض القهر والعجز والضعف. اهـ[(١)].

[التوفيق والخذلان]

وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو ألا يكلك الله إلىٰ نفسك، وأن «الخذلان» هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه، ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له؛ فهو دائر بين توفيقه وخذلانه؛ فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود علىٰ هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئًا هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟

فمتىٰ شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلىٰ التوفيق في كل نَفَس وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالىٰ، لو تخلىٰ عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه علىٰ الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه، فهِجّيرىٰ قلبه ودأب لسانه: **«يا مقلب القلوب، ثَبِّت قلبي علىٰ دينك، يا مصرف القلوب صرِّف قلبي إلىٰ طاعتك»**، ودعواه: **«يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طَرْفة عين، ولا إلىٰ أحد من خلقك»**.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٧، ٤١٨).



ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف، ويلقي نفسه بين يديه، طريحًا ببابه مستسلمًا له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعًا ذليلًا مستكينًا، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ونشورًا.

و«**التوفيق**»: إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد؛ بأن يجعله قادرًا علىٰ فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًّا له، مؤثرًا له علىٰ غيره، ويُبغِّض إليه ما يسخطه، ويُكرِّهه إليه، وهذا مجرد فعله، والعبد محل له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله، وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ .

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تُقدِّموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تفعلوا حتىٰ يأمر؛ فالذي حبَّب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان؛ فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم

تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثيرٍ مما تريدون لشق عليكم ذلك ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم. اهـ[1].

[التثبيت]

قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] كنز عظيم من وفق لمظنته، وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِمَه فقد حُرِم؛ وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالىٰ لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، وفي الصحيحين: من حديث البجلي قال: «**وهو يسألهم ويثبتهم**»[2]، وقال تعالىٰ لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]؛ فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أُمِرَ به

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٠٥- ٤٠٧).

(٢) لم أجده في «الصحيحين»، وهو عند الترمذي وأحمد من حديث أبي هريرة بلفظ: «**وهو يأمرهم ويثبتهم**»، «سنن الترمذي»، كتاب (صفة الجنة)، باب (ما جاء في خلود أهل الجنة وأهله النار)، وأحمد (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩).



العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتًا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦]؛ فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولًا، والقول الثابت: هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب؛ فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها؛ فهي أعظم ما يثبت الله بها عباده في الدنيا والآخرة.

ولهذا ترىٰ الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار، وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفىٰ ذلك إلا علىٰ ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئًا، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل، فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم؛ كما في «صحيح مسلم» من حديث البراء بن عازب، عن النبي ﷺ أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر. اهـ[1].

[أساس كل خير]

أساس كل خير: أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فتوقن

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٩٢- ١٩٤)، والحديث رواه البخاري في تفسير القرآن، (ح٤٦٩٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، ح٢٨٧١.

حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه ألا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلىٰ نفسك.

وقد أجمع العارفون علىٰ أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق ألا يَكِلَك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك.

فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتىٰ أعطىٰ العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتىٰ أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًّا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إني لا أحمل همَّ الإجابة؛ ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاء فإن الإجابة معه.

وعلىٰ قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته؛ فالمعونة من الله تنزل علىٰ العباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم علىٰ حسب ذلك.

فالله سبحانه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم.

وما أُتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء، وملاك ذلك الصبر؛



فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد. اهـ[(١)].

[أسباب التيسير لليسرى]

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥، ١٠]... فذكر للتيسير لليسرىٰ ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم؛ أي: أعطىٰ ما أمر به، وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه؛ وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه، وبدنه، ونيته وقصده؛ فتكون نفسه نفسًا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة.

فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي؛ فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم؛ فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك. وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حلَّ، فجزاءُ هذا أن ييسره الله لليسرىٰ، كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوىٰ؛ وهي اجتناب ما نهىٰ الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير.

---

(١) «الفوائد» (١٤٥).

فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته؛ وتارك التقوىٰ وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه، تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوىٰ.

وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقىٰ الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له، فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقىٰ.

فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات؛ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤]، فأخبر أنه ييسر علىٰ المتقي ما لا ييسر علىٰ غيره.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٥]، وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور، الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب؛ وذلك غاية التيسير.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠]، والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.



وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم سبحانه بالتقوىٰ ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير.

فقد جعل سبحانه التقوىٰ سببًا لكل يسر، وترك التقوىٰ سببًا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنىٰ؛ وفُسِّرت بـ«لا إله إلا الله»، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخَلَف، وهي أقوال السلف.

واليسرىٰ صفة لموصوف محذوف؛ أي: الحالة والخَلَّة اليسرىٰ، وهي «فُعْلَىٰ» من اليسر.

والأقوال الثلاثة ترجع إلىٰ أفضل الأعمال وأفضل الجزاء... قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٧] أي: نهيئه لعمل الخير، تيسر عليه أعمال الخير.

وقال مقاتل والكلبي والفراء: نيسره للعود إلىٰ العمل الصالح.

وحقيقة «اليسرىٰ» أنها الخلة، والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد

العسرىٰ؛ وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسر علىٰ قلبه ويديه ولسانه وجوارحه.

فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له، منقادة، لا تستعصي عليه ولا تستصعب؛ لأنه مُهيأ لها، ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللًا، وتقاد له علمًا وعملًا، فإذا خاللته قلت: هو الذي قيل فيه:

مبـــارك الطلعـــة ميمونهـــا يصـــلح للـــدنيا وللـــدين(١)

[الطيب للطيب والخبيث للخبيث]

الله ﷻ جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار، فجعل الدور ثلاثة: دارًا أخلصت للطيبين، وهي حرام علىٰ غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب وهي الجنة. ودارًا أخلصت للخبيث والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار. ودارًا امتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما، وهي هذه الدار؛ ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية، فإذا كان يوم معاد الخليقة، ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار علىٰ حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار علىٰ حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلىٰ دارين فقط: الجنة، وهي دار الطيبين، والنار وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالىٰ من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، فأنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (١٣٢ - ١٤١).



والسرور، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام؛ حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليري عباده كمال ربوبيته وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين؛ لا رسله البررة الصادقون.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

والمقصود أن الله ﷻ جعل للسعادة والشقاوة عنوانًا يُعرفان به؛ فالسعيد الطيب لا يليق به إلا طيب، ولا يأتي إلا طيبًا، ولا يصدر منه إلا طيبًا، ولا يُلابس إلا طيبًا، والشقي الخبيث لا يليق به إلا الخبيث، ولا يأتي إلا خبيثًا، ولا يصدر منه إلا الخبيث، فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث علىٰ لسانه وجوارحه، والطيب يتفجر من قلبه الطيب علىٰ لسانه وجوارحه.

وقد يكون في الشخص مادتان، فأيهما غلب عليه كان من أهلها، فإن أراد الله به خيرًا طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فيوافيه يوم القيامة مطهرًا، فلا يحتاج إلىٰ تطهيره بالنار، فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، حتىٰ يلقىٰ الله وما عليه خطيئة، ويُمسك عن الآخر مواد التطهير، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ومادة طيبة، وحكمته تعالىٰ تأبىٰ أن يجاوره أحد في داره بخبائثه، فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكًا، فإذا خلصت سبيكةُ إيمانه من الخبث، صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده. وإقامة هذا النوع من الناس في النار

علىٰ حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها، فأسرعهم زوالًا وتطهيرًا أسرعهم خروجًا، وأبطؤهم أبطؤهم خروجًا، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

ولما كان المشرك خبيث العنصر، خبيث الذات، لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثًا كما كان؛ كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم الله تعالىٰ علىٰ المشرك الجنة.

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرءًا من الخبائث، كانت النار حرامًا عليه؛ إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره بها، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب، وشهدت فطر عباده وعقولهم أنه أحكم الحاكمين ورب العالمين، لا إله إلا هو. اهـ[(١)].

[سبب الخذلان]

سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] أي: علىٰ علم عَلِمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي علىٰ فضل عندي أني كنت أهله ومستحقًّا له إذ أُعطيته. وقال مقاتل: يقول علىٰ خير علمه الله عندي.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٦٧، ٦٨).



وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود النبي فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠] ولم يقل هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، يعني أن سليمان رأىٰ ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلي به فشكره، وقارون رأىٰ ذلك من نفسه واستحقاقه، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] أي: أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه.

والمؤمن يري ذلك مُلكًا لربه وفضلًا منه مَنَّ به علىٰ عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدَّق بها علىٰ عبده، وله ألا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه. فإذا لم يشهد ذلك، رأىٰ فيه أهلًا ومستحقًّا، فأعجبته نفسه، وطغت بالنعمة وعلتْ بها، واستطالت علىٰ غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾ [هود: ٩، ١٠]، فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه؛ إذ كشف عنه البلاء قوله: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾، ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنِّه لما ذم علىٰ ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر.

فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبدٍ، فذلك من أعظم أسباب خذلانه

وتخليه عنه؛ فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يُعْلَم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس علىٰ ما خُلِقَت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها؛ فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة.

فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض: هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضدِّه، وهو الحكيم العليم. اهـ[1].

❧ ♦ ❧

(١) «الفوائد» (٢٩٠- ٢٩٢).



الفصل الثاني: عبوديات

[أفضل العبادة وأنفعها]

أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق؛ فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها علىٰ النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر علىٰ قدر المشقة، ورووا حديثًا لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمزها» أي: أصعبها وأشقها.

وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور علىٰ النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلىٰ الأرض؛ فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس

إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب علىٰ الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية علىٰ الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان: فالعارفون المتبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب علىٰ الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

يطالَب بالأوراد من كان غافلًا ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته، ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي علىٰ الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت علىٰ حالي بقيت علىٰ جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟

فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلىٰ موضعك؛ وهذا لأن الجمعية علىٰ الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب، ومن آثر حظ روحه علىٰ حق ربه فليس من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].



الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر؛ فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل؛ فتصدوا له وعملوا عليه، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**»(١)، رواه أبو يعلىٰ.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر علىٰ نفسه، وعمل النفاع متعد إلىٰ الغير، وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النعم**»(٢)، وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله ﷺ: «**من دعا إلىٰ هُدًىٰ كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»(٣)، واحتجوا بقوله ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون علىٰ معلمي الناس الخير**»(٤)، وبقوله ﷺ: «**إن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في**

---

(١) رواه أبو يعلي (٦/ ٦٥ رقم ٣٣١٥)، والبزار (١٩٤٩)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٣٣) وقال في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩١)، رواه أبو يعلي والبزار وفيه يوسف بن عطية الصفار، وهو متروك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (فضائل أصحاب النبي ﷺ)، (ح٣٧٠١)، وورواه مسلم في (فضائل الصحابة)، (ح٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم في (العلم)، باب (من سن سنة حسنة أو سيئة)، (ح٢٦٧٤).

(٤) رواه بنحوه الترمذي في (العلم)، باب (ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة)، (ح٢٦٨٥)، وقال: حديث حسن غريب صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢١٦١).

الأرض، حتىٰ الحيتان في البحر، والنملة في جحرها»[١].

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلىٰ الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ علىٰ أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس، ورأىٰ هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل علىٰ مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلىٰ ترك الأوراد؛ من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة، والقرآن، والدعاء، والذكر والاستغفار.

---

(١) رواه بنحوه أبو داود في (العلم)، (ح٣٦٤١)، والترمذي في (العلم)، باب (فضل الفقه علىٰ العبادة)، (ح٢٦٨٢)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٣٠٩٦).



والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال علىٰ تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها علىٰ أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلىٰ الجامع؛ وإن بَعُدَ كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلىٰ المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك علىٰ أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة علىٰ تدبره وتفهمه، حتىٰ كأن الله تعالىٰ يخاطبك به؛ فتجمع قلبك علىٰ فهمه وتدبره، والعزم علىٰ تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان علىٰ ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد؛ فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتىٰ إنه أفضل من الإقبال علىٰ تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثيرٍ من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته

وتشييعه، وتقديم ذلك علىٰ خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم؛ فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير؛ فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتىٰ خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرىٰ نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله علىٰ وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره علىٰ غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالىٰ أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية؛ كلما رفعت له منزلة عمل علىٰ سيره إليها، واشتغل بها حتىٰ تلوح له منزلة أخرىٰ، فهذا دأبه في السير حتىٰ ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب علىٰ الله رأيته معهم.



فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله علىٰ مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو علىٰ مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذاتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] حقًّا، القائم بهما صدقًا؛ مَلْبَسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهىٰ به المكان ووجده خاليًا؛ لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم؛ حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنىٰ توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل؛ كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتىٰ شوكها؛ وهو موضع الغلظة منه علىٰ المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناسَ بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلىٰ عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلىٰ عنها، فواهًا له! ما أغْربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان. اهـ[(١)].

[ما هو سيد عملك؟]

فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلىٰ الله طريق العلم والتعليم؛ قد وفر عليه زمانه مبتغيًا به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفًا علىٰ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٧- ١٠٢).

طريق العلم والتعليم حتىٰ يصل من تلك الطريق إلىٰ الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه، فيرجىٰ له الوصول إلىٰ مطلبه بعد مماته؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقد حُكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن أنه رؤىٰ بعد موته وأخبره أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلم في البرزخ؛ فإن العبد يموت علىٰ ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر، وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله؛ فمتىٰ فتر عنه أو قصر رأىٰ أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة؛ فمتىٰ قصر في ورده منها أو مضىٰ عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي؛ كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات؛ قد فتح له في هذا وسلك منه طريقًا إلىٰ ربه.

ومن الناس من يكون طريقه الصوم؛ فهو متىٰ أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن؛ وهي الغالب علىٰ أوقاته، وهي أعظم أوراده.

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قد فتح الله له

فيه ونفذ منه إلىٰ ربه.

ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق، وتجريد الهمة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم جامع المنفذ السالك إلىٰ الله في كل واد، الواصل إليه من كل طريق؛ فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه؛ يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت؛ قد ضرب مع كل فريق بسهمٍ، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلىٰ الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنىٰ استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت؛ جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقبًا له فيها، عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلمتُ إليه المبيع منتظرًا منه تسليم الثمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]، فهذا هو العبد السالك إلىٰ ربه النافذ إليه حقيقة، ومعنىٰ النفوذ إليه أن يتصل به قلبه ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه؛ فيسلو به عن جميع المطالب سواه، فلا يبقىٰ في قلبه إلا محبة الله وأمره وطلب التقرّب إليه،

فإذا سلك العبد علىٰ هذا الطريق عطف عليه ربه فقرَّبه واصطفاه وأخذ بقلبه إليه وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه، وتولىٰ تربيته أحسن وأبلغ مما يربي الوالد الشفيق ولده؛ فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره علىٰ ما سواه، ورضي به من الناس حبيبًا وربًّا، ووكيلًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا؟! فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه محبة له وشوقًا إليه، ويقع شكرًا له، ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك إخلادُها إلىٰ عالم الشهوات والتعلق بالأسباب، فصدت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم. وإلا فأي قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن إلىٰ غيره ويسكن إلىٰ ما سواه؟ هذا ما لا يكون أبدًا. اهـ[1].

[السائرون إلى الله]

الصادقون السائرون إلىٰ الله والدار الآخرة قسمان:

قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلىٰ النوافل البدنية، وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم علىٰ تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم يكونوا خالين من أصلها، ولكن هممهم مصروفة إلىٰ الاستكثار من الأعمال.

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلىٰ الاهتمام بصلاح قلوبهم،

---

(١) «طريق الهجرتين» (١٧٨ - ١٨٠).



وعكوفها علىٰ الله وحده، والجمعية عليه، وحفظ الخواطر والإرادات معه، وجعلوه قوة تعبُّدهم بأعمال القلوب من: تصحيح المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل والإنابة، ورأوا أن أيْسر نصيب من الواردات التي ترد علىٰ قلوبهم من الله أحبُّ إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فإذا حصل لأحدهم جمعية ووارِدُ أنسٍ أو حب أو اشتياق أو انكسار وذل، لم يستبدل به شيئًا سواه ألبتة، إلا أن يجيء الأمر فيبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه، وإلا بادر إلىٰ الأمر ولو ذهب الوارد، فإذا جاءت النوافل فههنا معترك التردد، فإن أمكن القيام إليها به فذاك، وإلا نظر في الأرجح والأحب إلىٰ الله، هل هو القيام إلىٰ تلك النافلة ولو ذهب وارده؛ كإغاثة الملهوف، وإرشاد ضال، وجبر مكسور، واستفادة إيمان ونحو ذلك؛ فهاهنا ينبغي تقديم النافلة الراجحة، ومتىٰ قدمهما لله رغبة فيه وتقربًا إليه فإنه يرد عليه ما فات من وارده أقوىٰ مما كان في وقت آخر، وإن كان الوارد أرجح من النافلة، فالحزم له الاستمرار في وارده حتىٰ يتوارىٰ عنه؛ فإنه يفوت والنافلة لا تفوت.

وهذا موضع يحتاج إلىٰ فضل فقه في الطريق، ومراتب الأعمال، وتقديم الأهم منها فالأهم، والله الموفق لذلك لا إله غيره ولا رب سواه. اهـ[(١)].

[عبودية اللسان]

عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن؛ وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة

(١) «الفوائد» (٢٠٩).

في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله؛ كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما مُحرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله؛ كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول علىٰ الله بلا علم، وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تَرْكه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ علىٰ قولين ذكرهما ابن المنذر وغيره: **أحدهما:** أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور، وهو **«كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه»**(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في (الزهد)، (ح٢٤١٢)، وابن ماجة في الفتن، (ح٣٩٧٤)، وضعفه الألباني =



واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله، ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرًا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي، وهذا شأن المباح. والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين؛ بل إما راجحة وإما مرجوحة؛ لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، و«**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان؛ تقول: اتق الله؛ فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[1]، وأكثر ما يُكِبُّ الناس علىٰ مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم[2]. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا؛ فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح، وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح؛ فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة، فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

= في «ضعيف سنن الترمذي» برقم (٤٢٤).

(١) رواه الترمذي في (الزهد)، باب (حفظ اللسان)، (ح٢٤٠٧)، وأحمد (٣/ ٩٦). وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (١٩٦٢).

(٢) يشير إلىٰ حديث معاذ بن جبل حين سأل الرسول ﷺ عن عمل يقربه إلىٰ الجنة ... وفي آخره قال ﷺ: «**وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم -أو قال: علىٰ مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم**». وقد سبق تخريجه ص٤٦٦.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده، فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك؛ إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك؛ فقد يكون الشيء مباحًا، بل واجبًا، ووسيلته مكروهة؛ كالوفاء بالطاعة المنذورة، هو واجب؛ مع أن وسيلته -وهو النذر- مكروه منهي عنه، وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. وهذا كثير جدًّا؛ فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه. اهـ[1].

[عبودية السمع]

على السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من: رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٣- ١٢٥).



الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق لله يجب القيام به، أو لأذىٰ مسلم يتعين نصحه، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشىٰ الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدعُ إليه حاجة من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو؛ كالعود والطنبور واليراع ونحوها، ولا يجب عليه سدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب -لتجنب سماعها- وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرِم: لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامِّه لم يجب عليه سد أنفه.

ونظير هذا: نظرة الفجاءة لا تحرم علىٰ الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه؛ وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر. اهـ[1].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٥).

[عبودية النظر]

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلىٰ أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلىٰ الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة؛ كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها علىٰ توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه؛ فإن له فضولًا كما للسان فضولًا، وكم قاد فضولها إلىٰ فضول عزَّ التخلص منها، وأعيىٰ دواؤها، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلىٰ العورات، وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء، وذهبت هدرًا بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق علىٰ صحته، وإن ضَعَّفه بعض الفقهاء لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.



وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله؛ كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور -أو مأذون له- في الاطلاع عليها. اهـ[١].

[عبودية الذوق]

أما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت، فإن تركه حتىٰ مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه، قال الإمام أحمد وطاوس: من اضطر إلىٰ أكل الميتة فلم يأكل حتىٰ مات، دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك، علىٰ أصح القولين، وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب أو مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة؛ وهو الطعام الذي تفجأ آكله ولم يُرِد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن: أن رسول الله ﷺ: «**نهىٰ عن طعام المتبارِيَيْنِ**»[٢]، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك علىٰ طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في (طعام المتباريين) (ح٣٧٥٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣١٩٣).

والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب. وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها للأمر به من الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان. اهـ(١).

[عبودية الشم]

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشمِّ؛ **فالشم الواجب**: كل شمٍّ تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام؛ كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوم، ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم، وشم العبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك علىٰ طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل، ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك؛ ففي صحيح مسلم، عن النبي ﷺ: «**من عُرض عليه ريحان فلا يرده؛ فإنه طيب الريح، خفيف المحمل**»(٢).

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في (الألفاظ)، باب (استعمال المسك)، (ح٢٢٥٣).



والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تَبِعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع. اهـ(١).

[النكاح أم نوافل العبادة؟]

استدل على تفضيل النكاح على التخلي لنوافل العبادة: بأن الله ﷻ اختار النكاح لأنبيائه ورسله؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال في حق آدم: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، واقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات. واختار لنبيه محمد ﷺ أفضل الأشياء، فلم يختر له ترك النكاح، بل زوَّجه بتسع فما فوقهن، ولا هدي فوق هديه.

ولو لم يكن فيه إلا سرور النبي ﷺ يوم المباهاة بأمته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه بصدد أنه لا ينقطع عمله بموته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه يخرج من صلبه من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.

ولو لم يكن فيه إلا غض بصره، وإحصان فرجه عن التفاته إلى ما حرم الله تعالى.

ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يعفها الله به، ويثيبه على قضاء وطره ووطرها، فهو في لذاته وصحائف حسناته تتزايد.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٧- ١٢٩).

ولو لم يكن فيه إلا ما يثاب عليه من نفقته على امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللقمة إلى فيها.

ولو لم يكن فيه إلا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.

ولو لم يكن فيه إلا ما يترتب عليه من العبادات التي لا تحصل للمتخلي للنوافل.

ولو لم يكن فيه إلا تعديل قوته الشهوانية الصارفة له عن تعلق قلبه بما هو أنفع له في دينه ودنياه؛ فإن تعلق القلب بالشهوة أو مجاهدته عليها تصده عن تعلقه بما هو أنفع له؛ فإن الهمة متى انصرفت إلى شيء انصرفت عن غيره.

ولو لم يكن فيه إلا تعرضه لبنات إذا صبر عليهن وأحسن إليهن، كنَّ له سترًا من النار.

ولو لم يكن فيه إلا أنه إذا قدم له فرطين لم يبلغا الحنث؛ أدخله الله بهما الجنة.

ولو لم يكن فيه إلا استجلابه عون الله له؛ فإن في الحديث المرفوع: «**ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد**». اهـ[1][2].

٨٠◆٥٥

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في (فضائل الجهاد)، باب (في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله)، (ح١٦٥٥)، والنسائي في (الجهاد)، (ح٣١٢٠)، وأحمد (٢/ ٤٣٧).
(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٣٦، ١٣٧).

الفصل الثالث: الإقبال على الله وصفات أهله

[سير الأبرار وحالهم في الدنيا]

الأبرار المقتصدون قطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله، وعقد القلب علىٰ ترك مخالفته ومعاصيه؛ فهممهم مصروفة إلىٰ القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلىٰ قلبه القيام إلىٰ الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدىٰ فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلىٰ حين تطلع الشمس فيركع الضحىٰ، ثم ذهب إلىٰ ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلىٰ التطهر والسعي إلىٰ الصف الأول من المسجد، فأدىٰ فريضته كما أُمِر مكملًا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب، فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو علىٰ صفحاته ولسانه وجوارحه، ويجد ثمرتها في قلبه من: الإنابة إلىٰ دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، وقلة التكالب والحرص علىٰ الدنيا وعاجلها؛ قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وحببت إليه لقاء الله، ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله؛ فهو مغموم مهموم كأنه في سجن حتىٰ تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلىٰ نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة. هذا وهم في ذلك كله مراعون لحفظ السنن لا يخلون منها بشيء ما أمكنهم؛ فيقصدون من الوضوء أكمله، ومن الوقت أوله، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره، ويأتون

بعد الفريضة بالأذكار المشروعة... ثم يركعون السنة علىٰ أحسن الوجوه؛ هذا دأبهم في كل فريضة. فإن كان قبل غروب الشمس توافروا علىٰ أذكار المساء الواردة في السنة نظير أذكار الصباح الواردة في أول النهار -لا يخلون بها أبدًا- فإذا جاء الليل كانوا فيه علىٰ منازلهم من مواهب الرب سبحانه التي قسمها بين عباده، فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة... وبالجملة فلا يزال يذكر الله علىٰ فراشه حتىٰ يغلبه النوم وهو يذكر الله؛ فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله، فإذا استيقظ عاد إلىٰ عادته الأولىٰ، ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من: عيادة المرضىٰ، وتشييع الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال، وزيارتهم وتفقدهم، وقائم بحقوق أهله وعياله؛ فهو متنقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر، فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلىٰ الاعتذار، والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره، فهذا وظيفته دائمًا. اهـ[(١)].

[حال السابقين المقربين]
[أولًا: أهمية معرفة أحوالهم]

وأما السابقون المقربون: فنستغفر الله الذين لا إله إلا هو أولًا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة.

ولكن محبة القوم تحمل علىٰ تعرُّف منزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم؛ ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة:

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٠٣- ٢٠٥).



منها: ألا يزال المتخلف المسكين مزريًا علىٰ نفسه ذامًّا لها.

ومنها: أنه لا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالىٰ ذليلًا له حقيرًا؛ يشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.

ومنها: أنه عساه أن تنهض همته يومًا إلىٰ التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد.

ومنها: أنه لعله أن يصدق في الرغبة واللجأ إلىٰ من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم، فيصادف ساعة إجابة لا يُسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه.

ومنها: أن هذا العلم هو من أشرف علوم العبادة، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة، ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة، فإذا رأىٰ نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله، فليبشر بالخير فقد أهل له، فليقل لنفسه: يا نفس، فقد حصل لك شطر السعادة، فاحرصي علىٰ الشطر الآخر؛ فإن السعادة في العلم بهذا الشأن والعمل به، فقد قطعت نصف المسافة فهلا تقطعين باقيها فتفوزين فوزًا عظيمًا.

ومنها: أن العلم بكل حال خير من الجهل، فإذا كان اثنان أحدهما عالم بهذا الشأن غير موصوف به ولا قائم به، وآخر جاهل به غير متصف به فهو خلو من الأمرين، فلا ريب أن العالم به خير من الجاهل، وإن كان العالم المتصف به خيرًا منهما، فينبغي أن يُعطىٰ كل ذي حق حقه وينزل في مرتبته.

ومنها: أنه إذا كان العلم بهذا الشأن همَّه ومطلوبه، فلا بد أن ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة، ولو بارقة، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه.

ومنها: أنه لعله يجري منه علىٰ لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده، والله لا يضيع مثقال ذرة، فعسىٰ أن يرحم بذلك العامل.

وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر، فلا ينبغي أن تصغي إلىٰ من يثبطك عنه وتقول: إنه لا ينفع، بل احذره، واستعن بالله ولا تعجز، ولكن لا تغتر، وفرق بين العلم والحال، وإياك أن تظن أن بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله، وهيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنىٰ وهو فقير وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم، وبين الصحيح بالفعل.

فاسمع الآن وصف القوم وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل، فإن وجدت من نفسك حركة وهمة إلىٰ التشبه بهم فاحمد الله وادخل، فالطريق واضح والباب مفتوح:

إذا أعجبتك خصال امرئ ... فكنه تكن مثل ما يعجبك

فليس علىٰ الجود والمكرمات ... إذا جئتها حاجب يحجبك[(١)]

[ثانيًا: أحوال قلوبهم]

نبأ القوم عجيب، وأمرهم خفي إلا علىٰ من له مشاركة مع القوم؛ فإنه يطلع من حالهم علىٰ ما يريه إياه القدر المشترك. وجملة أمرهم: أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وغُمِرَت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسَرَت المحبة في أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب. قد أنساهم حبه ذكر

(١) «طريق الهجرتين» (٢٠٥، ٢٠٦).



غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه. وقد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره. فإذا وضع أحدهم جنبه علىٰ مضجعه صعدت أنفاسه إلىٰ إلهه ومولاه، واجتمع همه عليه متذكرًا صفاته العلىٰ وأسماءه الحسنىٰ، مشاهدًا له في أسمائه وصفاته، قد تجلت علىٰ قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافىٰ عن مضجعه، وقلبه قد أوىٰ إلىٰ مولاه وحبيبه فآواه إليه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كل جهة من جهاته، فيا لها سجدة ما أشرفها من سجدة، لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم اللقاء.

وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلب بين يدي ربه؟ قال: أي والله، بسجدة لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم القيامة. فشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان، وخرق حجب الطبيعة، ولم يقف عند رسم، ولا سكن إلىٰ علم، حتىٰ دخل علىٰ ربه في داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله، وهو مستو علىٰ عرشه يدبر أمر عباده وتصعد إليه شئون العباد، وتعرض عليه حوائجهم وأعمالهم، فيأمر فيها بما يشاء، فينزل الأمر من عنده نافذًا كما أمر، فيشاهد الملك الحق قيومًا بنفسه مقيمًا لكل ما سواه، غنيًّا عن كل من سواه، وكل من سواه فقير إليه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويفك عانيًا، وينصر ضعيفًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويميت ويحي، ويسعد ويشقي، ويضل ويهدي، وينعم علىٰ قوم ويسلب نعمته عن آخرين، ويعز أقوامًا ويذل

آخرين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين. ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم في خبره؛ حيث يقول في الحديث الصحيح: «**يمين الله ملأىٰ لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرىٰ الميزان يخفض ويرفع**»(١)، فيشاهده كذلك يقسم الأرزاق ويجزل العطايا ويمن بفضله علىٰ من يشاء من عباده بيمينه، وباليد الأخرىٰ الميزان يخفض به من يشاء ويرفع به من يشاء عدلًا منه وحكمة لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فيشهد وحده القيوم بأمر السماوات والأرض ومن فيهن، ليس له بواب فيستأذن، ولا حاجب فيدخل عليه، ولا وزير فيؤتىٰ، ولا ظهير فيستعان به، ولا ولي من دونه فيشفع به إليه، ولا نائب عنه فيعرفه حوائج عباده، ولا معين له فيعاونه علىٰ قضائها. أحاط سبحانه بها علمًا ووسعها قدرة ورحمة، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جودًا وكرمًا، ولا يشغله منها شأن عن شأن، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، «**لو اجتمع أول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، وقاموا في صعيد واحد، ثم سألوه فأعطىٰ كلًّا منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة إلا كما ينقص المخيط البحر إذا غمس فيه، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا**»(٢)؛ ذلك بأنه الغني الجواد الماجد، فعطاؤه كلام وعذابه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في التوحيد، (ح٧٤١٩)، ومسلم في (الزكاة)، (ح٩٩٣).

(٢) اقتباس من الحديث القدسي الذي رواه مسلم في (البر والصلة والآداب)، باب (تحريم الظلم)، (ح٢٥٧٧)، والذي أوله: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا ...**» الحديث.

ويشهده كما أخبر عنه أيضًا الصادق المصدوق حيث يقول ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[١]. وبالجملة فيشهده في كلامه؛ فقد تجلىٰ ﷻ لعباده في كلامه، وتراءىٰ لهم فيه وتعرف إليهم فيه، فبعدًا وتبًّا للجاحدين والظالمين: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهدًا لقلبه أنْسَتْه ذكر غيره وشغلته عن حب من سواه، وحديث دواعي قلبه إلىٰ حبه تعالىٰ بكل جزء من أجزاء قلبه وروحه وجسمه، فحينئذ يكون الرب سبحانه «سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها: فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي»، كما أخبر عن نفسه علىٰ لسان رسوله ﷺ. اهـ[٢].

[ثالثًا: حالهم عند الاستيقاظ وفي الأسحار]

فإذا استيقظ أحدهم وقد بدر إلىٰ قلبه هذا الشأن، فأول ما يجري علىٰ لسانه: ذكر محبوبه والتوجه إليه، واستعطافه والتملق بين يديه، والاستعانة به ألا يخلي بينه وبين نفسه، وألا يكله إليها فيكله إلىٰ ضعة وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلأه كلاءة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فأول ما يبدأ

---

(١) رواه مسلم في (الإيمان)، باب (في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام)، (ح١٧٩).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٠٧، ٢٠٨).

به: «**الحمد لله الذي أحيانًا بعدما أماتنا وإليه النشور**»، متدبرًا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذي هو أخو الموت، وأعاده إلىٰ حاله سويًّا سليمًا محفوظًا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التي هو غرض وهدف لسهامها؛ كلها تقصده بالهلاك أو الأذىٰ، والتي من بعضها شياطين الإنس والجن؛ فإنها تلتقي بروحه إذا نام فتقصد إهلاكه وأذاه، فلولا أن الله سبحانه يدفع عنه لما سلم. هذا ويَلقىٰ الروح في تلك الغيبة من أنواع الأذىٰ والمخاوف والمكاره والتفزيعات، ومحاربة الأعداء والتشويش والتخبيط بسبب ملابستها لتلك الأرواح، فمن الناس من يشعر بذلك لرقة روحه ولطافتها، ويجد آثار ذلك فيها إذا استيقظ من: الوحشة، والخوف، والفزع، والوجع الروحىٰ الذي ربما غلب حتىٰ سرىٰ إلىٰ البدن، ومن الناس من تكون روحه أغلظ وأكثف وأقسىٰ من أن تشعر بذلك؛ فهي مثخنة بالجراح، مزمنة بالأمراض ولكن لنومها لا تحس بذلك. هذا، وكم من مريد لإهلاك جسمه من الهوام وغيرها، وقد حفظه منه فهي في أحجارها محبوسة عنه لو خليت وطبعها لأهلكته، فمن ذا الذي كلأه وحرسه وقد غاب عنه حسه وعلمه وسمعه وبصره؟! فلو جاءه البلاء من أي مكان جاء لم يشعر به، ولهذا ذكر سبحانه عباده هذه النعمة، وعدَّها عليهم من جملة نعمه فقال: ﴿مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٢﴾ [الأنبياء: ٤٢]، فإذا تصور العبد ذلك فقال: «الحمد لله» كان حمده أبلغ وأكمل من حمد الغافل عن ذلك، ثم تفكر في أن الذي أعاده بعد هذه الإماتة حيًّا سليمًا قادر علىٰ أن يعيده بعد موتته الكبرىٰ حيًّا كما كان، ولهذا يقول بعدها: «**وإليه النشور**»، ثم يقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك**



له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، والحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم يدعو ويتضرع، ثم يقوم إلىٰ الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه، ثم يصلي ما كتب الله له؛ صلاة محب ناصح لمحبوبه متذلل منكسر بين يديه، لا صلاة مدل بها عليه، يرىٰ من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيره، واستزاره وطرد غيره، وأهَّله وحرم غيره؛ فهو يزداد بذلك محبة إلىٰ محبته، ويرىٰ أن قرة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره في تلك الصلاة، فهو يتمنىٰ طول ليله، ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنىٰ المحب الفائز بوصول محبوبه ذلك، فهو كما قيل:

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب لمحبوبه، العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطيًا لكل آية حظها من العبودية، فتجذب قلبه وروحه إليه آيات المحبة والوداد، والآيات التي فيها الأسماء والصفات، والآيات التي تعرَّف بها إلىٰ عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم، وتُطيِّب له السير آيات الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيب به السير ويهونه، وتقلقه آيات الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره المائلين إلىٰ سواه، فيجمعه عليه، ويمنعه أن يشرد قلبه عنه. فتأمل هذه الثلاثة وتفقه فيها، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالجملة فيشاهد المتكلم سبحانه وقد تجلىٰ في كلامه، ويُعطي كل آية حظها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة علىٰ مجرد تلاوتها والتصديق بأنها كلام الله، بل الزائدة علىٰ نفس فهمها ومعرفة المراد منها.

ثم شأن آخر لو فطن له العبد لعلم أنه كان قبل يلعب، كما قيل:

وكنت أرىٰ أن قد تناهىٰ بي الهوىٰ ... إلىٰ غاية ما بعدها لي مذهب

فلما تلاقينا وعاينت حسنها ... تيقنت أني إنما كنت ألعب

فوا أسفاه وواحسرتاه! كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعاده حسرة وأسفًا. اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فإذا صلىٰ ما كتب الله جلس مطرقًا بين يدي ربه هيبة له وإجلالًا، واستغفره استغفار من قد تيقن أنه هالك إن لم يغفر له ويرحمه.

فإذا قضىٰ من الاستغفار وطرًا وكان عليه بعد ليل اضطجع علىٰ شقه الأيمن مُجمًّا نفسه مريحًا لها، مقويًّا لها علىٰ أداء وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطًا بجده وهمته كأنه لم يزل نائمًا طول ليلته لم يعمل شيئًا، فهو يريد أن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر، فيصلي السنة ويبتهل إلىٰ الله بينها وبين الفريضة؛ فإن لذلك الوقت شأنًا يعرفه من عرفه، ويكثر فيه من قول: «**يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت**»، فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثير عجيب، ثم ينهض إلىٰ صلاة الصبح قاصدًا الصف الأول عن يمين الإمام أو خلف قفاه، فإن فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن؛ فإن للقرب من الإمام تأثيرًا في سر الصلاة، ولهذا القرب تأثير في صلاة الفجر خاصة، يعرفه من عرف قوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]،



قيل: يشهد الله ﷻ وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر؛ وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهده ملائكة الليل والنهار. اهـ(١).

[رابعًا: حالهم في يومهم]

فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكليته علىٰ ذكر الله والتوجه إليه بالأذكار التي شرعت أول النهار، فيجعلها وردًا له لا يخل بها أبدًا، ثم يزيد عليها ما شاء من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتىٰ تطلع الشمس، فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الضحىٰ وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع، ثم يذهب متضرعًا إلىٰ ربه سائلًا له أن يكون ضامنًا عليه متصرفًا في مرضاته بقية يومه، فلا ينقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه، وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية قلبه عبادة بالنية وقصد الاستعانة به علىٰ مرضاة الرب.

وبالجملة فيقف عند أول الداعي إلىٰ فعله، فيفتش ويستخرج منه منفذًا ومسلكًا يسلك به إلىٰ ربه، فينقلب في حقه عبادة وقربة. وشتان كم بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الرب لا بد له من فعله، وفتش فيه علىٰ مراد لنفسه وغرض لطبعه، ففعل لأجل ذلك، وجعل الأمر طريقًا له ومنفذًا لمقصده، فسبحان من فاوت بين النفوس إلىٰ هذا الحد والغاية؛ فهذا عباداته عادات، والأول عاداته عبادات. فإذا جاء فرض الظهر بادر إليه مكملًا له ناصحًا فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٠٩- ٢١٢).

المحبة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئًا ما، فهو لا يبقىٰ مجهودًا، بل يبذل مقدوره كله في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله ليقع موقعًا من محبوبه فينال به رضاه عنه وقربه منه. أفلا يستحي العبد من ربه ومولاه ومعبوده ألا يكون في عمله هكذا، وهو يرىٰ المحبين في أشغال محبوبيهم من الخلق كيف يجتهدون في إيقاعها علىٰ أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبه من الخلق، فلا أقل من أن يكون من ربه بهذه المنزلة. ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحىٰ من الله أن يواجهه بعمله، أو يرضاه لربه وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوب له من الناس لبذل فيه نصحه ولم يدع من حسنه شيئًا إلا فعله.

وبالجملة، فهذا حال هذا العبد مع ربه في جميع أعماله؛ فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقه، فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كل عمل. اهـ[1].

[خامسًا: حالهم مع القضاء والقدر]

ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخالف تدبير الله تعالىٰ واختياره، بل قد سلموا إليه سبحانه التدبير كله، فلا يزاحم تدبيرُهم تدبيرَه، ولا اختيارُهم اختيارَه، لتيقنهم أنه الملك القاهر، القابض علىٰ نواصي الخلق، المتولي تدبير أمر العالم كله، وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة؛ فلم يُدْخِلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفه أمور عباده بلو كان كذا وكذا، ولا بعسىٰ

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢١٤).



ولعل، ولا بليت، بل ربهم أجل وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه أو يتسخطوا تدبيره، أو يتمنوا سواه، وهم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن يتهموه في تدبيره أو يظنوا به الإخلال بمقتضىٰ حكمته وعدله، بل هو ناظر بعين قلبه إلىٰ بارئ الأشياء وفاطرها، ناظر إلىٰ إتقان صنعه، مشاهد لحكمته فيه، وإن لم يخرج ذلك علىٰ مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم.

قال بعض السلف: لو قرض جسمي بالمقاريض أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه.

وقال آخر: أذنبت ذنبًا أبكي عليه منذ ثلاثين سنة -وكان قد اجتهد في العبادة- قيل له: ما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان: ليته لم يكن.

وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها؛ لأنها صنعه وأثر حكمته، وهو سبحانه أحسن كل شيء في خلقه وأتقن كل شيء، وهو أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين، له في كل شيء حكمة بالغة، وفي كل مصنوع صنع متقن، والرجل إذا عاب صنعة رجل آخر وذمها سرىٰ ذلك إلىٰ صانعها؛ فمن عاب صنع الرب سبحانه بلا إذنه سرىٰ ذلك إلىٰ الصانع؛ لأنه كذلك صنعها عن حكمته أظهرها، إذ كانت الصنعة مجبولة لم تصنع نفسها ولا صنع لها في خلقها.

فالعارف لا يعيب إلا ما عابه الله، ولا يذم إلا ما ذمه، وإذا سبق إلىٰ قلبه ولسانه عيب ما لم يعبه الله وذم ما لم يذمه الله تاب إلىٰ الله منه، كما يتوب صاحب الذنب من ذنبه؛ فإنه يستحي من الله أن يكون في داره وهو يعيب آلات

تلك الدار وما فيها، فهو يرىٰ نفسه بمنزلة رجل دخل إلىٰ دار ملك من الملوك ورأىٰ ما فيها من الآلات والبناء والترتيب، فأقبل يعيب منها بعضها ويذمه ويقول: لو كان كذا بدل كذا لكان خيرًا، ولو كان هذا في مكان هذا لكان أولىٰ، وشاهد الملك يولي ويعزل ويحرم ويعطي فجعل يقول: لو ولىٰ هذا مكان فلان كان خيرًا، ولو عزل هذا المتولي لكان أولىٰ، ولو عوفي هذا... ولو أغنىٰ هذا... فكيف يكون مقت الملك لهذا المعترض وإخراجه له من قربه؟!

وكذلك لو أضافه صاحب له فقدم إليه طعامًا فجعل يعيب صفته ويذمه، أكان ذلك يهون علىٰ صاحب الطعام؟ قالت عائشة: «**ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قطُّ، إن اشتهىٰ شيئًا أكله وإلا تركه**»[1].

والمقصود أن من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار؛ بل همهم كله في إقامة حقه عليهم، وأما التدبير العام والخاص فقد سلَّموه لولي الأمر كله ومالكه الفعَّال لما يريد. اهـ[2].

[لا بدَّ من هاتين القوتين]

السائر إلىٰ الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلىٰ مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلىٰ مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية؛ فبالقوة العلمية يبصر

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (المناقب)، باب (صفة النبي ﷺ)، (ح٣٥٦٣)، ومسلم في (الأشربة)، (ح٢٠٦٤).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢١٦، ٢١٧).



منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل.

فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعطبها. وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية؛ فإن السير هو عمل المسافر.

وكذلك السائر إلىٰ ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر؛ وهو أن يضع عصاه علىٰ عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرىٰ، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة، فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصل فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت السير وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة؛ فإن الدنيا كلها لساعة من ساعات الآخرة، وعمرك

درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين. فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلىٰ أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلىٰ أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها؛ فإنهم وراءها في الطلب.

ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة، فلتختر أيها شاءت. وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنىٰ الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها، فكلما أدمن علىٰ السير وواظب عليه غدوًّا ورواحًا وسَحَرًا قرُبَ من الدار، وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم، فتبدلت وحشته أنسًا، وكثافته لطافة، ودرنه طهارة. اهـ[١].

---

(١) «طريق الهجرتين» (١٨٣، ١٨٤).



[أهل السُّنة أهل النور]

السُّنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين؛ تقوم بأهلها وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعىٰ نورها بين أيديهم إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم، وأهل السنة هم المبيضة وجوههم إذا اسودَّت وجوه أهل البدعة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والتفرق. وهي الحياة والنور اللذان بهما سعادة العبد وهداه وفوزه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فصاحب السُّنة: حي القلب، مستنيره، وصاحب البدعة: ميت القلب، مظلمه، وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان.

فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله، وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده، ومتابعة ما بعث به رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بعث به رسول الله ﷺ، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم؛

فقلوبهم مظلمة ترىٰ الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة. وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم، وهذه الظلمة هي التي خلق فيها الخلق أولًا، فمن أراد الله ﷻ به السعادة أخرجه منها إلىٰ النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها؛ كما روىٰ الإمام أحمد وابن حبان في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضلَّ، فلذلك أقول: جف القلم علىٰ علم الله**»[1]. وكان النبي ﷺ يسأل الله تعالىٰ أن يجعل له نورًا في قلبه وسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه وعظمه ودمه، ومن فوقه، ومن تحته، وعن يمينه، وعن شماله، وخلفه، وأمامه، وأن يجعل ذاته نورًا؛ فطلب ﷺ النور لذاته، ولأبعاضه، ولحواسه الظاهرة والباطنة، ولجهاته الست.

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: «المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور». وهذا النور بحسب قوته وضعفه يظهر لصاحبه يوم القيامة، فيسعىٰ بين يديه ويمينه؛ فمن الناس من يكون نوره كالشمس، وآخر كالنجم، وآخر كالنخلة السحوق، وآخر دون ذلك، حتىٰ إن منهم من يُعطىٰ نورًا علىٰ رأس إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرىٰ، كما كان نور إيمانه ومتابعته في الدنيا كذلك، فهو هذا بعينه يظهر هناك للحس والعيان.

---

(١) رواه الترمذي بنحوه في (الإيمان)، باب (افتراق هذه الأمة)، (ح٢٦٤٢)، وقال: حديث حسن. وأحمد (٢/ ١٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٤٣)، (ح٦١٦٩)، وصححه.



وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ ...﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، فسمىٰ وحيه وأمره روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسماه نورًا؛ لما يحصل به من الهدىٰ واستنارة القلوب، والفرقان بين الحق والباطل. وقد اختلف في الضمير في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورىٰ: ٥٢] فقيل: يعود علىٰ الكتاب، وقيل: علىٰ الإيمان، والصحيح أنه يعود علىٰ الروح في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، فأخبر تعالىٰ أنه جعل أمره روحًا ونورًا وهدىٰ، ولهذا ترىٰ صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حُرِمَه غيره، كما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المؤمن من رُزِقَ حلاوة ومهابة.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فأولياؤهم يعيدونهم إلىٰ ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي، وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم؛ فذلك إخراجهم إياهم من النور إلىٰ الظلمات.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فإحياؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بروحه الذي هو وحيه، وهو روح الإيمان والعلم، وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظلمة كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرىٰ أهل الظلمة في ظلماتهم، وهم لا يرونه كالبصير الذي يمشي بين العميان.

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر الظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوىٰ، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيها صلىٰ الله عليه وآله وسلم تحت كل شعرة من رأسه وجسده نور تام، كذلك صفته وصفة أمته في الكتب المتقدمة.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨]، وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور، وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم، ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه. وفيه: أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع؛ فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم، ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلىٰ الطاعات. وكذلك لا تمشي علىٰ الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم.

وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة؛ وهي: أنهم يمشون علىٰ الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، من لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم علىٰ الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه. اهـ[1].

---

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (١٥ – ١٨).



[من علامات العارف]

من علامات العارف: أنه لا يطالب ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرىٰ له علىٰ أحد فضلًا، ولا يرىٰ له علىٰ أحد حقًّا.

ومن علاماته: أنه لا يأسف علىٰ فائت، ولا يفرح بآت؛ لأنه ينظر إلىٰ الأشياء بعين الفناء والزوال؛ لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال.

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفًا حتىٰ يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يُظِلُّ كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب.

وقال يحيىٰ بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاء علىٰ نفسه، وثناء علىٰ ربه. وهذا من أحسن الكلام؛ فإنه يدل علىٰ معرفته بنفسه وعيوبه وآفاته، وعلىٰ معرفته بربه وكماله وجلاله؛ فهو شديد الإزراء علىٰ نفسه، لهج بالثناء علىٰ ربه...

ومن علامات العارف: أن يعتزل الخلق بينه وبين الله، حتىٰ كأنهم أموات لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ويعتزل نفسه بينه وبين الخلق، حتىٰ يكون بينهم بلا نفس. وهذا معنىٰ قول من قال: العارف يقطع الطريق بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق.

وقيل: العارف ابن وقته. وهذا من أحسن الكلام وأخصره؛ فهو مشغول بوظيفة وقته عما مضىٰ، وصار في العدم، وعما لم يدخل بعدُ في الوجود؛ فهمُّه

عمارة وقته الذي هو مادة حياته الباقية.

ومن علاماته: أنه مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه؛ ولهذا قيل: العارف من أنس بالله، فأوحشه من الخلق، وافتقر إلىٰ الله فأغناه عنهم، وذلَّ لله فأعزه فيهم، وتواضع لله فرفعه بينهم، واستغنىٰ بالله فأحوجهم إليه...

وقال أبو سليمان الداراني: إن الله تعالىٰ يفتح للعارف علىٰ فراشه ما لم يفتح له وهو قائم يصلي.

وقال غيره: العارف تنطق المعرفة علىٰ قلبه وحاله وهو ساكت. اهـ[(١)].

[متابعة الرسول ﷺ عزة وكفاية ونصرة]

بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة؛ فالله سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته؛ فلأتباعه الهدىٰ والأمن والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة. وقد أقسم ﷺ بأن «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[(٢)]، وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يحكِّمه في

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٨٥- ٢٨٧).

(٢) هو معنىٰ حديث متفق عليه؛ فرواه البخاري في (الإيمان)، (ح١٥)، ورواه مسلم في (الإيمان) أيضًا، (ح٤٤).



كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضىٰ بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجًا مما حكم به، ثم يُسلم له تسليمًا، وينقاد له انقيادًا، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقطع ﷻ التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمنٍ أن يختار شيئًا بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسُنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب علىٰ أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيًا لله ورسوله، فأين هذا ممن يجب علىٰ جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه علىٰ قوله إذا أمر بما أمر به، ونهىٰ عما نهىٰ عنه، فكان مبلغًا محضًا ومخبرًا لا منشئًا ومؤسسًا، فمن أنشأ أقوالًا وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله لم يجب علىٰ الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها حتىٰ تعرض علىٰ ما جاء به الرسول، فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة قبلت حينئذ، وإن خالفته وجب ردها واطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة، وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه، وأمَّا أنه يجب ويتعين فكلا ولما. اهـ[1].

(١) «زاد المعاد» (٣٧، ٣٨).

[من أي الفريقين؟]

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهي والعطاء والمنع؛ فافترقوا فرقتين:

فرقة قابلت أمره بالترك، ونهيه بالارتكاب، وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسخط، وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك.

وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك؛ فإن أمرتنا سارعنا إلىٰ الإجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك، فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا سِتْر الحياة الدنيا، فإذا مزَّقه عليهم الموت صاروا إلىٰ النعيم المقيم وقُرة الأعين. كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة، فإذا مزَّقه الموت صاروا إلىٰ الحسرة والألم.

فإذا تصادمتْ جيوش الدنيا والآخرة في قلبك، وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت؟ فانظرْ مع مَن تميل منهما ومع مَن تقاتل؛ إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة.

فالفريق الأول استغشوا الهوىٰ فخالفوه، واستنصحوا العقل فشاوروه، وفرَّغوا قلوبهم للفكر فيما خُلِقوا له، وجوارحهم للعمل بما أُمِروا به، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة، واستظهروا علىٰ سرعة الأجل بالمبادرة إلىٰ الأعمال، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها، واهتموا بالله وطاعته علىٰ قدر حاجتهم إليه، وتزوَّدوا للآخرة علىٰ قدر مُقامهم فيها؛ فعجَّل لهم



سبحانه من نعيم الجنة وروحها: أن آنسهم بنفسه، وأقبل بقلوبهم إليه، وجمعها علىٰ محبته، وشوَّقهم إلىٰ لقائه، ونعَّمهم بقربه، وفرَّغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن علىٰ فوتها والغم من خوف ذهابها؛ فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صَحِبوا الدنيا بأبدانهم، والملأ الأعلىٰ بأرواحهم. اهـ[(١)].

[كُنْ كالنحلة]

إذا استغنىٰ الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعلْ أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلىٰ ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة، فتعرفْ أنت إلىٰ الله وتوددْ إليه؛ تَنَلْ بذلك غاية العز والرفعة.

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراة أو إحسان، فقال له رجل: إني أكثر البكاء، فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه، فقال: أوصني، فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكنْ في الدنيا كالنحلة: إن أكلت أكلت طيبًا، وإن أطعمت أطعمت طيبًا، وإن سقطت علىٰ شيء لم تكسره ولم تخدشه. اهـ[(٢)].

---

(١) «الفوائد» (٢٧٤).

(٢) «الفوائد» (١٧٢).

[فضل أئمة العدل]

أئمة العدل وولاته الذين تُؤمَّن بهم السبل، ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف، ويذل بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف، وتقام بهم الحدود، ويدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقام بهم حكم الكتاب والسُّنة، وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن ﷻ يوم القيامة، فيكونون عليها -والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس، وقد بلغ منهم العرق مبلغه وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة علىٰ ظهورهم الضعيفة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرىٰ سبيل أحدهم إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار- قال النبي ﷺ: «**المقسطون علىٰ منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالىٰ، وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا**»[1]، وعنه ﷺ: «**إن أحب الخلق إلىٰ الله وأقربهم منه منزلة يوم القيامة إمام عادل، وإن أبغض الخلق إلىٰ الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة إمام جائر**»[2] أو كما قال. وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وكما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا كانوا في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ظلًّا بظل جزاء وفاقًا، ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم إلا أن أهل السماوات والأرض والطير في الهواء يُصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم، وولاة الظلم يلعنهم

---

(١) رواه مسلم بنحوه في (الإمارة)، باب (فضيلة الإمام العادل) ... (ح١٨٢٧).

(٢) رواه بنحوه الترمذي في (الأحكام)، باب (الإمام العادل)، (ح١٣٢٩)، وقال: حسن غريب. ورواه بنحوه أيضًا أحمد (٣/ ٥٥).



من بين السماوات والأرض حتىٰ الدواب والطير، كما أن معلم الناس الخير يصلي عليه الله وملائكته، وكاتم العلم والهدىٰ الذي أنزله الله، وحامل أهله علىٰ كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون، فيا لها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها أن يكون الوالي والإمام علىٰ فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات في صحائفه، فهي متزايدة ما دام يعمل بعدله، ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره، فأين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم [الذي] قد حرَّم الله عليه الجنة وأوجب له النار؟ ويكفي في فضله وشرفه أنه يكف عن الله دعوة المظلوم كما في الآثار: أيها الملك المسلط المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها علىٰ بعض، ولكن بعثتك لتكف عني دعوة المظلوم، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها علىٰ بعض؛ فإني لا أحجبها ولو كانت من كافر، فأين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له، وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه؟(١).

[ثمرة الطاعة في الدنيا]

قال الله تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا خبر أصدق الصادقين، ومخبره عند أهله عين -بل حق- اليقين؛ فلا بدَّ لكل من عمل صالحًا وهو مؤمن أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله.

ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمىٰ الحياة؛ حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٤، ٢٥٥).

بأنواع الشهوات؛ ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والانعام، فذلك ممن ينادىٰ عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأسًا، وعرَّض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحل بهذا، منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتىٰ إن أحدهم ليتلقىٰ الرمح بصدره ويقول: «فزتُ ورب الكعبة»[1]، ويستطيل الآخر حياته حتىٰ يلقي قُوتَه من يده ويقول: «إنها لحياة طويلة إن صبرت حتىٰ آكلها»[2]، ثم يتقدَّم الىٰ الموت فرحًا مسرورًا، ويقول الآخر مع فقره: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف»، ويقول الآخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا».

وقال بعض العارفين: «إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي النعيم».

ومن تأمل قول النبي ﷺ لما نهاهم عن الوصال فقالوا: إنك تواصل! فقال: «**إني لست كهيئتكم؛ إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**»[3]، علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها، وما يفيض عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور

---

(١) جزء من حديث متفق عليه: رواه البخاري في (الجهاد والسير)، (ح٢٨٠١)، ومسلم في (الإمارة)، (ح٦٧٧).

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في (الإمارة)، (ح١٩٠١).

(٣) رواه مسلم بنحوه في (الصيام)، (ح١١٠٤).

والنعيم الذي رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، وغيره إذا تعلق بغباره رأىٰ مُلْكَ الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباءً منثورًا، بل باطلًا وغرورًا. اهـ[1].

[الإحساس بأثر الطاعة وأثر المعصية]

قلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣]، هذا في دورهم الثلاث، ليس مختصًّا بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حِسِّي فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه، ويجعل إقباله علىٰ غيره، لئلا يشعر به جملة، فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم، فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة؛ لذَّاتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة، لا نسبة لها إليها، وجعل للسيئات والمعاصي

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٢- ١٨٤).

آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تُرْبِي علىٰ لذة تناولها بأضعاف مضاعفة، قال ابن عباس: «إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق؛ وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق»، وهذا يعرفه صاحب البصيرة، ويشهده من نفسه ومن غيره. فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: «ما أصابك» ولم يقل: «ما أُصبت».

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة، فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود في العالم؛ لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل، وبالثواب والعقاب؛ فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة علىٰ ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة، كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره، ولم أتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيئ،



فإذا أصابني -أو فوقه أو دونه- كما حسبت، يكون هِجِّيراي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته؛ فإن الصادق متىٰ أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا، فجعلت كلما فعلت شيئًا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علمًا بصدقه وبصيرة فيه، وليس هذا لكل أحد، بل أكثر الناس تَرِين الذنوب علىٰ قلبه، فلا يشهد شيئًا من ذلك ولا يشعر به ألبتة. وإنما يكون هذا القلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يشاهد هذا وهذا، ويرىٰ حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح، فيرىٰ نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكَفُّئها، ولا سيما إذا انكسرت به وبقي علىٰ لوح تلعب به الرياح، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر.

ومتىٰ انفتح هذا الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، ومجريات الخلق، بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨] فكلُّ ما تراه في الوجود -من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك- فهو من قيام الرب تعالىٰ بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه علىٰ يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين؛ كما قال تعالىٰ لمن أفسد في الأرض: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]. فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، فإن تداركها من سَقْي

بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك؛ كما قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمىٰ بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصىٰ ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه علىٰ أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتىٰ يعلم من أين أُتي، ووقوعه علىٰ السبب الموجب لذلك: مما يقوي إيمانه، فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلىٰ ضد هذه الحال، رأىٰ العز بعد الذل، والغنىٰ بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه؛ ازداد إيمانًا مع إيمانه، فتقوىٰ شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متىٰ تبصر فيه وأعطاه حقه: صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه، ونفع به من شاء من خلقه، والله أعلم. اهـ(١).

[الإحسان مع الخوف]

وفي جامع الترمذي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل؛ ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٤- ٤١٦).

(٢) رواه الترمذي في (صفة القيامة والرقائق الورع)، باب (صفة أواني الحوض)، (ح٢٤٥٠)، =

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

وقد روىٰ الترمذي في «جامعه»، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر، ويزنون، ويسرقون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون ألا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**»[(١)]، وقد رُوي من حديث أبي هريرة أيضًا.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. ومن تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف.

ونحن جمعنا بين التقصير، بل التفريط والأمن؛ فهذا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن». ذكره أحمد عنه.

وذكر عنه أيضًا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيرًا ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا. وكان إذا قام إلىٰ مصلاه كأنه عود من خشية الله عَزَّ وَجَلَّ. وأتىٰ بطائر فقلبه ثم قال: ما صيد من صيد، ولا

= وقال: حسن غريب.

(١) رواه الترمذي في (تفسير القرآن)، باب (ومن سورة المؤمنون)، (ح٣١٧٥)، وأحمد (٦/ ١٥٩، ٢٠٥).

قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح، فلما احتضر قال لعائشة: يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلىٰ ابن الخطاب، وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عُمر قرأ سورة الطور حتىٰ بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ [الطور: ٧] فبكىٰ واشتد بكاؤه حتىٰ مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضعْ خدي علىٰ الأرض، عساه أن يرحمني، ثم قال: بل ويل أمي، إن لم يغفر لي ثلاثًا، ثم قضي. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقىٰ في البيت أيامًا يعاد، يحسبونه مريضًا، وكان في وجهه ﵁ خطان أسودان من البكاء. وقال له ابن عباس ﵄: «مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل»، فقال: وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان ﵁ كان إذا وقف علىٰ القبر يبكي حتىٰ يبل لحيته، وقال: لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلىٰ أيتهما أصير. وهذا علي بن أبي طالب ﵁ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوىٰ، قال: فأما طول الأمل فينسىٰ الآخرة، وأما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء ﵁ كان يقول: إن أشد ما أخاف علىٰ نفسي يوم القيامة



أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا علىٰ شهوة، ولا شربتم شرابًا علىٰ شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلىٰ الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون علىٰ أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل.

وكان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: «يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أخلق». وعرضت عليه النفقة، فقال: «عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها، ومحرر يخدمنا، وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها».

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي وحسوا مرقي». وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في «صحيحه»: «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

وقال إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن أكون مُكذبًا».

وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل».

ويذكر عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق».

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول لحذيفة:** «أنشدك الله، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ؟ يعني في المنافقين! فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا».

فسمعت شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ليس مراده أني لا أبرئ غيرك من النفاق، بل المراد لا أفتح علىٰ نفسي هذا الباب، فكل من سألني هل سماني لك رسول الله ﷺ فأزكيه. قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «سبقك بها عكاشة»(١). ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولىٰ، والله أعلم. اهـ(٢).

[من ثمرة الإقبال على الله]

لو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي مُحِبَّه من عذابه، لكان ينبغي للعبد ألا يتعوض عنها بشيء أبدًا. وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ [المائدة: ١٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس، عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «والله لا يعذب الله حبيبه؛ ولكن قد يبتليه في الدنيا»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها: (كتاب الطب)، (ح٥٧٠٥)، ورواه مسلم في (الإيمان)، (ح٢٢٠).

(٢) «الداء والدواء» (٦٠ - ٦٣).

(٣) لم أجده في «المسند»، ولا في دواوين السنة الأخرىٰ -حسب بحثي- ولكن الذي في «المسند» من حديث أنس في هذا المعنىٰ قال: «مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت علىٰ ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعىٰ ... فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال: فخفَّضهم النبي ﷺ فقال: ولا الله عَزَّ وَجَلَّ لا يُلقي حبيبه في النار»، «المسند» (٣/ ١٠٤).



وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسىٰ ابن مريم ﷺ: يا معشر الحواريين، تحببوا إلىٰ الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم قالوا: يا نبي الله، فمن نجالس؟ قال: جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم في دنياكم علمُه. ويكفي في الإقبال علىٰ الله تعالىٰ ثوابًا عاجلًا أن الله ﷻ يُقبل بقلوب عباده إلىٰ من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال: ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: «ما أقبل عبد علىٰ الله بقلبه إلا أقبل الله ﷻ بقلوب المؤمنين إليه حتىٰ يرزقه مودتهم ورحمتهم».

وقد رُوي هذا مرفوعًا ولفظه: «وما أقبل عبد علىٰ الله بقلبه إلا أقبل الله ﷻ عليه بقلوب عباده، وجعل قلوبهم تفد إليه بالود والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع»[(١)]. وإذا كانت القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها، وكل إحسان وصل إلىٰ العبد فمن الله ﷻ كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] فلا ألأم ممن شغل قلبه بحب غيره دونه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية قال: حدثني الأعمش، عن المنهال، عن عبد الله بن الحارث قال: أوحىٰ الله إلىٰ داود عليه السلام: يا داود، أحببني وحبب عبادي إلي وحببني إلىٰ عبادي، قال: يا رب، هذا أنا أحبك وأُحبب عبادك إليك، فكيف

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» بنحوه، (٥/ ١٨٦)، (ح٥٠٢٥).

أحببك إلىٰ عبادك؟ قال: تذكرني عندهم؛ فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن.

ومن أفضل ما سئل الله ﷻ: حبُّه وحبُّ من يحبه، وحب عمل يقرب إلىٰ حبه، ومن أجمع ذلك أن يقول: «اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلىٰ حبك، اللهم ما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم اجعل حبك أحب إلي من أهلي ومالي ومن الماء البارد علىٰ الظمأ، اللهم حببني إليك وإلىٰ ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك وأنبياءك ورسلك وعبادك الصالحين، اللهم أحي قلبي بحبك، واجعلني لك كما تحب، اللهم اجعلني أحبك بقلبي كله، وأُرضيك بجهدي كله، اللهم اجعل حبي كله لك، وسعيي كله في مرضاتك». وهذا الدعاء هو فسطاط خيمة الإسلام الذي قيامها به، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون، والله سبحانه تعرَّف إلىٰ عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له؛ فإن القلوب مفطورة علىٰ محبة الكمال ومن قام به، والله ﷻ له الكمال المطلق من كل وجه، الذي لا نقص فيه بوجه ما، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه، بل لو كان جمال الخلق كلهم علىٰ رجل واحد منهم وكانوا جميعهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قط نسبة إلىٰ جمال الله، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلىٰ حذاء جرم الشمس، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. اهـ[1].

---

(١) «روضة المحبين» (٣٥٦- ٣٦٠).



الفصل الرابع: العلم

[البهجة ونضارة الوجه لمن سمع ووعى وبلَّغ]

النبي ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة -وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه- ففي الترمذي وغيره، من حديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها، وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»[1]...

وهذه هي مراتب العلم:

أولها وثانيها: سماعه وعَقْلُه؛ فإذا سمعه وعاه بقلبه؛ أي: عَقَلَه واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعىٰ في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عَقْله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتىٰ لا تشرد وتذهب، ولهذا كان الوعي والعقل قدرًا زائدًا علىٰ مجرد إدراك المعلوم.

المرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتىٰ لا ينساه فيذهب.

المرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده؛ وهو بثه في

---

(١) رواه الترمذي في (العلم)، باب (في الحث علىٰ تبليغ السماع)، (ح٢٦٥٨)، وابن ماجة بأخصر منه في المقدمة)، باب (من بلَّغ علمًا)، (ح٢٣٢).

الأمة، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه وهو معرض لذهابه؛ فإن العلم ما لم ينفق منه ويُعلَّم فإنه يوشك أن يذهب، فإذا أنفق منه نما وزكا علىٰ الإنفاق.

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن؛ فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يُكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة علىٰ الوجه، ولهذا يجمع له سبحانه بين السرور والنضرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١]. فالنضرة في وجوههم، والسرور في أقوالهم، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة في الوجه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤].

والمقصود: أن هذه النضرة في وجه من سمع سنة رسول الله ﷺ ووعاها وحفظها وبلغها، فهي أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه.

وقوله ﷺ: «**رب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**» تنبيه علىٰ فائدة التبليغ، وأن المبلَّغ قد يكون أفهم من المبلِّغ؛ فيحصل له في تلك المقالة ما لم يحصل للمبلِّغ.

أو يكون المعني: إن المبلَّغ قد يكون أفقه من المبلِّغ، فإذا سمع تلك المقالة حملها علىٰ أحسن وجوهها واستنبط فقهها وعلم المراد منها.

وقوله ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم...**» إلىٰ آخره؛ أي: لا يحمل الغل ولا يبقىٰ فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنها تنفي الغل والغش وفساد القلب وسخائمه؛ فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة؛ لأنه قد انصرفت دواعي



قلبه وإرادته إلىٰ مرضاة ربه، فلم يبق فيه موضع للغل والغش، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء.

ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له علىٰ أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك، فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]. فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مركب السلامة، والإيمان خاتم الأمان.

وقوله: «**ومناصحة أئمة المسلمين**»، هذا أيضًا مناف للغل والغش؛ فإن النصيحة لا تجامع الغل؛ إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل.

وقوله: «ولزوم جماعتهم»؛ هذا أيضًا مما يطهر القلب من الغل والغش؛ فإن صاحبه -للزومه جماعة المسلمين- يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسره ما يسرهم.

وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم؛ كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم؛ فإن قلوبهم ممتلئة غلًّا وغشًّا، ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص، وأغشهم للأئمة والأمة، وأشدهم بعدًا عن جماعة المسلمين.

فهؤلاء أشد الناس غلًّا وغشًّا بشهادة الرسول والأمة عليهم، وشهادتهم

علىٰ أنفسهم بذلك؛ فإنهم لا يكونون قط إلا أعوانًا وظهرًا علىٰ أهل الإسلام، فأي عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته!

وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم، ومن لم يشاهده فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجي القلوب.

وقوله: «فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»؛ هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنىٰ؛ شبَّه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوهم عليهم، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام -وهم داخلوها- لما كانت سورًا وسياجًا عليهم أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته. اهـ[1].

[زاد المهاجر]

إن من أعظم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ والتعاون علىٰ سفر الهجرة إلىٰ الله والرسول باليد، واللسان، والقلب، مساعدةً ونصيحة وتعليمًا، وإرشادًا ومودةً.

ومن كان هكذا مع عباد الله كان الله بكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح علىٰ قلبه أبواب العلم، ويسره لليسرىٰ.

ومن كان بالضد فبالضد: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٤- ٢٧٨).



بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

فإن قلت: فقد أشرت إلىٰ سفر عظيم وأمر جسيم، فما زاد هذا السفر؟ وما طريقه؟ وما مركبه؟

قلت: زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ، ولا زاد له سواه؛ فمن لم يُحصِّل هذا الزاد فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الخالفين.

فرفقاء التخلف البطالون أكثر من أن يحصوا، فله أسوة بهم، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩].

فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب؛ فإن مصائب الدنيا إذا عمَّت صارت مسلاة، وتأسَّىٰ بعض المصابين ببعض؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرة الباكين حولي ... علىٰ إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلِّي النفس عنه بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة.

وأما طريقه: فهو بذل الجهد، واستفراغ الوسع؛ فلن ينال بالمنىٰ، ولا يدرك بالهوينا؛ وإنما كما قيل:

فخضْ غمرات الموت واسم إلىٰ ... لكي تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير في نفس تخاف من الردىٰ ... ولا همة تصبو إلىٰ لوم لائم

ولا سبيل إلىٰ ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: ألا يصبو في الحق إلىٰ لوم لائم؛ فان اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه، ويجعله طريحًا في الأرض.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتىٰ خافت النفس تأخرت وأحجمت، وأخلدت إلىٰ الأرض.

ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر؛ فمن صبر قليلًا صارت تلك الأهوال ريحًا رخاء في حقه تحمله بنفسها إلىٰ مطلوبه، فبينما هو يخاف منها؛ إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه.

وأما مركبه: فصدق اللجأ إلىٰ الله، والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه، والضراعة إليه، وصدق التوكل فيه، والاستعانة به، والانطراح بين يديه؛ كالإناء المسلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء فيه، فهو يتطلع إلىٰ قَيِّمه ووليه أن يجده ويلم شعثه، ويمده من فضله ويستره، فهذا الذي يرجىٰ له أن يتولىٰ الله هدايته، وأن يكشف له ما خفي علىٰ غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها. اهـ[1].

[التأني والتثبت في طلب العلم]

قال الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٦- ١٨]، ومن أسرار هذه الآيات أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وألا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه علىٰ مبادرة

(١) «الرسالة التبوكية» (١٨٩- ١٩٣).



المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه. بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال علىٰ تلقي الوحي؛ بل يصبر إلىٰ أن يفرغ جبريل من قراءته ثم يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر علىٰ معلمه حتىٰ يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالىٰ هذا المعنىٰ في ثلاثة مواضع من كتابه، هذا **أحدها**.

والثاني قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٣، ١١٥]، **والثالث**: قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلىٰ: ٦، ٧].

فضمن لرسوله ألا ينسىٰ ما أقرأه إياه، وهذا يتناول حال القراءة وما بعدها. اهـ[١].

[الحاجة إلى معرفة الرسول ﷺ وهديه]

اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلىٰ معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٩٥، ٢٩٦).

إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلا علىٰ أيديهم؛ فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزانُ الراجح الذي علىٰ أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدىٰ من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه، والعين إلىٰ نورها، والروح إلىٰ حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرِضَتْ، فضرورة العبد وحاجته إلىٰ الرسل فوقها بكثير. وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديُه وما جاء به طرفة عين فسد قلبُك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة؟! فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يُحِسُّ بهذا إلا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب علىٰ كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. اهـ(١).

[أصلان مهمان لكل إنسان]

كمال كل انسان إنما يتم بهذين النوعين: همة تُرَقِّيه، وعلم يبصِّره ويهديه؛ فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما؛ إما ألا

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٦٩، ٧٠).

يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسًا، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودًا منكوسًا، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيًا مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رُفِعَ له علم فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا لهجرة إلىٰ الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله.

ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرف العلم تابع لشرف معلومه، كانت نهاية سعادة العبد -الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياة له إلا بها- أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلىٰ ولا يفوت، وعزمات همته مسافرة الىٰ حضرة الحي الذي لا يموت، ولا سبيل له إلىٰ هذا المطلب الأسنىٰ والحظ الأوفىٰ إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعيًا، وأقامه علىٰ هذا الطريق هاديًا، وجعله واسطة بينه وبين الأنام، وداعيًا لهم بإذنه إلىٰ دار السلام، وأبىٰ سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا علىٰ يديه، أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه؛ فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة، والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسة مصدودة.

فحقٌّ علىٰ من كان في سعادة نفسه ساعيًا، وكان قلبه حيًّا عن الله واعيًا أن يجعل علىٰ هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله، وأن يصيرهما آخيته التي إليها مفزعه في حياته ومآله. اهـ[١].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢١٤، ٢١٥).

[فضل العلم على المال]

وفضل العلم علىٰ المال يعلم من وجوه:

أحدها: أن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الملوك والأغنياء.

الثاني: أن العلم يحرس صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

الثالث: أن المال تذهبه النفقات، والعلم يزكو علىٰ النفقة.

الرابع: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخل معه قبره.

الخامس: أن العلم حاكم علىٰ المال، والمال لا يحكم علىٰ العلم.

السادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن.

السابع: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.

الثامن: أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله -وذلك من كمالها وشرفها- والمال يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال، بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه؛ فحرصها علىٰ العلم عين كمالها، وحرصها علىٰ المال عين نقصها.

التاسع: أن المال يدعوها إلىٰ الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها

إلىٰ التواضع والقيام بالعبودية؛ فالمال يدعوها إلىٰ صفات الملوك، والعلم يدعوها إلىٰ صفات العبيد.

العاشر: أن العلم جاذب موصل لها إلىٰ سعادتها التي خلقت لها، والمال حجاب بينها وبينها...

الحادي عشر: أن أحب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

الثاني عشر: أن قيمة الغني ماله، وقيمة العالم علمه، فهذا متقوم بماله، فإذا عدم ماله عدمت قيمته وبقي بلا قيمة، والعالم لا تزول قيمته، بل هي في تضاعف وزيادة دائمًا...

الثالث عشر: أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الرابع عشر: أن العالم يدعو الناس إلىٰ الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلىٰ الدنيا بحاله وماله.

الخامس عشر: أن غنىٰ المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيرًا؛ فإنه معشوق النفوس، فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع، وأما غنىٰ العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به، والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه...

السادس عشر: أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه، والعلم إنما

يمدح بتحليه به واتصافه به...

السابع عشر: أن الغني بماله لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته، والغني بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم؛ فلذة الغنىٰ بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغنىٰ بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم. اهـ(١).

[معرفة سبيل المجرمين من كمال الإيمان]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

والله تعالىٰ قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلَّىٰ سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتىٰ شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلىٰ مقصوده والطريق الموصل إلىٰ الهلكة.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١٨- ٤٢١).



فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة.

وبذلك برز الصحابة علىٰ جميع من أتىٰ بعدهم إلىٰ يوم القيامة؛ فإنهم نشئوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسُّبل الموصلة إلىٰ الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلىٰ سبيل الهدىٰ وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلىٰ النور التام، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغيِّ إلىٰ الرشاد، ومن الظلم إلىٰ العدل، ومن الحيرة والعمىٰ إلىٰ الهدىٰ والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضدَّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضدُّ، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها؛ فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل علىٰ التفصيل.

وأمَّا من جاء بعد الصحابة؛ فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده، فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين؛ فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما؛ كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنما تنقض عُرىٰ الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وهذا من كمال علم عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها - وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ- فإنه من الجاهلية؛ فإنها منسوبة إلىٰ الجهل، وكل ما خالف الرسول ﷺ فهو من الجهل.

فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له، أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد

والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين ودعا إليها وكفَّر من خالفها، واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفَّر مَن خالفها.

والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الفرقة الأولىٰ: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين علىٰ التفصيل علمًا وعملًا، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام؛ وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر، ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلىٰ معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها، فهو يعرف ضدَّها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوره علىٰ التفصيل، بل إذا سمع شيئًا ما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولىٰ؛ فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها علىٰ تركها لله.

وقد كتبوا إلىٰ عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة: أيما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله ﷻ من الذين ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.



وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرها، وحذَّر منها، ودفعها عن نفسه، ولم يدعها تخدش وجه إيمانه، ولا تورثه شبهة ولا شكًّا، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها، أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه؛ فإنه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسرورًا به، فيقوىٰ إيمانه به. كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرَّت به فرغب عنها إلىٰ ضدها ازداد محبة لضدها ورغبة فيه وطلبًا له وحرصًا عليه. فما ابتلىٰ الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلىٰ محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدْوَم، وليجاهد نفسه علىٰ تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلىٰ المحبوب الأعلىٰ؛ فكلما نازعته نفسه إلىٰ تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلىٰ النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم؛ بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك؛ فإنها وإن كانت طالبة للأعلىٰ لكن بين الطلبين فرق عظيم؛ ألا ترىٰ أن من مشىٰ إلىٰ محبوبه علىٰ الجمر والشوك أعظم ممن مشىٰ إليه راكبًا علىٰ النجائب؟! فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلىٰ غيره؛ فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات؛ إمَّا حجابًا له عنه، أو حاجبًا له يوصله إلىٰ رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنىٰ بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع؛ فعرفها علىٰ التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجملة، وإن

تفصلت له في بعض الأشياء. ومن تأمَّل كتبهم رأىٰ ذلك عيانًا. وكذلك من كان عارفًا بطرق الشر والظلم والفساد علىٰ التفصيل سالكًا لها، إذا تاب ورجع عنها إلىٰ سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملًا غير عارف بها علىٰ التفصيل معرفة من أفنىٰ عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحبُّ أن تُعرف سبيل أعدائه لتُجتنب وتُبغض، كما يجب أن تُعرف سبيل أوليائه لتُحب وتُسلك. وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من: معرفة عموم ربوبيته سبحانه، وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته، وتعلقها بمتعلقاتها، واقتفائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة علىٰ ربوبيته وملكه وإلهيته، وحبه وبغضه، وثوابه وعقابه، والله أعلم. اهـ[1].

[مفاتيح]

قد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحًا يفتح به؛ فجعل مفتاح الصلاة الطهور؛ كما قال ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور**»[2]، ومفتاح الحج الإحرام، ومفتاح البر الصدق، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء، ومفتاح النصر والظفر الصبر، ومفتاح المزيد الشكر، ومفتاح الولاية والمحبة الذكر، ومفتاح الفلاح التقوىٰ، ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة الدعاء، ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا، ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده

---

(١) «الفوائد» (١٦٠ - ١٦٤).

(٢) رواه الترمذي في (الطهارة)، (ح٣)، وأحمد (١/ ١٢٣).



إلىٰ التفكر فيه، ومفتاح الدخول علىٰ الله إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك، ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب، ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده، ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوىٰ، ومفتاح العز طاعة الله ورسوله، ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل، ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل. وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم؛ وهو معرفة مفاتيح الخير والشر، لا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه؛ فإن الله ﷻ جعل لكل خير وشر مفتاحًا وبابًا يدخل منه إليه، كما جعل الشرك والكبر والإعراض عما بعث الله به رسوله، والغفلة عن ذكره والقيام بحقه مفتاحًا للنار، وكما جعل الخمر مفتاح كل إثم، وجعل الغنىٰ مفتاح الزنىٰ، وجعل إطلاق النظر في الصور مفتاح الطلب والعشق، وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان، وجعل المعاصي مفتاح الكفر، وجعل الكذب مفتاح النفاق، وجعل الشح والحرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير حله، وجعل الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ مفتاح كل بدعة وضلالة. وهذه الأمور لا يصدق بها إلا كل من له بصيرة صحيحة، وعقل يعرف به ما في نفسه، وما في الوجود من الخير والشر، فينبغي للعبد أن يعتني كل الاعتناء بمعرفة المفاتيح وما جعلت المفاتيح له، والله من وراء توفيقه وعدله، له الملك وله الحمد، وله النعمة والفضل، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]. اهـ[١].

---

(١) «حادي الأرواح» (١٠١، ١٠٢).

[الارتباط بين الظاهر والباطن]

الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته؛ فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له، إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلُّف العمل ظاهرًا مع عدم المانع دليل علىٰ فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته.

فالإيمان قلب الإسلام ولبُّه، واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث علىٰ العمل فمدخول. اهـ[1].

[الغيث إذا أصاب أرضًا]

في «الصحيح» من حديث أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله تعالىٰ به من الهدىٰ والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير؛ وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقىٰ الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله تعالىٰ ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ**

(١) «الفوائد» (١٢٨، ١٢٩).

وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به»[(١)]، فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلىٰ الهدي والعلم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولىٰ: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وهم الذين قاموا بالدين علمًا وعملًا ودعوة إلىٰ الله ﷻ ورسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- حقًّا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكا الناس بها. وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة علىٰ الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلىٰ الله عليهم وسلم الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥] أي: البصائر في دين الله ﷻ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوىٰ يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل، ففجَّرت من النصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها ورزقت فيها فهمًا خاصًّا؛ كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه.

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن **الطبقة الثانية**: فإنها حفظت النصوص وكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقوها منهم، فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (العلم)، باب (فضل من علم وعلَّم)، (ح٧٩)، ومسلم في (الفضائل)، (ح٢٢٨٢).

فيها ويبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ووردها كل بحسبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها كما سمعها، فربَّ حامل فقه غير فقيه، وربَّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**»[1]، وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حَبْر الأمة وترجمان القرآن؛ مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثًا، الذي يقول فيه: «سمعت، ورأيت»، وسمع الكثير من الصحابة وبورك في فهمه والاستباط منه حتىٰ ملأ الدنيا علمًا وفقهًا. قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار، وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس. وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]، وأين تقع فتاوىٰ ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوىٰ أبي هريرة وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه؛ بل هو حافظ الأمة علىٰ الإطلاق؛ يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درسًا، فكانت همته مصروفة إلىٰ الحفظ، وبلَّغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلىٰ التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها...

وأمَّا الطائفة الثالثة: وهم أشقىٰ الخلق الذين لم يقبلوا هدي الله، ولم يرفعوا به رأسًا، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

---

(١) سبق تخريجه ص٦٦٥.



فالطبقة الأولىٰ: أهل رواية ودارية.

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية، ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء؛ لا رواية ولا دراية ولا رعاية:﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٤]، فهم الذين يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه -مع ذلك- لباسه وزينته، [فإن ترقت همته فوق ذلك كان في داره وبستانه ومركوبه، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية كان همه في نصرة النفس السبعية. وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء؛ فإن النفوس ثلاثة: كلبية وسبعية وملكية][(١)].

فالكلبية تقنع بالعظم والكسرة والجيفة والقذرة، والسبعية لا تقنع بذلك بل بقهر النفوس؛ تريد الاستيلاء عليها بالحق والباطل. وأمَّا الملكية فقد ارتفعت عن ذلك وشمرت إلىٰ الرفيق الأعلىٰ؛ فهمتها العلم والإيمان ومحبة الله تعالىٰ والإنابة إليه وإيثار محبته ومرضاته، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذ لتستعين به علىٰ الوصول إلىٰ فاطرها وربها ووليها، لا لتنقطع به عنه. اهـ[(٢)].

---

(١) ما بين المعكوفين مُصوَّب من طبعة أخرىٰ للوابل الصيب تحقيق: محمد الطالبي، ونشر دار طيبة، وهي طبعة حديثة «١٤٢٥هـ» صدرت بعد الانتهاء من العمل في كتابي واعتمادي علىٰ طبعة دار الكتاب العربي.

(٢) «الوابل الصيب» (٨٢- ٨٦).

[عظم أمر الإفتاء]

قال عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: «أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا، حتىٰ ترجع إلىٰ الأول؛ ما منهم من أحد إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أفتىٰ الناس في كل ما يستفتونه فهو مجنون»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه.

وقال حصين الأسدي: «إن أحدكم ليفتي في المسألة لو وردت علىٰ عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر»، وعن الحسن والشعبي مثله.

وقال الحاكم: سمعت أبا عبد الله الصفار يقول: سمعت عبد الله بن أحمد يقول: سمعت أبي يقول: سمعت الشافعي يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت محمد بن عجلان يقول: «إذا أخطأ العالم (لا أدري) أصيبت مقاتله». وروي ذلك بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكر أبو عمر، عن القاسم بن محمد أنه جاءه رجل فسأله عن شيء فقال القاسم: «لا أحسنه، فجعل الرجل يقول: إني دفعت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلىٰ طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله لا أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلىٰ جنبه: يابن أخي، الزمها؛ فوالله ما رأيت في مجلس أبيك مثل اليوم، فقال القاسم: والله لئن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا أعلم».



وذكر أبو عمر عن ابن عيينة وسحنون: «أجسر الناس علىٰ الفتيا أقلهم علمًا».

وكان مالك بن أنس يقول: «من أجاب في مسألة فينبغي من قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه علىٰ الجنة أو النار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة».

سئل عن مسألة فقال: «لا أدري» فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: «ليس في العلم شيء خفيف؛ ألم تسمع قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥] فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة. وقال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ولا يجيب أحدهم في مسألة حتىٰ يأخذ رأي صاحبه، مع ما رزقوا من السداد والتوفيق مع الطهارة، فكيف بنا الذين غطت الخطايا والذنوب قلوبنا؟».

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «جاء رجل إلىٰ مالك يسأله عن شيء أيامًا ما يجيبه، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أريد الخروج وقد طال التردد إليك، فأطرق طويلًا، ثم رفع رأسه وقال: «ما شاء الله يا هذا، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه».

وسئل الشافعي عن مسألة فسكت فقيل له: ألا تجيب يرحمك الله؟ فقال: «حتىٰ أدري الفضل في سكوتي أو في الجواب».

وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي فتيا ولا يقول شيئًا إلا قال: «اللهم سلمني وسلم مني».

وقال سحنون: «أشقىٰ الناس من باع آخرته بدنياه، وأشقىٰ منه من باع آخرته

بدنيا غيره»، فقال: تفكرت فيه وجدته المفتي؛ يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقته فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب الحانث فيستمتع بامرأته ورقيقته وقد باع المفتي دينه بدنيا هذا». وجاء رجل إلىٰ سحنون يسأله عن مسألة، فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام، فقال: مسألتي، أصلحك الله اليوم ثلاثة أيام؟ فقال له: وما أصنع بمسألتك؛ مسألتك معضلة وفيها أقاويل، وأنا متحير في ذلك! فقال: وأنت أصلحك الله لكل معضلة، فقال سحنون: هيهات يابن أخي، ليس بقولك هذا أبذل لحمي ودمي للنار، وما أكثر ما لا أعرف، إن صبرت رجوتُ أن تنقلب بمسألتك، وإن أردت أن تمضي إلىٰ غيري فامض تجاب في مسألتك في ساعة، فقال: إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك، قال: فاصبرْ، ثم أجابه بعد ذلك.

وقيل له: إنك تُسأل عن المسألة لو سُئل عنها أحد من أصحابك لأجاب فيها فتتوقف فيها؟ فقال: «إن فتنة الجواب بالصواب أشد من فتنة المال».

وقال بعض العلماء: «قلَّ من حرص علىٰ الفتوىٰ، وسابق إليها، وثابر عليها؛ إلا قلَّ توفيقه واضطرب في أمره. وإن كان كارها لذلك غير مختار له، ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه إلىٰ غيره، كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في جوابه وفتاويه أغلب».

وقال بشر الحافي: «من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل». وذكر أبو عمر عن مالك: «أخبرني رجل أنه دخل علىٰ ربيعة فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك؟ أمصيبة دخلت عليك؟ وارتاع لبكائه! فقال: لا؛ ولكن استفتي من لا علم له وظهر في الإسلام أمر عظيم».



قال ربيعة: «ولبعض مَن يفتي هاهنا أحق بالحبس من السراق». اهـ[(١)].

[الإفتاء]

قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأن ذلك يتناول القول علىٰ الله بغير علم في أسمائه وصفاته وشرعه ودينه.

وفي حديث أبي هريرة المرفوع: «مَن أفتي بفتيا غير ثبت فإنما إثمه علىٰ من أفتاه»[(٢)].

وروىٰ الزهري عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع النبي ﷺ قومًا يتمارون في القرآن فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم بهذا؛ ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضًا، ولا يكذب بعضه بعضًا، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم منه فكِلُوه إلىٰ عالمه**»[(٣)]، فأمر من جهل شيئًا من كتاب الله أن يكله إلىٰ عالمه، ولا يتكلف القول بما لا يعلمه.

وروىٰ مالك بن مِغْول، عن أبي حصين، عن مجاهد، عن عائشة رضي الله عنها أنه لما نزل عذرها قَبَّل أبو بكر رأسها، قالت: «فقلت: ألا عذرتني عند النبي ﷺ؟ فقال: أي سماء تُظِلُّني، وأي أرض تُقِلُّني إذا قلت ما لا أعلم؟».

وروىٰ أيوب عن ابن أبي مُلَيكة قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن آية،

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٣٤- ٢٣٦).

(٢) رواه ابن ماجة في «المقدمة»، (ح٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٢١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٨٥).

فقال: «أي أرض تقلني وأي سماء تظلني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع إذا أنا قلت في كتاب الله بغير ما أراد الله بها؟».

وذكر البيهقي من حديث مسلم البطين بن أبي عمران البطين، عن عَزَرَة التميمي قال: قال علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه في الجنة-: «وابَرْدَها على كبدي! -ثلاث مرات- قالوا: يا أمير المؤمنين، وما ذاك؟ قال: أن يُسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم».

وذكر أيضًا عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «خمس إذا سافر فيهن رجل إلى اليمن كنَّ فيه عوضًا من سفره: لا يخشى عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد».

وقال الزهري، عن خالد بن أسلم -وهو أخو زيد بن أسلم-: خرجنا مع ابن عمر نمشي، فلحقنا أعرابي فقال: أنت عبد الله بن عمر؟ قال: نعم، قال: سألت عنك، فدللت عليك، فأخبرني: أترث العمة؟ قال: لا أدري، قال: أنت لا تدري؟! قال: نعم؛ اذهب إلى العلماء بالمدينة فاسألهم؛ فلما أدبر قبَّل يديه وقال: نِعِمَّا قال أبو عبد الرحمن؛ سُئل عما لا يدري فقال: لا أدري.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من كان عنده علم فليقل به؛ ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم؛ فإن الله قال لنبيه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]. وصح عن ابن مسعود وابن عباس: من أفتى الناس في



كل ما يسألونه عنه فهو مجنون.

وقال ابن شبرمة: سمعت الشعبي إذا سئل عن مسألة شديدة قال: ربَّ ذات وَبَر لا تنقاد ولا تنساق؛ ولو سُئل عنها الصحابة لعضلتْ بهم.

وقال أبو حصين الأسدي: «إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت علىٰ عمر لجمع لها أهل بدر».

وقال ابن سيرين: «لأن يموت الرجل جاهلًا خير له من أن يقول ما لا يعلم».

وقال القاسم: «من إكرام الرجل نفسه ألا يقول إلا ما أحاط به علمه».

وقال: «يا أهل العراق، والله لا نعلم كثيرًا مما تسألوننا عنه، ولأن يعيش الرجل جاهلًا إلا أن يعلم ما فرض الله عليه خير له من أن يقول علىٰ الله ورسوله ما لا يعلم».

وقال مالك: «من فقه العالم أن يقول: «لا أعلم؛ فإنه عسىٰ أن يتهيأ له الخير».

وقال: «سمعت ابن هُرْمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده (لا أدري)، حتىٰ يكون ذلك أصلًا في أيديهم يفزعون إليه».

وقال الشعبي: «لا أدري: نصف العلم».

وقال ابن جُبَير: «ويل لمن يقول لما لا يعلم: إني أعلم».

وقال الشافعي: «سمعت مالكًا يقول: سمعت ابن عجلان يقول: إذا أغفل العالم (لا أدري) أصيبت مَقاتله»، وذكر ابن عجلان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «جاء رجل إلىٰ مالك، فسأله عن شيء فمكث أيامًا ما يجيبه، فقال: يا أبا عبد الله، إني أريد الخروج، فأطرق طويلًا، ورفع رأسه، فقال: ما شاء الله، يا هذا، إني أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه».

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: العجلة في الفتوىٰ نوعٌ من الجهل والخرق، قال: وكان يقال: التأني من الله، والعجلة من الشيطان. وهذا الكلام قد رواه الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «**التأني من الله، والعجلة من الشيطان**»[1]، وإسناده جيد.

وقال ابن المنكدر: «العالم بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم».

وقال ابن وهب: «قال لي مالك وهو ينكر كثرة الجواب في المسائل: يا عبد الله، ما علمتَ فقل، وإياك أن تُقلِّد الناس قلادة سوء».

وقال مالك: «حدثني ربيعة قال: قال لي أبو خَلَدَة -وكان نعم القاضي-: يا ربيعة، أراك تفتي الناس، فإذا جاءك الرجل يسألك فلا يكن همك أن تتخلص مما سألك عنه».

وكان ابن المسيب لا يكاد يفتي إلا قال: «اللهم سلمني وسلم مني».

وقال مالك: «ما أجبت في الفتوىٰ حتىٰ سألت من هو أعلم مني: هل تراني

---

(١) رواه البيهقي في «السنن»، باب (التثبت في الحكم)، (ح٢٠٠٥٧)، (١٠/ ١٠٤)، وأبو يعلي في «مسنده»: (٧/ ٢٤٧)، (ح٤٢٥٦).



موضعًا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيىٰ بن سعيد، فأمراني بذلك، فقيل له: يا أبا عبد الله، فلو نَهَوْكَ؟ قال: كنت أنتهي».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمولاه عكرمة: «اذهب فأفت الناس وأنا لك عون، فمن سألك عما يعنيه فأفْته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفْتِه، فإنك تطرح عن نفسك ثلث مؤنة الناس».

وكان أيوب إذا سأله السائل قال له: أَعِدْ، فإن أعاد السؤال كما سأله عنه أولًا أجابه، وإلا لم يجبه، وهذا من فهمه وفطنته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن المسألة تزداد وضوحًا وبيانًا بتفهم السؤال.

ومنها: أن السائل لعله أهمل فيها أمرًا يتغير به الحكم، فإذا أعادها ربما بينه له.

ومنها: أن المسئول قد يكون ذاهلًا عن السؤال أولًا، ثم يحضر ذهنه بعد ذلك.

ومنها: أنه ربما بان له تعنُّت السائل وأنه وضع المسألة؛ فإذا غيَّر السؤال وزاد فيه ونقص، فربما ظهر له أن المسألة لا حقيقة لها، وأنها من الأغْلُوطات أو غير الواقعات التي لا يجب الجواب عنها؛ فإن الجواب بالظن إنما يجوز عند الضرورة، فإذا وقعت المسألة صارت حال ضرورة، فيكون التوفيق إلىٰ الصواب أقرب، والله أعلم. اهـ[1].

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦٤- ١٦٨).

[القول على الله بغير علم]

حرَّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفُتْيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها؛ فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها؛ وهو الفواحش، ثم ثنىٰ بما هو أشد تحريمًا منه؛ وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما؛ وهو الشرك به سبحانه، ثم رَبَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله؛ وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد علىٰ الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يُحرِّمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه.

وقال بعض السلف: «ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرَّم كذا، فيقول الله له: كذبت، لم أحل كذا، ولم أحرم كذا؛ فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المبين بتحليله وتحريمه: أحله الله وحرَّمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل»، وقد نهىٰ النبي ﷺ في الحديث الصحيح أميره «بريدة» أن ينزل



عدوه إذا حاصرهم علىٰ حكم الله، وقال: «**فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ ولكن أنزلهم علىٰ حكمك وحكم أصحابك**»[(١)]، فتأملْ كيف فرق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد، ونهىٰ أن يُسمَّىٰ حكم المجتهدين حكم الله.

ومن هذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكمًا حكم به فقال: هذا ما أرىٰ الله أمير المؤمنين عمر، فقال: لا تقل هكذا؛ ولكن قل: هذا ما رأىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: «لم يكن من أمر الناس ولا من مضىٰ من سلفنا، ولا أدركت أحدًا اقتُدي به يقول في شيء: هذا حلال، وهذا حرام، وما كانوا يجترئون علىٰ ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكْره كذا، ونرىٰ هذا حسنًا؛ فينبغي هذا، ولا نرىٰ هذا». ورواه عنه عتيق بن يعقوب، وزاد: «ولا يقولون حلال ولا حرام؛ أما سمعت قول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩]، الحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله» اهـ[(٢)].

[زلة العالم]

المصنفون في السُّنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله، وبيان زلة العالم، ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولا بدَّ؛ إذ ليس بمعصوم، فلا

---

(١) رواه مسلم بنحوه في (الجهاد والسير)، باب (تأمير الإمام الأمراء)، (ح١٧٣١).
(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ٣٩- ٤١).

يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة قول المعصوم.

فهذا الذي ذمَّه كل عالم علىٰ وجه الأرض، وحرَّموه، وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم؛ فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه، وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع، ولا بد لهم من ذلك؛ إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه، والخطأ واقع منه ولا بد.

وقد ذكر البيهقي وغيره من حديث كثير هذا عن أبيه عن جده مرفوعًا: «اتقوا زلة العالم، وانتظروا فيئته»(١).

وذكر من حديث مسعود بن سعد، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أشد ما أتخوف علىٰ أمتي ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم»**(٢). ومن المعلوم أن المخوف في زلة العالم تقليده فيها؛ إذ لولا التقليد لم يخف من زلة العالم علىٰ غيره.

فإذا عرف أنها زلة لم يجز له أن يتبعه فيها باتفاق المسلمين، فإنه اتباع للخطأ علىٰ عمد، ومن لم يعرف أنها زلة فهو أعذر منه، وكلاهما مفرِّط فيما أمر به.

وقال الشعبي: قال عمر: «يُفْسِد الزمان ثلاثة: أئمة مُضلون، وجدال المنافق بالقرآن -والقرآن حق- وزلة العالم». وقد تقدم أن معاذًا كان لا يجلس

---

(١) رواه البيهقي في «سننه»، باب (ما تجوز به شهادة أهل الأهواء)، (١٠/ ٢١١)، (ح٢٠٧٠٦).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٣٨)، (ح٢٨٢)، وفي «الأوسط» بنحوه (٨/ ٣٠٧)، (ح٨٧١٥).



مجلسًا للذكر إلا قال حين يجلس: «الله حكم قِسْط، هلك المرتابون...» الحديث، وفيه: «وأحذركم زيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق». قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال لي: «اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه؛ فإنه لعله يراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعته؛ فإن على الحق نورًا».

وذكر البيهقي من حديث حماد بن زيد، عن المثنى بن سعيد، عن أبي العالية قال: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل: وكيف ذاك يا أبا العباس؟ قال: يقول العالم من قبل رأيه، ثم يسمع الحديث عن النبي ﷺ فيدع ما كان عليه، وفي لفظ: فيلقى مَن هو أعلم برسول الله ﷺ منه، فيخبره فيرجع، ويقضي الأتباع بما حكم».

وقال تميم الداري: اتقوا زلة العالم، فسأله عمر: ما زلة العالم؟ قال: يزل بالناس فيؤخذ به، فعسى أن يتوب العالم والناس يأخذون بقوله.

وقال شعبة: عن عمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن سلمة قال: قال معاذ بن جبل: يا مَعْشَر العرب، كيف تصنعون بثلاث: دنيا تقطع أعناقكم، وزلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، فسكتوا، فقال: أما العالم فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وإن افتتن فلا تقطعوا منه إياسكم؛ فإن المؤمن يفتتن ثم يتوب، وأما القرآن فله منار كمنار الطريق، فلا يخفى على أحد، فما عرفتم منه فلا تسألوا عنه، وما شككتم فكِلُوه إلى عالمه، وأما الدنيا فمن جعل الله الغنى في قلبه فقد أفلح، ومن لا فليس بنافعته دنياه.

وذكر أبو عُمر من حديث حسين الجعفي، عن زائدة، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري قال: قال سلمان: كيف أنتم عند ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم؟ فأما زلة العالم، فإن اهتدىٰ فلا تقلدوه دينكم، وأما مجادلة المنافق بالقرآن، فإن للقرآن منارًا كمنار الطريق، فلا يخفىٰ علىٰ أحد، فما عرفتم منه فخذوه، وما لم تعرفوه فكِلوه إلىٰ الله، وأما دنيا تقطع أعناقكم، فانظروا إلىٰ من هو دونكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم. قال أبو عمر: وتُشبَّه زلة العالم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

قال أبو عمر: وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطئ، لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه.

وقال غير أبي عمر: كما أن القضاة ثلاثة؛ قاضيان في النار، وواحد في الجنة، فالمفتون ثلاثة، ولا فرق بينهما إلا في كون القاضي يُلزم بما أفتىٰ به، والمفتي لا يُلزِم به. وذكر أبو عمر، عن أبي البختري، عن علي قال: إياكم والاستنان بالرجال؛ فإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة، ثم ينقلب لعلم الله فيه، فيعمل بعمل أهل النار، فيموت وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، فينقلب لعلم الله فيه، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بدَّ فاعلين فبالأموات لا بالأحياء.

وقال ابن مسعود: لا يقلدن أحدكم دينه رجلًا إن آمن آمن، وإن كفر كفر؛ فإنه لا أُسْوة في الشر.



قال أبو عمر: وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**يذهب العلماء، ثم يتخذ الناس رءوسًا جهالًا يُسألون، فيفتون بغير علم؛ فيضلُّون ويُضِلُّون**»(١).

قال أبو عمر: وهذا كله نفي للتقليد، وإبطال له لمن فهمه، وهدىٰ لرشده. ثم ذكر من طريق يونس بن عبد الأعلىٰ: ثنا سفيان بن عيينة قال: اضطجع ربيعة مقنعًا رأسه وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رياء ظاهر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في إمامهم: ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروا به ائتمروا.

وقال عبد الله بن المعتمر: لا فرق بين بهيمة تنقاد وإنسان يقلد. اهـ(٢).

[عالم السوء]

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول علىٰ الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي علىٰ خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات؛ فإنهم لا تتمُّ لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوىٰ؛ فيخفىٰ الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم علىٰ مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم قال

(١) رواه بنحوه البخاري في (العلم)، باب (كيف يقبض العلم)، (ح١٠٠)، ومسلم في (العلم)، (ح٢٦٧٣).
(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٧٣ - ١٧٧).

تعالىٰ: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ [مريم: ٥٩]، وقال تعالىٰ فيهم أيضًا: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنىٰ مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرَض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون علىٰ ذلك، وذلك هو الحامل لهم علىٰ أن يقولوا علىٰ الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أوَلَا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟ فتارة يقولون علىٰ الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا؛ فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة علىٰ أن يؤثروا الدنيا علىٰ الآخرة؛ وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخِسَّتها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران؛ فإن اتباع الهوىٰ يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرىٰ البدعة سُنَّة والسنة بدعة. اهـ[1].

❧♦☙

---

(١) «الفوائد» (١٤٩، ١٥٠).

الفصل الخامس: الدعوة

[فضل الدعوة إلى الله]

درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من عمل بتعليمهم وإرشادهم أو عَلَّم غيره شيئًا من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جاريًا في الأمة على آباد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**والله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»(١)، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**مَن سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده؛ كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئًا**»(٢)، وصح عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٣)، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(٤)، وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «**إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى النملة في جحرها**»(٥)، وعنه ﷺ أنه قال: «**إن الله وملائكته يصلون**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب (المناقب)، (ح٣٧٠١)، ومسلم في (فضائل الصحابة)، (ح٢٤٠٦).

(٢) رواه مسلم بنحوه في (العلم)، باب (من سن سنة حسنة)، (ح١٠١٧).

(٣) رواه مسلم في (الوصية)، باب (ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته)، (ح١٦٣١).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في (العلم)، (ح٧١)، ومسلم في (الزكاة)، (ح١٠٣٧).

(٥) رواه بنحوه: أبو داود في (العلم)، (ح٣٦٤١)، والترمذي في (العلم) (ح٢٦٨٢) وفيه:
=

علىٰ معلم الناس الخير»(١)، وعنه ﷺ أنه قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر»(٢)، وعنه ﷺ: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد»(٣)، وعنه ﷺ أنه قال: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»(٤). والأحاديث في هذا كثيرة. وقد ذكرنا مائتي دليل علىٰ فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيا لها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها، أن يكون المرء في حياته مشغولًا ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالًا متفرقة، وصحف حسناته متزايدة تُملىٰ فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴿٢٦﴾﴾ ، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات، وتتوجه نحوها الطلبات، فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير

= «والحيتان في جوف الماء» بدلًا من قوله: «النملة في جحرها»، وإنما ورد ذكر النملة في الحديث الذي يليه؛ كما هو مبين في هامش (١) من صفحة ٧٠٢.

(١) رواه الترمذي في (العلم)، باب (فضل العلم علىٰ العبادة)، (ح٢٦٨٥)؛ وفيه: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتىٰ النملة في جحرها، وحتىٰ الحوت ليصلون علىٰ معلم الناس الخير»، وقال: حسن غريب.

(٢) هو تتمة الحديث المخرج في هامش (٥) من صفحة ٧٠١.

(٣) رواه ابن ماجة في (المقدمة)، باب (فضل العلماء ...)، (ح٢٢٨).

(٤) سبق تخريجه ص٦٦٥.



أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه.

وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلَّم، فذلك يدعىٰ عظيمًا في ملكوت السماء.

وهؤلاء هم العدول حقًّا بتعديل رسول الله ﷺ لهم؛ إذ يقول فيما يروىٰ عنه من وجوه شد بعضها بعضًا: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[١].

وما أحسن ما قال فيهم الإمام أحمد في خطبة كتابه في «الرد علىٰ الجهمية»: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، ويبصرون بنور الله أهل العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل قد هدوه، فما أحسن أثرهم علىٰ الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين». وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. اهـ[٢].

[حقيقة دعوة الرسل]

الرسل من أولهم إلىٰ خاتمهم -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- أُرسلوا بالدعوة إلىٰ الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ٣٤٤)، (ح٥٩٩)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ٢٠٩)، (ح٢٠٧٠٠).

(٢) «طريق الهجرتين» (٣٥٣، ٣٥٤).

إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل مِلَّة علىٰ لسان كل رسول.

فعرَّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصلًا، حتىٰ كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته علىٰ عرشه؛ يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرىٰ أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم؛ يأمر وينهىٰ، ويرضىٰ ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غِيره، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي؛ يؤتي الحكمة من يشاء، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو علىٰ كل شيء قدير، كل يوم هو في شأن؛ يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويفك عانيًا، وينصر مظلومًا، ويقصم ظالمًا، ويرحم مسكينًا، ويغيث ملهوفًا، ويسوق الأقدار إلىٰ مواقيتها، ويجريها علىٰ نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره؛ فأَزِمَّة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزُبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم؛ وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض، والميزان والصراط. اهـ[(١)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٩٢، ٢٩٣).



[آيات الرسل وطريقتهم في الدعوة]

من أخفىٰ آيات الرسل: آيات هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتىٰ قال له قومه: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، ومع هذا فبينته من أظهر البينات، وقد أشار إليها بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤- ٥٦]، فهذا من أعظم الآيات: أن رجلًا واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جَزِع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولًا علىٰ براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، مُعلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم -إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة-: أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم علىٰ كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعالجونه ولا يُمهلونه، وفي ضمن ذلك أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك، وأنكم لو رُمْتُموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبيَّن أن ربه تعالىٰ وربهم، الذي نواصيهم بيده: هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه علىٰ صراط مستقيم؛ فلا

يخذل من توكل عليه وآمن به، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه؛ فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه -في قوله وفعله- يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه؛ فإن الصراط المستقيم هو العدل الذي عليه الرب تعالىٰ، ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسله علىٰ أعدائهم، وأنه يذهب بهم، ويستخلف قومًا غيرهم، ولا يضره ذلك شيئًا، وأنه القائم سبحانه علىٰ كل شيء حفظًا ورعايةً وتدبيرًا وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم بيَّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**». اهـ(١)(٢).

[مراتب الدعوة]

قال تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو؛ فإنه إما

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري في (فضائل القرآن)، (ح٤٩٨١)، ومسلم في (الإيمان)، (ح١٥٢).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٠٣، ٤٠٤).



أن يكون طالبًا للحق راغبًا فيه، محبًا له، مؤثرًا له علىٰ غيره إذا عرفه، فهذا يدعىٰ بالحكمة ولا يحتاج إلىٰ موعظة ولا جدال. وإما أن يكون معرضًا مشتغلًا بضد الحق، ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلىٰ الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معاندًا معارضًا، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلىٰ الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلىٰ الجلاد إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

إحداهما: أن يُرد عن باطله ويرجع إلىٰ الحق.

الثانية: أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل.

وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف؛ فإنه كفيل بذلك علىٰ أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهمًا فيه وحججه، مع أنها في أعلىٰ مراتب الحجج، وهي طريقة أخرىٰ غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل والمعقولات؛ فهي أقرب شيء تناولًا، وأوضح دلالة، وأقوىٰ برهانًا، وأبعد من كل شبهة وتشكيك. اهـ[(١)].

[الداعية الناجح]

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرون علىٰ تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم علىٰ دنياهم؛ فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، فكيف يُؤمر بالفضيلة من لم يُقِم الفريضة!

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٧٦).

فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله؛ فإن القلوب مفطورة علىٰ محبته، فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإصرار عليها والاستقلال منها.

وقد قال يحيىٰ بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

العارف يدعو الناس إلىٰ الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلىٰ الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة؛ فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد، ولكن تخيَّر من المرضعات أزكاهن وأفضلهن؛ فإن للبن تأثيرًا في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقىٰ يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة، فإن قويت علىٰ مرارة الفطام وإلا فارتضع بقدرٍ؛ فإن من البشم[(١)] ما يقتل. اهـ[(٢)].

[شروط الانتفاع بالعظة]

قال الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها، والعمىٰ عن عيب الواعظ، وتذكر الوعد والوعيد».

إنما يشتد افتقار العبد إلىٰ العظة -وهي الترغيب والترهيب- إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتىٰ قويت إنابته وتذكره: لم تشتد حاجته إلىٰ التذكير والترغيب والترهيب؛ ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلىٰ معرفة الأمر والنهي.

---

(١) البشم: التخمة.

(٢) «الفوائد» (٢٤٣، ٢٤٤).

و«**العظة**» **يراد بها أمران**: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة. فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلىٰ الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلىٰ الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلىٰ المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنة، ووصفُ الحسن لها ذاتي.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان؛ إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلىٰ حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه؛ فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن. ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله علىٰ المقصود، وأوصله إلىٰ المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وأمّا ما ذكره بعض المتأخرين: أن هذا إشارة إلىٰ أنواع القياسات فـ«الحكمة» هي طريقة البرهان، و«الموعظة الحسنة» هي طريقة الخطابة، و«المجادلة بالتي هي أحسن» طريقة الجدل، **فالأول**: بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضىٰ إلا بالبرهان، ولا ينقاد إلا له، وهم خواص الناس. **والثاني**: بذكر المقدمات الخطابية التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة؛ وهم الجمهور. **والثالث**: بذكر المقدمات

الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل؛ وهم المخالفون؛ فتنزيل[1] القرآن علىٰ قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم، وذلك باطل قطعًا من وجوه عديدة ليس هذا موضع ذكرها. وإنما ذكر هذا استطرادًا لذكر العظة، وأن المنيب المتذكر لا تشتد حاجته إليها كحاجة الغافل المعرض؛ فإنه شديد الحاجة جدًّا إلىٰ العظة ليتذكر ما قد نسيه، فينتفع بالتذكر.

وأما العمىٰ عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حُرم الانتفاع بموعظته؛ لأن النفوس مجبولة علىٰ عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعمله ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواءً لمرض به مثله، والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه؛ بل الطبيب المذكور عندهم أحسن حالًا من هذا الواعظ المخالف لما يعظ به؛ لأنه قد يقوم دواء آخر عنده مقام هذا الدواء، وقد يرىٰ أن به قوة علىٰ ترك التداوي، وقد يقنع بعمل الطبيعة وغير ذلك، بخلاف هذا الواعظ؛ فإن ما يعظ به طريق معين للنجاة لا يقوم غيرها مقامها، ولا بد منها، ولأجل هذه النفرة قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه، وقد قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلَّا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام من الضنىٰ ... ومن الضنىٰ تمسي وأنت سقيم

---

(١) قوله: فتنزيل القرآن ... إلخ، هو جواب كلمة أمَّا المذكورة في أول الفقرة، فلينتبه لذلك حتىٰ يفهم مراد ابن القيم رحمه الله.



لا تَنْـه عـن خُلُـق وتـأتي مثلـه	عـار عليـك إذا فعلـت عظـيم
ابـدأ بنفسـك فانْهَهـا عـن غَيِّهـا	فـإذا انتهـت عنـه فأنـت حكـيم
هنـاك يُقبـل مـا تقـول ويُقْتـدَىٰ	بـالقول منـك وينفـع التعلـيم

فالعمىٰ عن عيب الواعظ من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه، ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به وخافه ورجاه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥]. وأصرح من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]، فالإيمان بالوعد والوعيد، وذكره شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، يستحيل حصوله بدونه. اهـ[1].

[أقل الناس دينًا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

من له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه، رأىٰ أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس دينًا، والله المستعان.

وأي دين وأي خير فيمن يرىٰ محارم الله تُنْتَهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس؟! كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذي إذا سلمت

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤- ٤٣٦).

لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرىٰ علىٰ الدين؟ وخيارهم المُتَحَزِّن المُتَلَمِّظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه. وهؤلاء -مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم- قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون: وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتمَّ كان غضبه لله ورسوله أقوىٰ، وانتصاره للدين أكمل.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرًا: أن الله سبحانه أوحىٰ إلىٰ ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب، كيف وفيهم فلان العابد؟ فقال: به فابدأ؛ فإنه لم يتمعَّر وجهه فيَّ يومًا قط.

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد: «أن الله سبحانه أوحىٰ إلىٰ نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: أمَّا زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد تكسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا رب، وأي شيء لك عليَّ؟ قال: هل واليت فيَّ وليًّا، أو عاديت فيَّ عدوًّا؟». اهـ[(١)].

[المخاطبة بالقول اللين]

كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة، فلا يصادفها، فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة؛ وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٥٥، ١٥٦).



الصاحي، وذلك غلط؛ فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثيرٍ، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين؛ فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفا، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل. وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [النازعات: ١٨]، فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر، وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ ولم يقل: إلى أن أزكيك؛ فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩] أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا.

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢﴾ [مريم: ٤٢] فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢﴾ ، ولم يقل: لا تعبد، ثم قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣] فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى، فقال: ﴿جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ، ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ [مريم: ٤٣].

وهذا مثل قول موسىٰ عليه السلام لفرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩]، ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٥]، فنسب الخوف إلىٰ نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيقُ الخائف علىٰ مَن يُشفق عليه.

وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ ، فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل: الجبار ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا؟!

ونظير هذا خطاب صاحب ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ [يس: ١] لقومه؛ حيث قال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٢٠ - ٢٢].

ونظير هذا قول نوح لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٢- ٤]، وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأممهم في القرآن؛ إذا تأملته وجدته ألينَ خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده [هو][1] ألطف خطاب وألينه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] الآيات، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥].

(١) في المطبوعة: وألطف، وما أثبته هو ما يقتضيه السياق.



وتأمل ما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠] من اللطف الذي سلب القلوب.

وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٥] علىٰ أحد التأويلين؛ أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم.

وتأملْ لطف خطاب نُذُر الجن لقومهم وقولهم: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣١]. اهـ(١).

[الاهتمام بالألفاظ]

رأىٰ الرشيد في دار حزمةَ خيزران، فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ قال عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يقل: الخيزران؛ لموافقة اسم أمه.

ونظير هذا: أن بعض الخلفاء سأل ولده -وفي يده مسواك-: ما جمع هذا؟ قال: ضد محاسنك يا أمير المؤمنين. وهذا من الفراسة في تحسين اللفظ. وهو باب عظيم النفع، اعتنىٰ به الأكابر والعلماء، وله شواهد كثيرة في السنة، وهو من خاصية العقل والفطنة.

فقد روينا عن عمر رَضِّيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه خرج يَعُسُّ المدينة بالليل، فرأىٰ نارًا موقدة

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١١٧، ١١٨).

في خباء، فوقف وقال: «يا أهل الضوء»، وكره أن يقول: يا أهل النار.

وسأل رجلًا عن شيء: «هل كان؟»، قال: لا، أطال الله بقاءك، فقال: «قد عُلِّمتم فلم تتعلموا؛ هلا قلت: لا، وأطال الله بقاءك؟».

وسُئل العباس رضي الله عنه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله.

وسئل عن ذلك قُباث بن أشيم، فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أسن منه.

وكان لبعض القضاة جليس أعمىٰ، فكان إذا أراد أن ينهض يقول: يا غلام، اذهب مع أبي محمد، ولا يقول: خذْ بيده، قال: والله ما أخل بها مرة واحدة.

ومن ألطف ما يحكىٰ في ذلك: أن بعض الخلفاء سأل رجلًا عن اسمه؟ فقال: سعد يا أمير المؤمنين، فقال: أي السعود أنت؟ قال: سعد السعود لك يا أمير المؤمنين، وسعد الذابح لأعدائك، وسعد بَلَع علىٰ سماطك، وسعد الأخبية لسرك. فأعجبه ذلك.

ويشبه هذا: أن مَعْن بن زائدة دخل علىٰ المنصور، فقارب في خَطْوه، فقال له المنصور: كبِرت سِنُّك يا معن، قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: إنك لجلد، قال: علىٰ أعدائك، قال: وإن فيك لبقية، قال: وهي لك.

وأصل هذا الباب قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، إذا كلَّم بعضهم بعضًا بغير التي هي أحسن، فرب حرب كان وقودها جُثث وهام أهاجها قبيح الكلام.

وفي الصحيحين، من حديث سهل بن حنيف، قال: قال رسول الله: «**لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي**»(١). وخبثت ولقست وغثت متقاربة في المعنىٰ؛ فكره رسول الله ﷺ لفظ «الخبث» لبشاعته، وأرشدهم إلىٰ العدول إلىٰ لفظ هو أحسن منه -وإن كان بمعناه- تعليمًا للأدب في المنطق، وإرشادًا إلىٰ استعمال الحسن، وهجر القبيح في الأقوال، كما أرشدهم إلىٰ ذلك في الأخلاق والأفعال. اهـ(٢).

[أهمية الأسلوب والتعبير]

وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق؟ وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل؟ ومن له أدنىٰ فطنة وخبرة لا يخفىٰ عليه ذلك، بل هذا أغلب أحوال الناس، ولكثرته وشهرته يستغني عن الأمثلة. بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلها وجدها قد أخرجها أصحابها في قوالب مستحسنة وكسوها ألفاظًا بها من لم يعرف حقيقتها، ولقد أحسن القائل:

تقول هذا جناء النَّحْل تمدحه ... وإن تشأ قلت: ذا قيء الزنابير
مدحًا وذمًّا، وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوءُ تعبير

ورأىٰ بعض الملوك كأن أسنانه قد سقطت، فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه، فأقصاه وطرده، واستدعىٰ آخر فقال له: لا عليك، تكون أطول أهلك

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (الأدب)، (ح٦١٧٩)، ومسلم في (الألفاظ من الأدب وغيرها)، (ح٢٢٥٠).
(٢) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» (٤٢- ٤٤).

عمرًا، فأعطاه وأكرمه وقربه، فاستوفى المعنىٰ، وغير له العبارة، وأخرج المعنىٰ في قالب حسن. اهـ[١].

[الوقوف مع الظواهر والألفاظ وتسمية الأشياء بغير اسمها]

ما مَثَلُ من وقف مع الظواهر والألفاظ ولم يراع المقاصد والمعاني إلا كمثل رجل قيل له: لا تسلم علىٰ صاحب بدعة، فقبل يده ورجله ولم يسلم عليه! أو قيل له: اذهبْ فاملأ هذه الجرة، فذهب فملأها، ثم تركها علىٰ الحوض وقال: لم تقل: ايتني بها! وكمن قال لوكيله: بعْ هذه السلعة، فباعها بدرهم وهي تساوي مائة، ويَلْزَم مَن وقف مع الظواهر أن يصحح هذا البيع، ويُلْزم به الموكل، وإن نظر إلىٰ المقاصد تناقض حيث ألقاها في غير موضع.

وكمن أعطاه رجل ثوبًا فقال: والله لا ألبسه لما له فيه من المنة، فباعه وأعطاه ثمنه فقبله، وكمن قال: والله لا أشرب هذا الشراب، فجعله عقيدًا أو ثَرَدَ فيه خبزًا وأكله، ويلزم مَن وقف مع الظواهر والألفاظ ألا يحد من فعل ذلك بالخمر، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ أن من الأمة من يتناول المحرم ويسميه بغير اسمه فقال: «**ليشربنَّ ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يُعْزَف علىٰ رءوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير**»[٢]، رواه أحمد وأبو داود.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) رواه بتمامه ابن ماجة في الفتن، (ح٤٠٢٠)، ورواه أيضًا مختصرًا أبو داود في (الأشربة)، =



وفي مسند الإمام أحمد مرفوعًا: «**يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**»(١).

وفيه عن عُبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ: «**يشرب ناس من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه**»(٢).

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي أمامة يرفعه: «**لا تذهب الليالي والأيام حتىٰ تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**»(٣).

قال شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقد جاء حديث آخر يوافق هذا مرفوعًا وموقوفًا من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يأتي علىٰ الناس زمان يُستحل فيه خمسة أشياء: يستحلون الخمر باسم يسمونها إياه، والسُّحْت بالهدية، والقتل بالرهبة، والزنىٰ بالنكاح، والربا بالبيع**»(٤) وهذا حق؛ فإن استحلال الربا باسم البيع ظاهر كالحيل الربوية التي صورتها صورة البيع وحقيقتها حقيقة الربا، ومعلوم أن الربا إنما حرم لحقيقته ومفسدته، لا لصورته واسمه؛ فهبْ أن المرابي لم يسمِّه ربًا وسماه بيعًا، فذلك لا يخرج حقيقته وماهيته عن نفسها...

= (ح٣٦٨٨، ٣٦٨٩).

(١) رواه الإمام أحمد بنحوه (٤/ ٢٣٧، ٥/ ٣٤٢).

(٢) ليس فيما وصل إلينا من نسخ حديث بهذا المعنىٰ عن عبادة بن الصامت؛ وإنما الذي فيه هو ما ذكر في الهامش السابق، وأحدهما (٤/ ٢٣٧) عن رجل مبهم من أصحاب النبي ﷺ، والثاني (٥/ ٣٤٢) عن أبي مالك الأشعري.

(٣) رواه ابن ماجة في (الأشربة)، (ح٣٣٨٤).

(٤) لم أجده.

وأما استحلال السحت باسم الهدية -وهو أظهر من أن يذكر- كرشوة الحاكم والوالي وغيرهما؛ فإن المرتشي ملعون هو والراشي؛ لما في ذلك من المفسدة، ومعلوم قطعًا أنهما لا يخرجان عن الحقيقة وحقيقة الرشوة بمجرد اسم الهدية، وقد علمنا وعلم الله وملائكته ومن له اطلاع إلىٰ الحيل أنها رشوة. وأما استحلال القتل باسم الإرهاب الذي تسميه ولاة الجور سياسة وهيبة وناموسًا وحرمة للملك فهو أظهر من أن يذكر...

ولو أَوْجَبَ تبديل الأسماء والصور تبدل الأحكام والحقائق لفسدت الديانات، وبدلت الشرائع، واضمحلَّ الإسلام.

وأي شيء نفعَ المشركين تسميتهم أصنامهم آلهة، وليس فيها شيء من صفات الإلهية وحقيقتها؟ وأي شيء نَفَعهم تسمية الإشراك بالله تقربًا إلىٰ الله؟

وأي شيء نَفَع المعطِّلين لحقائق أسماء الله وصفاته تسمية ذلك تنزيهًا؟

وأي شيء نفع الغلاة من البشر واتخاذهم طواغيت يعبدونها من دون الله تسمية ذلك تعظيمًا واحترامًا؟

وأي شيء نفع نُفاة القدر المخرجين لأشرف ما في مملكة الرب تعالىٰ من طاعات أنبيائه ورسله وملائكته وعباده عن قدرته تسمية ذلك عدلًا؟

وأي شيء نفعهم نفيهم لصفات كماله تسمية ذلك توحيدًا؟

وأي شيء نفع أعداء الرسل من الفلاسفة القائلين بأن الله لم يخلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولا يحيي الموتىٰ، ولا يبعث من في القبور،



ولا يعلم شيئًا من الموجودات، ولا أرسل إلىٰ الناس رسلًا يأمرونهم بطاعته تسمية ذلك حكمة؟

وأي شيء نفع أهل النفاق تسمية نفاقهم عقلًا معيشيًّا، وقدحهم في عقل من لم ينافق نفاقهم ويداهن في دين الله؟

وأي شيء نفع المكَسَة تسمية ما يأخذونه ظلمًا وعدوانًا حقوقًا سلطانية، وتسمية أوضاعهم الجائرة الظالمة المناقضة لشرع الله ودينه شرع الديوان؟

وأي شيء نفع أهل البدع والضلال تسمية شبههم الداحضة عند ربهم، وعند أهل العلم والدين والإيمان عقليات وبراهين، وتسمية كثير من المتصوفة الخيالات الفاسدة والشطحات حقائق؟

فهؤلاء كلهم حقيق أن يتلىٰ عليهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]. اهـ[١].

[طلاقة الوجه وعبوسه]

ومن أنواع مكايده إبليس ومكره: أنه يدعو العبد -بحسن خلقه وطلاقته وبشره- إلىٰ أنواع من الآثام والفجور، فيلقاه من لا يخلصه من شره إلا تجهمه والتعبيس في وجهه والإعراض عنه، فيُحَسِّن له العدو أن يلقاه ببشره، وطلاقة وجهه، وحسن كلامه، فيتعلق به، فيروم التخلص منه فيعجز، فلا يزال العدو يسعىٰ بينهما حتىٰ يصيب حاجته، فيدخل علىٰ العبد بكيده من باب حسن الخلق وطلاقة الوجه.

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٠- ١٥٤).

ومن هاهنا وصىٰ أطباء القلوب بالإعراض عن أهل البدع، وألا يسلم عليهم، ولا يريهم طلاقة وجهه، ولا يلقاهم إلا بالعبوس والإعراض.

وكذلك أوصوا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان، وقالوا: متىٰ كشفت للمرأة أو الصبي بياض أسنانك كشفا لك عما هنالك، ومتىٰ لقيتهما بوجهٍ عابس وقيت شرهما.

ومن مكايده: أنه يأمرك أن تلقىٰ المساكين وذوي الحاجات بوجهٍ عبوس، ولا تريهم بشرًا ولا طلاقة، فيطمعوا فيك، ويتجرءوا عليك، وتسقط هيبتك من قلوبهم، فيحرمك صالح أدعيتهم، وميل قلوبهم إليك، ومحبتهم لك؛ فيأمرك بسوء الخلق، ومنع البشر والطلاقة مع هؤلاء، وبحسن الخلق والبشر مع أولئك، ليفتح لك باب الشر، ويغلق عنك باب الخير. اهـ[1].

[إعزاز النفس وإذلالها]

من مكايد إبليس: أنه يأمرك بإعزاز نفسك وصونها حيث يكون رضا الرب تعالىٰ في إذلالها وابتذالها؛ كجهاد الكفار والمنافقين، وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ فيخيل إليك أن ذلك تعريض لنفسك إلىٰ مواطن الذل، وتسليط الأعداء، وطعنهم فيك، فيزول جاهك؛ فلا يقبل منك بعد ذلك ولا يسمع منك.

ويأمرك بإذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها في إعزازها وصيانتها؛ كما يأمرك بالتبذل لذوي الرياسات، وإهانة نفسك لهم، ويخيل إليك أنك تعزها

(١) «إغاثة اللهفان» (١٢٩).



بهم، وترفع قدرها بالذل لهم، ويذكرك قول الشاعر:

أهـــين لهـــم نفســـي لأرفعهـــا بهـــم ولـــن تكـــرم الـــنفس التـــي لا تهينهـــا

وغلط هذا القائل؛ فإن ذلك لا يصلح إلا لله وحده؛ فإنه كلما أهان العبد نفسه له أكرمه وأعزه، بخلاف المخلوق، فإنك كلما أهنت نفسك له ذللت عند الله وعند أوليائه، وهنت عليه. اهـ(١).

[احتقار الناس]

من كيد إبليس وخداعه: أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد، أو رباط، أو زاوية، أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج، ويقول له: متىٰ خرجت تبذلت للناس، وسقطت من أعينهم، وذهبت هيبتك من قلوبهم، وربما ترىٰ في طريقك منكرًا. وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه، منها: الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياسة، ومخالطة الناس تذهب ذلك، وهو يريد أن يزار ولا يزور، ويقصده الناس ولا يقصدهم، ويفرح بمجيء الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلىٰ الله، ويتعوض عنه بما يقرب الناس إليه.

وقد كان رسول الله ﷺ يخرج إلىٰ السوق؛ قال بعض الحفاظ: «وكان يشتري حاجته ويحملها بنفسه»، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١٢٩).

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلىٰ السوق يحمل الثياب، فيبيع ويشتري.

ومر عبد الله بن سلام رضي الله عنه وعلىٰ رأسه حزمة حطب، فقيل له: ما يحملك علىٰ هذا وقد أغناك الله عز وجل؟ فقال: أردت أن أدفع به الكبر؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(١).

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يحمل الحطب وغيره من حوائجه بنفسه وهو أمير علىٰ المدينة، ويقول: «افسحوا لأميركم، افسحوا لأميركم».

وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وهو خليفة في حاجة له ماشيًا، فأعيي، فرأىٰ غلامًا علىٰ حمار له، فقال: يا غلام! احملني فقد أعييت، فنزل الغلام عن الدابة، وقال: اركب يا أمير المؤمنين! فقال: لا، اركب أنت وأنا خلفك، فركب خلف الغلام حتىٰ دخل المدينة والناس يرونه. اهـ(٢).

[قُبح تبغيض الله إلى خلقه]

الجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يُبَغِّضون الله إلىٰ خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون. ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذىٰ عليها:

فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن

---

(١) لم أجد الحديث بهذه الرواية عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولكن أصل الحديث في «صحيح مسلم»، كتاب (الإيمان)، باب (تحريم الكبر)، (ح٩١).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١٣٠).



طال زمانها وبالغ العبدُ وأتىٰ بها بظاهره وباطنه، وأن العبد ليس علىٰ ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلىٰ الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلىٰ الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلىٰ الكفر.

ويَرَوْون في ذلك آثارًا صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ويقيمون إبليس حجة لهم علىٰ هذه المعرفة، وأنه كان طاووس الملائكة، وأنه لم يترك في السماء رقعة ولا في الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة، ولكن جنىٰ عليه جاني القدر، وسطا عليه الحكم فقلَبَ عينه الطيبة، وجعلها أخبث شيء، حتىٰ قال بعض عارفيهم: إنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جُرْم منك ولا ذنب أتيته إليه.

ويحتجون بقول النبي ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»(١).

ويروون عن بعض السلف: أكبرُ الكبائر الأمنُ من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب (القدر)، (ح٦٥٩٤)، ومسلم في (القدر)، (ح٢٦٤٣).



وذكر الإمام أحمد بن حنبل، عن عون بن عبد الله -أو غيره- أنه سمع رجلًا يدعو: اللهم لا تؤمني مكرك، فأنكر ذلك وقال: قل اللهم لا تجعلني ممن يأمن مكرك.

وبَنَوا ذلك علىٰ أصلهم الباطل؛ وهو إنكار الحكمة والتعليل والأسباب، وأن الله لا يفعل لحكمة ولا بسبب، وإنما يفعل بمشيئة مجرَّدة من الحكمة والتعليل والسبب؛ فلا يفعل لشيء ولا بشيء، وأنه يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته أشد العذاب وينعم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب، وأن الأمرين بالنسبة إليه سواء، ولا يُعلم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لا يفعله، فحينئذٍ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون، لا لأنه في نفسه باطل وظلم؛ فإن الظلم في نفسه مستحيل؛ فإنه غير ممكن، بل هو بمنزلة جعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، والجمع بين الليل والنهار في ساعة واحدة، وجعل الشيء موجودًا ومعدومًا معًا في آن واحد؛ فهذا حقيقة الظلم عندهم.

فإذا رجع العامل إلىٰ نفسه قال: من لا يستقر له أمر، ولا يؤمن له مكر، كيف يوثق بالتقرب إليه؟ وكيف يعول علىٰ طاعته واتباع أوامره وليس لنا سوىٰ هذه المدة اليسيرة؟ فإذا هجرنا فيها اللذات وتركنا الشهوات، وتكلفَّنا أثقال العبادات، وكنا مع ذلك علىٰ غير ثقة منه أن يقلب علينا الإيمان كفرًا والتوحيد شركًا، والطاعة معصية، والبرَّ فجورًا ويديم علينا العقوبات، كنا خاسرين في الدنيا والآخرة.

فإذا استحكم هذا الاعتقاد في قلوبهم، وتخمر في نفوسهم، صاروا إذا أُمروا بالطاعات وهجر اللذات بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: معلمك إن

كتبت وأحسنت وتأدبت ولم تعصه ربما أقام لك حجة وعاقبك، وإن كسِلْتَ وبَطْلت وتعطلت وتركت ما أمرك به، ربما قربك وأكرمك، فيُودِعُ بهذا القول قلب الصبي ما لا يثق بعده إلىٰ وعيد المعلم علىٰ الإساءة ولا وعده علىٰ الإحسان. وإن كبر الصبي وصلح للمعاملات والمناصب قال له: هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيرًا أميرًا، ويأخذ الكيِّس المحسن لشُغْله فيخلده الحبس ويقتله ويصلبه. فإذا قال له ذلك أوحشه سلطانه، وجعله علىٰ غير ثقة من وعده ووعيده، وأزال محبته من قلبه، وجعله يخافه مخافة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبةوالبريء بالعذاب. فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة؛ فلا بفعل الخير يستأنس، ولا بفعل الشر يستوحش، وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلىٰ عباده أكثر من هذا؟ ولو اجتهد الملاحدة علىٰ تبغيض الدين والتنفير عن الله، لما أتوا بأكثر من هذا.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد علىٰ أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررًا من الصديق الجاهل. وكُتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شهادة بضد ذلك، ولا سيما القرآن، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس إليه، لصلُح العالم صلاحًا لا فساد معه.

فالله سبحانه أخبر -وهو الصادق الوفي- أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسن لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يضيع علىٰ العبد مثقال ذرة ولا يُظْلَمُها: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠]، وإن كان

مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه. وأنه يجزي بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، وأنه يجزي بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة. وهو الذي أصلح الفاسدين، وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب علىٰ المذنبين، وهدىٰ الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلَّم الجاهلين، وبصر المتحيزين، وذكَّر الغافلين، وآوىٰ الشاردين، وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه، ودعوة العبد إلىٰ الرجوع إليه والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتىٰ إذا يأس من استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده، بحيث يعذر العبد من نفسه، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه؛ كما قال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١].

وقال عمن أهلكهم في الدنيا أنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥].

وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ٢٩].

قال الحسن: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم؛ ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلًا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥]. فهذه الجملة في موضع الحال؛ أي: قطع دابرهم حال كونه سبحانه محمودًا علىٰ ذلك، فقطع دابرهم قطعًا مصاحبًا لحمده؛ فهو قطع

وإهلاك يحمد عليه الرب تعالىٰ؛ لكمال حكمته وعدله، ووضعه العقوبة في موضعها الذي لا يليق به غيرها.

فوضعها في الموضع الذي يقول مَن عَلِمَ الحال: لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولا يليق به إلا العقوبة، ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة إلىٰ الجنة وأهل الشقاء إلىٰ النار: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر: ٧٥] فحذف فاعل القول إشعارًا بالعموم، وأن الكون كله قال: «الحمد لله رب العالمين» لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله.

ولهذا قال في حق أهل النار: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢] كأن الكون كله يقول ذلك حتىٰ تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم.

وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه أنجىٰ أولياءه ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل: إني أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب.

وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله، ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره علىٰ الهدىٰ، فيطبع حينئذ علىٰ سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض

بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به ودفعه وردَّه؛ فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له علىٰ رده ودفعه لما تحققه وعرفه، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرًا لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته.

وقد أزاح سبحانه العلل، وأقام الحجج، ومكَّن من أسباب الهداية، وأنه لا يضل إلا الفاسقين والظالمين، ولا يطبع إلا علىٰ قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطىٰ به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم؛ كما قال: ﴿كَلَّاۖ بَلۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ١٤].

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتىٰ يبين له ما يتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال علىٰ الهدىٰ والغي علىٰ الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه.

وأما المكر الذي وصف به نفسه؛ فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن؛ فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء؛ لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء علىٰ مخادعة رسله وأوليائه؛ فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب؛ فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملًا صالحًا مقبولًا للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه. وقوله: «**لم يبق بينه وبينها إلا ذراع**» يشكل علىٰ هذا التأويل؛ فيقال: لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل علىٰ عمله حتىٰ يتم له، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خُذل بها



في آخر عمره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرجع إلىٰ موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه، ....، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس: فإن الله سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فالرب تعالىٰ كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أُمِروا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا إلىٰ الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد، فأبىٰ واستكبر وكان من الكافرين.

وأمَّا خوف أوليائه من مكره فحق؛ فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلىٰ الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته. وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنما هو في حق الفجار والكفار؛ ومعنىٰ الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله له علىٰ مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون. والذي يخافه العارفون بالله من مكره: أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار، فيأنسوا بالذنوب، فيجيئهم العذاب علىٰ غرة وفترة.

وأمر آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره، فيتخلىٰ عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم

المكر من حيث لا يشعرون.

وأمر آخر: أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه؛ فيفتنون به، وذلك مكر. اهـ[١].

[أوجه الشبه بين المؤمن والنخلة]

تأمل هذه النخلة التي هي احدىٰ آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك؛ فإنه لما قدَّر أن يكون فيه إناث تحتاج الىٰ اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة ذكور الحيوان وإناثه، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان؛ خصوصًا بالمؤمن -كما مثَّله النبي ﷺ- وذلك من وجوه كثيرة:

أحدها: ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها، وليست بمنزلة الشجرة التي ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦﴾ [إبراهيم: ٢٦].

الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها؛ كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل، فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

الثالث: دوام لباسها وزينتها؛ فلا يسقط عنها صيفًا ولا شتاء؛ كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوىٰ وزينتها حتىٰ يوافي ربه تعالىٰ.

الرابع: سهولة تناول ثمرتها وتيسره؛ أما قصيرها فلا يحتاج المتناول أن يرقاها، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة الىٰ صعود الشجر الطوال وغيرها؛

---

(١) «الفوائد» (٢٣٠- ٢٣٧).



فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلىٰ أعلاها، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله، لا بالغر ولا باللئيم.

الخامس: أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم؛ فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة، ويابسه يكون قوتًا وأدمًا وفاكهة، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوىٰ، ويدخل في الأدوية والأشربة، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار...

الوجه السادس من وجوه التشبيه: أن النخلة أصبر الشجر علىٰ الرياح والجهد، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها، ولا صبر لكثيرٍ منها علىٰ العطش كصبر النخلة؛ فكذلك المؤمن صبور علىٰ البلاء لا تزعزعه الرياح.

السابع: أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة؛ فثمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب، ويستر به الفرج والخلل، وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحُصر وغيرها، وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس.

وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم، وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها، فلما جاء إلىٰ الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة علىٰ أعداء الله وأهل الفجور، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينًا:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

الثامن: أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها؛ وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله.

التاسع: أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه، وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر؛ وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

العاشر: أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبدًا، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر، حتىٰ لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وآراب، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط، بل إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب، فلا يزال خيره مأمولًا وشره مأمونًا.

في «الترمذي» مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «خيركم من يرجىٰ خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجىٰ خيره ولا يؤمن شره». اهـ(١)(٢).

[المسلم وشجرة العنب]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقولن أحدكم: الكرم؛ فإن الكرم: الرجل المسلم، ولكن قولوا: حدائق الأعناب**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي في (الفتن)، باب (النهي عن سب الريح)، (ح٢٢٦٣)، وأحمد (٢/ ٣٦٨، ٣٧٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١١٦ - ١٢٠).

(٣) أخرجه بلفظ أبو داود في (الأدب)، (ح٤٩٧٤)، وأصله في «الصحيحين»: البخاري، كتاب (الأدب، (ح٦١٨٣)، ومسلم، كتاب (الألفاظ من الأدب)، (ح٢٢٤٧).

العرب تسمي شجر العنب كرمًا لكرمه، والكرم كثرة الخير والمنافع والفوائد لسهولة تناولها من الكريم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: ١٠]، وفي آية أخرىٰ: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٧]، فهو كريم في مخبره، بهيج في منظره، وشجر العنب قد جمع وجوهًا من ذلك.

منها: تذليل ثمره لقاطفه.

ومنها: أنه ليس دونه شوك يؤذي مجتنيه.

ومنها: أنه ليس بممتنع علىٰ من أراده لعلو ساقه وصعوبته كغيره.

ومنها: أن الشجرة الواحدة منه -مع ضعفها ودقة ساقها- تحمل أضعاف ما تحمله غيرها.

ومنها: أن الشجرة الواحدة منه إذا قطع أعلاها أخلفت من جوانبها وفروعها، والنخلة إذا قطع أعلاها ماتت، ويبست جملة...

ومنها: أن ثمره يؤكل قبل نضجه، وبعد نضجه، وبعد يبسه.

ومنها: أنه يتخذ منه من أنواع الأشربة الحلوة والحامضة -كالدبس والخل- ما لا يتخذ من غيره، ثم يتخذ من شرابه من أنواع الحلاوة والأطعمة والأقوات ما لا يتخذ من غيره، وشرابه الحلال غذاء وقوت ومنفعة وقوة.

ومنها: أنه يدخر يابسه قوتًا وطعامًا وأدمًا.

ومنها: أن ثمره قد جمع نهاية المطلوب من الفاكهة من الاعتدال؛ فلم

يفرط إلىٰ البرودة كالخوخ وغيره، ولا إلىٰ الحرارة كالتمر؛ بل هو في غاية الاعتدال، إلىٰ غير ذلك من فوائده.

فلما كان بهذه المنزلة سموه كرمًا، فأخبرهم النبي ﷺ أن الفوائد والثمرات والمنافع التي أودعها الله قلب عبده المؤمن -من البر وكثرة الخير- أعظم من فوائد كرم العنب؛ فالمؤمن أولىٰ بهذه التسمية منه.

فيكون معنىٰ الحديث علىٰ هذا: النهي عن قصر اسم الكرم علىٰ شجر العنب، بل المسلم أحق بهذا الاسم منه.

وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عن الغضب»[1] أي: مالك نفسه أولىٰ أن يسمىٰ شديدًا من الذي يصرع الرجال.

وكقوله: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان؛ ولكنه الذي لا يسأل الناس، ولا يُفْطن له فيُتصدق عليه»[2] أي: هذا أولىٰ بأن يقال له مسكين من الطوَّاف الذي تسمونه مسكينًا.

ونظيره في المفلس، والرقوب وغيرهما.

ونظيره قوله: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكنه الذي إذا قُطعت رحمه وصلها»[3]، وإن كان هذا ألطف من الذي قبله.

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (الأدب)، (ح٦١١٤)، ومسلم في (البر والصلة)، (ح٢٦٠٩).

(٢) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (الزكاة)، (ح١٤٧٩)، ومسلم في (الزكاة)، (ح١٠٣٩).

(٣) رواه البخاري في (الأدب)، (ح٥٩٩١).

وقيل: في معنىٰ النهي وجه آخر؛ وهو: قصد النبي ﷺ سلب هذا الاسم المحبوب للنفوس التي يلذ لها سماعه عن هذه الشجرة التي تتخذ منها أم الخبائث؛ فيسلبها الاسم الذي يدعو النفوس إليها، ولا سيما فإن العرب قد تكون سمتها كرمًا؛ لأن الخمر المتخذة منها تحث علىٰ الكرم وبذل المال، فلما حرَّمها الشارع نفىٰ اسم المدح عن أصلها، وهو «الكرم» كما نفىٰ اسم المدح عنها، وهو الدواء، فقال: «**إنها داء، وليست بدواء**»(١)، ومن عرف سر تأثير الأسماء في مسمياتها نفرة وميلًا عرف هذا؛ فسلبها النبي ﷺ هذا الاسم الحسن، وأعطاه ما هو أحق به منها؛ وهو «**قلب المؤمن**». اهـ(٢).

[الخطب النبوية]

كانت خطبته ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته؛ فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا، ومعرفة بالله وأيامه؛ لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمورًا مشتركة بين الخلائق؛ وهي النوح علىٰ الحياة، والتخويف بالموت؛ فإن هذا أمر لا يُحصل في القلب إيمانًا بالله، ولا توحيدًا له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيرًا بأيامه، ولا بعثًا للنفوس علىٰ محبته والشوق إلىٰ لقائه؛ فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة، غير أنهم يموتون، وتُقسم أموالهم، ويبلي التراب أجسامهم، فيا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا؟! وأي توحيد ومعرفة وعلم

(١) رواه أحمد (٤/ ٣١٧)، ولمسلم نحوه في (الأشربة)، (ح١٩٨٤).
(٢) «مختصر سنن أبي داود» (٧/ ٢٦٨- ٢٧١).

نافع حصل به؟!

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخُطب أصحابه رضي الله عنهم، وجدها كفيلة ببيان الهدىٰ والتوحيد، وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلىٰ الله، وذكر آلائه تعالىٰ التي تحببه إلىٰ خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه؛ فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلىٰ خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم. ثم طال العهد وخفي نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسومًا تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها، وزينوها بما زينوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سننًا لا ينبغي الإخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصَّعوا الخطب بالتسجيع والفقر، وعلم البديع، فنقص بل عدم حظ القلوب منها، وفات المقصود بها. اهـ[1].

[العلاج بتطييب قلب المريض]

روىٰ ابن ماجة في «سننه» من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دخلتم علىٰ المريض فنفسوا له في الأجل؛ فإن ذلك لا يرد شيئًا، وهو يطيب نفس المريض»**[2].

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٤٢٣، ٤٢٤).

(٢) رواه بنحوه ابن ماجة في (الجنائز)، باب (عيادة المريض)، (ح١٤٣٨)، والترمذي في (الطب)، باب (التداوي بالرماد)، (ح٢٠٨٧)، وقال: حديث غريب.



وفي هذا الحديث نوع شريف جدًّا من أشرف أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلىٰ ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوىٰ به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحار الغريزي، فيتساعد علىٰ دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب.

وتفريح نفس المريض، وتطييب قلبه، وإدخال ما يسره عليه له تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها؛ فإن الأرواح والقوىٰ تقوىٰ بذلك، فتساعد الطبيعة علىٰ دفع المؤذي، وقد شاهد الناس كثيرًا من المرضىٰ تنتعش قواه بعيادة من يحبونه، ويعظمونه، ورؤيتهم لهم، ولطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم، وهذا أحد فوائد عيادة المرضىٰ التي تتعلق بهم، فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد: نوع يرجع إلىٰ المريض، ونوع يعود علىٰ العائد، ونوع يعود علىٰ أهل المريض، ونوع يعود علىٰ العامة.

وقد تقدم في هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجده ويسأله عما يشتهيه، ويضع يده علىٰ جبهته، وربما وضعها بين ثدييه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضأ وصبَّ علىٰ المريض من وضوئه، وربما كان يقول للمريض: «**لا بأس طهور إن شاء الله**»[(١)]، وهذا من كمال اللطف، وحسن العلاج والتدبير. اهـ[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها كتاب (المرضىٰ)، (ح٥٦٥٦).
(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١١٦، ١١٧).

[الراحمون]

إذا أشرق في القلب نور الإيمان، واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة؛ فتراه رحيمًا رفيق القلب بكل ذي قربىٰ، ومسلم يرحم النملة في حجرها والطير في وكره، فضلًا عن بني جنسه؛ فهذا أقرب القلوب من الله؛ قال أنس: «**كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال**».

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة، وأبدله بهما الغلظة والقسوة. وفي الحديث الثابت: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»(١)، وفيه: «**من لا يَرْحَم لا يُرحم**»(٢)، وفيه: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٣)، رواه أحمد والحاكم، وفيه: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربىٰ ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال**»(٤)، رواه أحمد.

والصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما فَضَلَ الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة علىٰ

---

(١) رواه الترمذي في (البر والصلة)، باب (رحمة الناس)، (ح١٩٢٣)، وقال: حسن. وأبو داود في (الأدب)، باب (الرحمة)، (ح٤٩٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٠١، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري في (الأدب)، (ح٥٩٩٧)، ومسلم في (الفضائل)، (ح٢٣١٨).

(٣) رواه الترمذي في (البر والصلة)، باب (رحمة الناس)، (ح١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح.

(٤) جزء من حديث طويل رواه مسلم في (الجنة وصفة نعيمها)، (ح٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢).



الصديقية؛ ولهذا أظهر أثرها في جميع مقدماته حتىٰ في الأسارىٰ يوم بدر، واستقر الأمر علىٰ ما أشار به، وضرب له صلىٰ الله عليه وآله وسلم مثلًا بعيسىٰ وإبراهيم. والرب ﷻ هو الرءوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه وأعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته، وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم. اهـ[1].

[الاستهانة بأهل الغفلة]

من علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك؛ فترجو لنفسك الرحمة، وتخشىٰ علىٰ أهل الغفلة النقمة؛ ولكن ارجُ لهم الرحمة، واخشَ علىٰ نفسك النقمة، فإن كنت لا بد مستهينًا بهم ماقتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكنْ لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكنْ أرجىٰ لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون لها أشد مقتًا.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله؛ فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم -بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم علىٰ غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني- لم يجد بدًّا من مقتهم، ولا يمكنه غير ذلك ألبتة؛ ولكن إذا رجع إلىٰ نفسه وحاله وتقصيره، وكان علىٰ بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة، فهذا هو الفقيه.

---

(١) «الروح» (٣٠٠).

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس، ولعل أكثرها -أو كلها- أن تكون حظًّا لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقًا، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلىٰ القلب؛ فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلىٰ قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلىٰ قلبه لاستنار وأشرق، ورأىٰ الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه؛ من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصىٰ في طلبها لرأىٰ العجب، ومن رحمة الله تعالىٰ سترها علىٰ أكثر العمال؛ إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة، ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، واشتغل بها العباد عُطِّلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب



الحاذق يعلم كيف يطبب النفوس؛ فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا. اهـ[(١)].

[رحمة العصاة]

إنَّ العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتىٰ لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه؛ غضبًا منه لله، وحرصًا علىٰ ألا يعصي؛ فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم، فإذا جرت عليه المقادير وخُلِّي ونفسه استغاث بالله والتجأ إليه، وتململ بين يديه تململ السليم، ودعاه دعاء المضطر، فتبدلت تلك الغلظة علىٰ المذنبين رقة، وتلك القساوة علىٰ الخاطئين رحمة ولينًا، مع قيامه بحدود الله، وتَبَدَّل دعاؤه عليهم دعاءً لهم، وجعل لهم وظيفة من عمره، يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه، والله أعلم. اهـ[(٢)].

[التعيير]

وقوله -أي: الهروي رَحِمَهُ اللهُ-: «وكل معصية عَيَّرت بها أخاك فهي إليك». يحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك ولا بد أن تعملها، وهذا مأخوذ من الحديث

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٧).

الذي رواه الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ: «**مَن عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتىٰ يعمله**»[١]. قال الإمام أحمد في تفسير هذا الحديث: من ذنب قد تاب منه.

وأيضًا: ففي التعيير ضرب خفي من الشماتة بالمعيَّر، وفي الترمذي أيضا مرفوعًا: «**لا تُظهِر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك**»[٢].

ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه وأشد من معصيته؛ لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كَسْرَته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء علىٰ نفسه، والتخلص من مرض الدعوىٰ، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكسَ الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتَكَثُّركَ بها والاعتداد بها، والمنة علىٰ الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المُدِل من مَقْت الله؛ فذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تُدِل بها عليه، وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا؛ فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مُدل، وأنين المذنبين أحب إلىٰ الله من زَجَل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر.

---

(١) رواه الترمذي في (القيامة)، (ح٢٥٠٥)، وحكم عليه بالانقطاع، وكذا ضعفه الألباني «ضعيف الترمذي» رقم (٤٤٩)، و«ضعيف الجامع» رقم (٥٧١٠).

(٢) رواه الترمذي في (القيامة)، (ح٢٥٠٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» رقم (٤٥٠).

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر؛ فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون، وقد قال النبي ﷺ: «**إذا زنت أمة أحدكم، فَلْيُقِم عليها الحدَّ ولا يُثَرِّب**»(١) أي: لا يُعيِّر؛ من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]؛ فإن الميزان بيد الله، والحكم لله، فالسوط الذي ضُرب به هذا العاصي بيد مُقَلِّب القلوب، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب، ولا يأمن كَرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال الله تعالىٰ لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣] وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ: «**لا، ومُقلِّب القلوب**»(٢)، وقال: «**ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ؛ إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاغه**»، ثم قال: «**اللهم مقلب القلوب ثبتْ قلوبنا علىٰ دينك**»(٣)، «**اللهم مُصرِّف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك**»(٤)(٥).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (البيوع)، باب (بيع العبد الزاني) (٢١٥٢)، ومسلم في (الحدود)، باب (رجم اليهود أهل الذمة في الزنىٰ) (١٧٠٣).

(٢) البخاري في (الإيمان)، باب (كيف كانت يمين رسول الله ﷺ؟) (٦٦١٧) (٦٦٢٨).

(٣) ابن ماجة في (المقدمة)، (ح١٩٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» برقم (١٦٥).

(٤) مسلم في القدر، باب (تصريف الله تعالىٰ القلوب كيف شاء)، (ح٢٦٥٤).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٢- ١٨٤).

[إقالة العثرات]

قوله ﷺ: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود**»[(١)]، قال ابن عقيل: «المراد بهم: الذين دامت طاعاتهم وعدالتهم، فزَلَّت في بعض الأحايين أقدامهم بورطة».

قلت: ليس ما ذكره بالبين؛ فإن النبي ﷺ لا يعبر عن أهل التقوىٰ والطاعة والعبادة بأنهم ذوو الهيئات، ولا عهد بهذه العبارة في كلام الله ورسوله للمطيعين المتقين، والظاهر أنهم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد؛ فإن الله تعالىٰ خصَّهم بنوع تكريم وتفضيل علىٰ بني جنسهم، فمن كان منهم مستورًا مشهورًا بالخير حتىٰ كبا به جواده، ونبا عضب صبره، وأديل عليه شيطانه، فلا تسارع إلىٰ تأنيبه وعقوبته، بل تقال عثرته ما لم يكن حدًّا من حدود الله؛ فإنه يتعين استيفاؤه من الشريف كما يتعين أخذه من الوضيع؛ فإن النبي ﷺ قال: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[(٢)]، وقال: «**إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**»[(٣)]. وهذا باب عظيم من أبواب محاسن هذه الشريعة الكاملة، وسياستها للعالم، وانتظامها لمصالح العباد في المعاش والمعاد. اهـ[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود في (الحدود)، باب (في الحد يشفع فيه)، (ح٤٣٧٥)، وأحمد (٦/ ١٨١).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري في مواضع منها كتاب (المغازي)، (ح٤٣٠٤)، ومسلم في (الحدود)، (ح١٦٨٨).

(٣) هو الحديث السابق نفسه، وفيه: «**أهلك الذين من قبلكم**» بدلًا من: «**بنو إسرائيل**».

(٤) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٢).

[السكينة وحقيقتها وأقسامها]

لشدة الحاجة إلىٰ السكينة وحقيقتها وتفاصيلها وأقسامها، نشير إلىٰ ذلك بحسب علومنا القاصرة، وأذهاننا الجامدة، وعباراتنا الناقصة، ولكن نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولكل زمان دولة ورجال.

فالسكينة فعيلة من السكون؛ وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها علىٰ الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- أخص مراتبها وأعلىٰ أقسامها؛ كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد ألقي في المنجنيق مسافرًا إلىٰ ما أضرم له أعداء الله من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

وكذلك السكينة التي حصلت لموسىٰ، وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسىٰ إلىٰ أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا، وهذا فرعون خلفنا، وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء وإيحاء كلامًا حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له، وقد رأىٰ العصا ثعبانًا مبينًا، وكذلك السكينة التي نزلت عليه، وقد رأىٰ حبال القوم وعصيهم كأنها تسعىٰ فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ، وقد أشرف عليه وعلىٰ صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلىٰ تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة وأعداء الله قد أحاطوا به؛ كيوم بدر

ويوم حنين ويوم الخندق وغيره، فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر؛ فإن الكذاب -ولا سيما علىٰ الله- أقلق ما يكون، وأخوف ما يكون، وأشده اضطرابًا في مثل هذه المواطن؛ فلو لم يكن للرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأمَّا الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان؛ وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك؛ ولهذا أنزلها الله علىٰ المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤] فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وذلك يوم الحديبية، قال الله تعالىٰ يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨] لما علم الله تعالىٰ ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت، ولم تطق الصبر، فعلم تعالىٰ ما فيها فثبَّتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير، وتحتمل الآية وجهًا آخر؛ وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها، والظاهر أن الآية تعم الأمرين؛ وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلىٰ إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها، ثم بعد ذلك: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ



حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ [الفتح: ٢٦]، لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوىٰ مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور؛ فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوىٰ علىٰ ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان علىٰ ألسنتهم؛ فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندًا من جند الله؛ أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم. وثمرة هذه السكينة: الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهة تعارض الخبر، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يُبتلىٰ بها العبد ليقوىٰ إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله. ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية؛ وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغض الطرف وجمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ، بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب، وقد رأىٰ النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»[1].

---

(١) رواه البيهقي في «سننه» موقوفًا علىٰ سعيد بن المسيب (٢/ ٢٨٥)، (ح٣٣٦٥)، وكذا رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٨٦)، (ح٦٧٨٧)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢/ ٢٦٦)، (ح٣٣٠٨، ٣٣٠٩)؛ كلاهما ذكره موقوفًا علىٰ ابن المسيب.

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه ﷻ حتىٰ كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**».

فتأمل كلَّ مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟ اهـ(١).

[متى تحتاج السكينة؟]

العبد محتاج إلىٰ السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان لئلا تقوىٰ وتصير هموما وغموما وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف علىٰ اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه، فيجاوز الحد الذي لا يعبر فينقلب تَرَحًا وحزنًا، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح، وتجاوز الحد، فانقلب ترحًا عاجلًا، ولو أُعين بسكينة تعدل فرحه لأريد به الخير، وبالله التوفيق، وعند هجوم الأسباب المؤلمة علىٰ اختلافها الظاهرة والباطنة،

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٥٦- ٢٦٠).

فما أحوجه إلىٰ السكينة حينئذ، وما أنفعها له، وأجداها عليه، وأحسن عاقبتها!

والسكينة في هذه المواطن علامة علىٰ الظفر، وحصول المحبوب، واندفاع المكروه، وفقدها علامة علىٰ ضد ذلك، لا يخطئ هذا، ولا هذا، والله المستعان. اهـ(١).

[فضل الغربة وأهلها]

قال النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء**»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يَصْلُحون إذا فسد الناس**»(٢). وفي حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء**»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**النُّزَّاع من القبائل**»(٣). وفي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ ذات يوم ونحن عنده: «**طوبىٰ للغرباء**»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس كثير، مَن يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»(٤).

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٦٠).

(٢) رواه مسلم في (الإيمان)، باب (بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا)، (ح١٤٥، ١٤٦).

(٣) رواه ابن ماجة في (الفتن)، باب (بدأ الإسلام غريبًا)، (ح٣٩٨٨)، ورواه أحمد في «المسند» (١/ ٣٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» برقم (٣٢٢٣).

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٧٧).

عثمان ابن عبد الله، عن سليمان بن هرمز، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: قال: «**إن أحب شيء إلىٰ الله الغرباء**»، قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرارون بدينهم؛ يجتمعون إلىٰ عيسىٰ ابن مريم عليه السلام يوم القيامة**»[(١)].

وفي حديث آخر: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء**»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يحيون سُنتي ويعلمونها الناس**»[(٢)].

وقال نافع، عن مالك: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد، فوجد معاذ بن جبل رضي الله عنه جالسًا إلىٰ بيت النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكن حديثًا حدثنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد، فقال: ما هو؟ قال: «**إن الله يحب الأخفياء الأحفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا؛ قلوبهم مصابيح الهدىٰ، يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة**»[(٣)].

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلتهم في الناس جدًّا سموا «غرباء»؛ فإن أكثر الناس علىٰ غير هذه الصفات؛ فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء. وأهل السُّنة -الذين

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» ص١٢٤، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥)، وفي إسناده سفيان بن وكيع، وهو ضعيف.

(٢) رواه البيهقي في «الزهد»، (ح٢٠٧)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٣)، وفي «مسند الشهاب» (٢/ ١٣٨)، (ح١٠٥٢، ١٠٥٣).

(٣) رواه ابن ماجة في (الفتن)، باب (من ترجىٰ له السلامة من الفتن)، (ح٣٩٨٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجة» برقم (٨٦٣).



يميزونها من الأهواء والبدع- فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون علىٰ أذىٰ المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم؛ كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت دياره ... ولكنَّ من تَنأينَ عنه غريب

ولما خرج موسىٰ عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهىٰ إلىٰ مدين علىٰ الحال التي ذكر الله، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «يا رب، وحيد مريض غريب! فقيل له: يا موسىٰ، الوحيد من ليس له مثلي أنيس، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة». اهـ[١].

[أنواع الغربة]

الغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق؛ وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه «**بدأ غريبًا**»، وأنه «**سيعود غريبًا كما بدأ**»، وأن «**أهله يصيرون غرباء**».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا؛ فإنهم لم يأووا إلىٰ غير الله، ولم ينتسبوا إلىٰ غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلىٰ غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٩- ١٥١).

أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم، فيقال لهم: «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده». فهذه «الغربة» لا وحشة علىٰ صاحبها، بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال عن الله تعالىٰ: «**إن أغبط أوليائي عندي: لمؤمن خفيف الحاذِّ، ذو حظ من صلاته، أحسنَ عبادة ربه، وكان رزقه كَفافًا، وكان مع ذلك غامضًا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وصبر علىٰ ذلك حتىٰ لقي الله، ثم حَلَّت منيته، وقلَّ تُراثه، وقلَّتْ بواكيه**»[١].

ومن هؤلاء الغرباء من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر، ذي طِمْرين لا يُؤْبَه له، لو أقسم علىٰ الله لأبَرَّه»[٢].

وفي حديث أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟**»، قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**كل ضعيف أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم علىٰ الله لأبره**»[٣]، وقال الحسن: المؤمن

---

(١) رواه الترمذي بنحوه في (الزهد)، باب (ما جاء في الكفاف والصبر عليه)، (ح٢٣٤٧)، ورواه ابن ماجة في «الزهد»، باب (من لا يؤبه له)، (ح٤١١٧)، ورواه أحمد (٥/ ٢٥٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجة» (٨٩٧).

(٢) رواه الترمذي في (المناقب)، باب (مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه من حديث أنس) -كما ذكر ابن القيم- (ح٣٨٥٤). ونحوه في مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب (البر والصلة)، (ح٢٦٢٢).

(٣) رواه ابن ماجة بنحوه في (الزهد)، باب (من لا يؤبه له)، (ح٤١١٥)، وضعفه الألباني في =

في الدنيا كالغريب؛ لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء -الذين غبطهم النبي ﷺ- التمسك بالسنة، إذارغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلىٰ أحد غير الله ورسوله؛ لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة؛ بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلىٰ الله بالعبودية له وحده، وإلىٰ رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون علىٰ الجمر حقًّا، وأكثر الناس -بل كلهم- لائِمٌ لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهلَ شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنىٰ **قول النبي ﷺ: «هم النزاع من القبائل»** أن الله سبحانه بعث رسوله وأهلُ الأرض علىٰ أديان مختلفة؛ فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا، وكان من أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريبًا في حَيِّه وقبيلته وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعًا من القبائل؛ بل آحادًا منهم، تغرَّبوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقًّا، حتىٰ ظهر الإسلام وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتىٰ عاد غريبًا كما بدأ، بل الإسلام الحق -الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه- هو اليوم أشد غربة

= «ضعيف سنن ابن ماجة» (٨٩٦).

منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقة واحدة قليلة جدًّا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهىٰ فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلىٰ الله علىٰ طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: «**مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، حتىٰ إذا رأيتم شحًّا مطاعًا وهوىً متبعًا، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرًا لا يَدَ لك به، فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامهم؛ فإن وراءكم أيامًا صبر الصابر فيهنَّ كالقابض علىٰ الجمر**»(١). ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت -إذا تمسك بدينه- أجر خمسين من الصحابة؛ ففي سنن أبي داود والترمذي -من حديث أبي ثعلبة الخُشَني- قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتىٰ إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوىً متبعًا، ودنيا مُؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أيام الصبر؛ الصبر فيهن مثل قبض علىٰ الجمر،**

---

(١) رواه بنحوه أبو داود والترمذي كما في الحديث الذي يليه.



للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله»، قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**»[(١)]. وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسُّنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه علىٰ قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه؛ كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ؛ فأمَّا إن دعاهم إلىٰ ذلك، وقدح فيما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم علىٰ ما لا تهوىٰ أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعدًا ولا معينًا؛ فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلىٰ الله ورسوله بين دعاة إلىٰ الأهواء والبدع، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروفُ

---

(١) رواه أبو داود في (الملاحم)، باب (الأمر والنهي)، (ح٤٣٤١)، والترمذي في (تفسير القرآن)، باب (ومن سورة المائدة)، (ح٣٠٥٨)، وقال: حسن غريب.

لديهم منكر والمنكرُ معروف.

النوع الثاني من الغربة: غربة مذمومة؛ وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق، فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها فهم غرباء علىٰ كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة علىٰ كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخفون علىٰ أهل السماء.

النوع الثالث من الغربة: غربة مشتركة، لا تحمد ولا تذم؛ وهي الغربة عن الوطن؛ فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء؛ فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**كنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1]. وهكذا هو في نفس الأمر؛ لأنه أُمِرَ أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة...

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبًا، وهو علىٰ جناح سفر، لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد. اهـ[2].

[وحشة التفرد]

لما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثر الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق مرافقُه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة علىٰ وحشة التفرد، وعلىٰ الأنس بالرفيق؛ نبه الله سبحانه علىٰ الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين

---

(١) رواه البخاري في (الرقائق)، باب (قول النبي ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب** ...»)، (ح٦٤١٦).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥١- ١٥٦).



﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فأضاف الصراط إلىٰ الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له؛ فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين»، وكلما استوحشت في تفردك فانظرْ إلىٰ الرفيق السابق، واحرصْ علىٰ اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم؛ فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم؛ فإنك متىٰ التفتَ إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين؛ فليكونا منك علىٰ بالٍ:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلىٰ الصلاة، لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقىٰ عليه كلامًا يؤذيه، فوقف ورد عليه، وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوىٰ منه، فقهره ومنعه عن الوصول إلىٰ المسجد، حتىٰ فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوىٰ من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة؛ فإن التفت إليه أطمعه في نفسه، وربما فترت عزيمته؛ فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجَمْز بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث علىٰ السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدىٰ الفوائد في دعاء القنوت: «اللهم اهدني فيمن هديت»[1] أي: أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلىٰ الله بنعمه وإحسانه إلىٰ من أنعم عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمت بالهداية علىٰ من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلىٰ الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليَّ في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إليَّ في جملة من شملته بإحسانك. اهـ[2].

[هل ذنوب المسلمين حجة للكافرين؟]

قال السائل: نرىٰ في دينكم أكثر الفواحش فيمن هو أعلم وأفقه في دينكم كالزنىٰ واللواط والخيانة، والحسد والبخل، والغدر والجبن، والكبر والخيلاء،

---

(١) رواه أبو داود في (الصلاة)، باب (القنوت في الوتر)، (ح١٤٢٥)، والترمذي في (الصلاة)، باب (ما جاء في القنوت في الوتر)، (ح٤٦٤) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٧- ٣٩).



وقلة الورع واليقين، وقلة الرحمة والمروءة والحمية، وكثرة الهلع، والتكالب علىٰ الدنيا والكسل في الخيرات، وهذا الحال يكذب لسان المقال.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: ماذا علىٰ الرسل الكرام من معاصي أممهم وأتباعهم؟ وهل يقدح ذلك شيئا في نبوتهم، أو يوجب تغييرًا في وجه رسالتهم؟ وهل سلم من الذنوب علىٰ اختلاف أنواعها وأجناسها إلا الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ وهل يجوز رد رسالتهم وتكذيبهم بمعصية بعض أتباعهم لهم؟ وهل هذا إلا من أقبح التعنت؟ وهو بمنزلة رجل مريض دعاه طبيب ناصح إلىٰ سبب ينال به غاية عافيته، فقال: لو كنت طبيبًا لم يكن فلان وفلان فعلًا مرضىٰ. وهل يلزم الرسل أن يشفوا جميع المرضىٰ بحيث لا يبقىٰ في العالم مريض؟ وهل تعنت أحد علىٰ الرسل بمثل هذا التعنت؟

الوجه الثاني: أن الذنوب أو المعاصي أمر مشترك بين الأمم، لم يزل في العالم من طبقات بني آدم: عالمهم وجاهلهم، وزاهدهم في الدنيا وراغبهم، وأميرهم ومأمورهم، وليس ذلك أمرًا اختصت به هذه الأمة حتىٰ يُقدح به فيها وفي نبيها.

الوجه الثالث: أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل؛ بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان، والذنوب والمعاصي، فيكون فيه هذا وهذا، فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه.

الوجه الرابع: أن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء، وعدد الرمل والحصىٰ، ثم تاب منها تاب الله عليه؛ قال تعالىٰ:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر: ٥٣]، فهذا في حق التائب، وأن التوبة تجبُّ ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يكفِّر الذنوب، كما في الحديث الصحيح: «ابن آدم، **لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لقيتك بقرابها مغفرة**»[1]، فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد، إن قوي التوحيد علىٰ محو آثارها بالكلية، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأمَّا المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم محبط حسناتهم، ولا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يعقب لهم شيء من مغفرة ذنوبهم؛ قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالىٰ في حق الكفار والمشركين: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «**أبىٰ الله أن يقبل من مشرك عملًا**»[2]. فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقىٰ عليه منها أخرجه توحيده من النار؛ وأما الشرك بالله والكفر بالرسول فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا يبقىٰ معه حسنة.

الوجه الخامس: أن يقال لمورد هذا السؤال -إن كان من الأمة الغضبية

---

(١) رواه الترمذي في (الدعوات) من حديث أنس، باب (فضل التوبة والاستغفار)، (ح٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب. وبنحوه من حديث أبي ذر رواه مسلم في (الذكر والدعاء)، (ح٢٦٨٧).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما المحفوظ عنه ﷺ: «**أبىٰ الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتىٰ يدع بدعته**»، رواه ابن ماجة في (المقدمة)، (ح٥٠)، وابن أبي عاصم في (السنة)، (ص٢٢).



إخوان القردة-: ألا يستحي من إيراد هذا السؤال، من آباؤه وأسلافه كانوا يشهدون في كل يوم من الآيات ما لم يره غيرهم من الأمم؟ وفلق الله لهم البحر فأنجاهم من عدوهم، وما جفت أقدامهم من ماء البحر حتىٰ قالوا لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ولما ذهب لميقات ربه لم يمهلوه أن عبدوا بعد ذهابه العجل المصوغ، وغلب أخوه هارون معهم، ولم يقدر علىٰ الإنكار عليهم، وكانوا مع مشاهدتهم العجائب يَهِمُّون برجم موسىٰ وأخيه هارون في كثيرٍ من الأوقات، والوحي بين أظهرهم، ولما ندبهم إلىٰ الجهاد قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، وآذوا موسىٰ أنواع الأذىٰ... وقتلهم الأنبياء بغير حق حتىٰ قتلوا في يوم واحد سبعين نبيًّا في أول النهار، وأقاموا السوق آخره -كأنهم جزروا غنمًا- أمر معروف. وقتلهم يحيىٰ بن زكريا، ونشرهم إياه في المنشار.

وإصرارهم علىٰ العظائم، واتفاقهم علىٰ تغيير كثير من أحكام التوراة...

أفلا يستحي عباد الكباش والبقر من تعيير الموحدين بذنوبهم؟ أَوَلا يستحي ذرية قتلة الأنبياء من تعيير المجاهدين لأعداء الله؟ فأين ذرية من سيوف آبائهم تقطر من دماء الأنبياء، ممن تقطر سيوفهم من دماء الكفار المشركين؟ أولا يستحيي من يقول في صلاته لربه: «انتبه كم تنام، استيقظ من رقدتك» ينخيه بذلك ويحميه، من تعيير من يقول في صلاته: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

فلو بلغت ذنوب المسلمين عدد الحصىٰ والرمل، والتراب والأنفاس، ما

بلغت مبلغ قتل نبي واحد، ولا وصلت إلىٰ قول إخوان القردة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم: «إن الله بكىٰ علىٰ الطوفان حتىٰ رمدت عيناه من البكاء وجعلت الملائكة تعوده»، وقولهم: «إن الله عضَّ أنامله علىٰ ذلك»، وقولهم: «إنه ندم علىٰ خلق البشر وشقَّ عليه لما رأىٰ من معاصيهم وظلمهم». اهـ[1].

[منفعة الحق ومنفعة الخلق]

لا أحد من المخلوقين يقصد منفعتك بالمقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك، وقد يكون عليك في ذلك ضرر إذا لم يراع المحب العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضرُّه أقرب من نفعه. وأما الرب سبحانه فهو يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك، وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها. فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة، فملاحظة تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك؛ فإنه لا يريد ذلك ألبتة بالقصد الأول، بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلًا أو آجلًا، فهو يريد نفسه لا يريدك، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه، فتأمل ذلك فإن فيه منفعة عظيمة وراحة ويأسًا من المخلوقين، وسدًّا لباب عبوديتهم، وفتحًا لباب عبودية الله وحده، فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة ورعاها حق رعايتها. ولا يحملنك هذا علىٰ جفوة الناس وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم؛ فكما لا تخافهم فلا ترجوهم. ومما يبين ذلك أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك وإن كان ذلك

(١) «هداية الحيارىٰ» (٤٦٢ - ٤٦٨).



ضررًا عليك؛ فإن صاحب الحاجة أعمىٰ لا يرىٰ إلا قضاءها، فهم لا يبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجتهم، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك. وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة، وأنه لا أعدىٰ للعاقل اللبيب من هذه العداوة؛ فهم يريدون أن يصيروك كالكير ينفخ بطنك ويعصر أضلاعك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزرون الشاة، وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلىٰ أوطارهم وأنت لا تشعر، وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم، وربما علمت. وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك ورحت صفر اليدين، وكم فوَّتوا عليك من مصالح الدارين وقطعوك عنها وحالوا بينك وبينها، وقطعوا طريق سفرك إلىٰ منازلك الأولىٰ ودارك التي دعيت إليها وقالوا: نحن أحبابك وخدمك، وشيعتك وأعوانك، والساعون في مصالحك. وكذبوا والله؛ إنهم لأعداء في صورة أولياء، وحرب في صورة مسالمين، وقطاع طريق في صورة أعوان. فواغوثاه ثم واغوثاه بالله الذي يغيث ولا يغاث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩]، فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضىٰ الله بسخطهم ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم علىٰ الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيا حب الله وخوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحًا، بشرط أن يصبر علىٰ أذاهم ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا وربحًا لا خسرانًا.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة ألبتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**واعلمْ أن الخليقة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»(١). وإذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع، والله أعلم. اهـ(٢).

[الفراسة]

سببها: نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم علىٰ القلب ينفي ما يضاده؛ يثب علىٰ القلب كوثوب الأسد علىٰ الفريسة؛ لكن «الفريسة» فعيلة بمعنىٰ مفعولة، وبناء «الفراسة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة. وهذه «الفراسة» علىٰ حسب قوة الإيمان؛ فمن كان أقوىٰ إيمانًا فهو أَحَدُّ فراسة.

وقال أبو عمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطئ، ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعوَّد أكل الحلال: لم تخطئ فراسته.

(١) رواه بنحوه الترمذي في (صفة القيامة)، (ح٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣).
(٢) «طريق الهجرتين» (٦٢- ٦٤).



وقال أبو جعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض؛ فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس.

وقال أبو حفص النيسابوري: ليس لأحد أن يدعي الفراسة، ولكن يتقي الفراسة من الغير؛ لأن النبي ﷺ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**»(١)، ولم يقل: تفرسوا، وكيف يصح دعوىٰ الفراسة لمن هو في محل اتقاء الفراسة؟

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق؛ فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون.

وكان الجنيد يومًا يتكلم علىٰ الناس، فوقف عليه شاب نصراني متنكرًا، فقال: أيها الشيخ ما معنىٰ قول النبي ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**»، فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه إليه وقال: أسلم، فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام.

ويقال في بعض الكتب القديمة: إن الصِّديق لا تخطئ فراسته.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسىٰ: ﴿اسْتَأْجِرْهُ﴾ [القصص: ٢١]، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما، حيث استخلفه. وفي رواية أخرىٰ: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة، وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورة؛ فإنه ما قال لشيء «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفي في فراسته:

(١) رواه الترمذي في (تفسير القرآن)، باب (من سورة الحجر)، (ح٣١٢٧)، وقال: غريب.

موافقته ربه في المواضع المعروفة. ومر به سواد بن قارب، ولم يكن يعرفه، فقال: «لقد أخطأ ظني، أو أن هذا كاهن؛ أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية. فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر، فقال: سبحان الله! يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحدًا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به، فقال له عمر رضي الله عنه: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك؛ ولكن أخبرني عما سألتك عنه، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، كنت كاهنًا في الجاهلية، ثم ذكر القصة». وكذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه صادق الفراسة، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «دخلت علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها، فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل علي أحدكم وأثر الزنىٰ ظاهر في عينيه، فقلت: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة». وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالىٰ لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ؛ قال الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] كان ميتًا بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم، وجعل له بالقرآن والإيمان نورًا يستضيء به في الناس علىٰ قصد السبيل، ويمشي به في الظلم، والله أعلم. اهـ[١].

❀♦❀

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨١- ٤٨٣).



الفصل السادس: الابتلاء

[الابتلاء جسر لبلوغ أسمى المقامات]

إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلىٰ به عباده وصفوته بما ساقهم به إلىٰ أجلِّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا علىٰ جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر -لكماله- كالجسر الذي لا سبيل إلىٰ عبورهم إلىٰ الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة؛ فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة والمنة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنه عظيمة تُجنىٰ من قطوف الابتلاء والامتحان... تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء، وشيخ الأنبياء، وعمود العالم، وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت اليه محنته وصبره وبذله نفسه لله.

وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصْرُه دينه إلىٰ أن اتخذه الله خليلًا لنفسه، وأمر رسوله وخليله محمدًا ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبهك علىٰ خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده؛ فإن الله تبارك وتعالىٰ جازاه علىٰ تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثَّره حتىٰ ملأ السهل والجبل؛ فإن الله تبارك وتعالىٰ لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمرًا، أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافًا

مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافًا مضاعفة، فلما أُمِرَ إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه رضاءً منهما وتسليمًا، وعلم الله منهما الصدق والوفاء، فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله، وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتىٰ ملئوا الأرض؛ فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: ١٠٠]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، فغاية ما كان يحذر ويخشىٰ من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل، وبارك فيه، وكثر حتىٰ ملأوا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمدًا ﷺ. وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل، فأمر بإحضارهم، وبعث لذلك نقباء وعرفاء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فمكثوا مدة لا يقدرون علىٰ ذلك، فأوحىٰ الله إلىٰ داود: أن قد علمت أني وعدت أباك إبراهيم -لما أمرته بذبح ولده فبادر إلىٰ طاعة أمري- أن أبارك له في ذريته حتىٰ يصيروا في عدد النجوم، وأجعلهم بحيث لا يحصىٰ عددهم، وقد أردت أن تحصي عددًا قدَّرتُ أنه لا يحصىٰ... وذكر باقي الحديث، فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يُحصي عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم؛ وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل. هذا سوىٰ ما أكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجميل علىٰ ألسنة جميع الأمم، وفي السماوات بين الملائكة.

فهذا من بعض ثمرة معاملته، فتبًّا لمن عرفه ثم عامل غيره، ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته!

ثم تأمل حال الكليم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلىٰ منتهىٰ أمره، حتىٰ كلمه الله تكليمًا، وكتب له التوراة بيده، ورفعه إلىٰ أعلىٰ السماوات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره؛ فإنه رمىٰ الألواح علىٰ الأرض حتىٰ تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون، وجره إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن محمد رسول الله ﷺ، وربه يحبه علىٰ ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله، القريب، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله، ومقاساة الأمر الشديد بين فرعون وقومه -ثم بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله- لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح ﷺ، وصبره علىٰ قومه، واحتماله في الله وما تحمله منهم، حتىٰ رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض، ومزقهم كل ممزق، وسلبهم ملكهم وفخرهم إلىٰ آخر الدهر.

فإذا جئت إلىٰ النبي ﷺ، وتأملت سيرته مع قومه، وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف، وغنىٰ وفقر، وأمن وإقامة في وطنه، وظعن عنه وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذىٰ الكفار له بسائر أنواع الأذىٰ من القول والفعل والسحر والكذب، والافتراء عليه والبهتان؛ وهو مع ذلك كله صابر علىٰ أمر الله، يدعو إلىٰ الله فلم، يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره، وقرن اسمعه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه

وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعة.

وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلىٰ أعلىٰ المقامات، وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلىٰ كماله بحسب متابعته له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له، وجعل خلاقه ونصيبه فيها؛ فهو يأكل منها رغدًا، ويتمتع فيها حتىٰ يناله نصيبه من الكتاب؛ يُمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في وادٍ، همه ما يقيم به جاهه، ويُسلم به ماله، وتُسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط.

وهمهم إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلىٰ المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا علىٰ جسر المحنة والابتلاء؟!

كذا المعالي إذا ما رمت ندركها   فاعبر إليها علىٰ جسر من التعب

والحمد لله وحده، وصلىٰ الله علىٰ محمد وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلىٰ يوم الدين، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين. اهـ[1].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣٠٢- ٣٠٧).

[تنعم أهل الفجور وابتلاء أهل الصلاح]

الإنسان قد يسمع ويرىٰ ما يصيب كثيرًا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيرًا من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين علىٰ المؤمنين، فإذا سمع في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك علىٰ أن حصوله في الدار الآخرة فقط، وقال: أمَّا الدنيا فإنا نرىٰ الكفار والمنافقين يغلبون فيها ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر، والقرآن لا يَرِدُ بخلاف الحس، ويعتمد علىٰ هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوىٰ، فيرىٰ أن صاحب الباطل قد علا علىٰ صاحب الحق، فيقول: أنا علىٰ الحق، وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها للباطل.

فإذا ذُكِّر بما وعده الله تعالىٰ من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط!

وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالىٰ هذا بأوليائه وأحبائه وأهل الحق؟

فإن كان ممن لا يعلل أفعال الله تعالىٰ بالحكم والمصالح قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وإن كان ممن يعلل الأفعال قال: فعل بهم هذا ليعرضهم بالصبر عليه لثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات وأجوبة، بحسب حاصله وبضاعته من المعرفة بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وحكمته والجهل بذلك؛ فالقلوب تغلي بما فيها، كالقدور إذا استجمعت غليانًا... وأنت تشاهد كثيرًا من الناس إذا أصابه نوع من البلاء يقول: يا ربي، ما كان ذنبي حتىٰ فعلت بي هذا؟ وقال لي غير واحد: إذا تبت إليه وأنبت وعملت صالحًا، ضيق عليَّ رزقي، ونكد عليَّ معيشتي، وإذا رجعت إلىٰ معصيته، وأعطيت نفسي مرادها، جاءني الرزق والعون، ونحو هذا.

فقلت لبعضهم: هذا امتحان منه، ليرىٰ صدقك وصبرك، وهل أنت صادق في مجيئك إليه وإقبالك عليه، فتصبر علىٰ بلائه، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذب، فترجع علىٰ عقبك؟

وهذه الأقوال والظنون الكاذبة الحائدة عن الصواب مبنية علىٰ مقدمتين:

إحداهما: حسن ظن العبد بنفسه ودينه، واعتقاده أنه قائم بما يجب عليه، وتارك ما نهي عنه، واعتقاده في خصمه وعدوه خلاف ذلك، وأنه تارك للمأمور،



مرتكب للمحظور، وأنه نفسه أولىٰ بالله ورسوله ودينه منه.

والمقدمة الثانية: اعتقاده أن الله ﷻ قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه، بل يعيش عمره مظلومًا مقهورًا مستضامًا، مع قيامه بما أُمر به ظاهرًا وباطنًا، وانتهائه عما نُهي عنه باطنًا وظاهرًا؛ فهو عند نفسه قائم بشرائع الإسلام وحقائق الإيمان، وهو تحت قهر أهل الظلم والفجور والعدوان.

فلا إله إلا الله، كم فسد بهذا الاغترار من عابد جاهل! ومتدين لا بصيرة له! ومنتسب إلىٰ العلم لا معرفة له بحقائق الدين!

فإنه من المعلوم: أن العبد وإن آمن بالآخرة، فإنه طالب في الدنيا لما لا بد له منه من جلب النفع ودفع الضرر، بما يعتقد أنه مستحب أو واجب أو مباح، فإذا اعتقد أن الدين الحق واتباع الهدىٰ والاستقامة علىٰ التوحيد، ومتابعة السنة ينافي ذلك، وأنه يعادي جميع أهل الأرض، ويتعرض لما لا يقدر عليه من البلاء، وفوات حظوظه ومنافعه العاجلة، لزم من ذلك إعراضه عن الرغبة في كمال دينه، وتجرده لله ورسوله، فيعرض قلبه عن حال السابقين المقربين، بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين، بل قد يدخل مع الظالمين، بل مع المنافقين، وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من فروعه وأعماله؛ كما قال النبي ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[1]. وذلك أنه إذا اعتقد أن الدين الكامل لا يحصل إلا

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان)، باب (الحث علىٰ المبادرة بالأعمال) ... (ح١١٨).

بفساد دنياه؛ من حصول ضرر لا يحتمله، وفوات منفعة لا بد له منها، لم يقدم علىٰ احتمال هذا الضرر، ولا تفويت تلك المنفعة.

فسبحان الله! كم صدت هذه الفتنة الكثير من الخلق، بل أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين.

وأصلها ناشئ من جهلين كبيرين: جهل بحقيقة الدين، وجهل بحقيقة النعيم الذي هو غاية مطلوب النفوس وكمالها، وبه ابتهاجها والتذاذها، فيتولد من بين هذين الجهلين: إعراضه عن القيام بحقيقة الدين، وعن طلب حقيقة النعيم.

ومعلوم أن كمال العبد هو بأن يكون عارفًا بالنعيم الذي يطلبه، والعمل الذي يوصل إليه، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل، ومحبة صادقة لذلك النعيم؛ وإلا فالعلم بالمطلوب وطريقه لا يُحَصِّله إن لم يقترن بذلك العمل، والإرادة الجازمة لا توجب وجود المراد إلا إذا لازمها الصبر.

فصارت سعادة العبد وكمال لذته ونعيمه موقوفًا علىٰ هذه المقامات الخمسة: علمه بالنعيم المطلوب، ومحبته له، وعلمه بالطريق الموصل إليه، وعمله به، وصبره علىٰ ذلك.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

والمقصود أن المقدمتين اللتين بنيت عليهما هذه الفتنة، أصلهما الجهل بأمر الله ودينه، وبوعده ووعيده.



فإن العبد إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق، فقد اعتقد أنه قد قام بفعل المأمور باطنًا وظاهرًا، وترك المحظور باطنًا وظاهرًا، وهذا من جهله بالدين الحق وما لله عليه، وما هو المراد منه؛ فهو جاهل بحق الله عليه، جاهل بما معه من الدين قدرًا ونوعًا وصفة.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين علىٰ المؤمنين، وللفجار الظالمين علىٰ الأبرار المتقين، فهذا من جهله بوعد الله تعالىٰ ووعيده.

فأما المقام الأول: فإن العبد كثيرًا ما يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها، فيكون مقصرًا في العلم، وكثيرًا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها، إما كسلًا وتهاونًا، وإما لنوع تأويل باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك. فواجبات القلوب أشد وجوبًا من واجبات الأبدان، وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من باب الفضائل والمستحبات.

فتراه يتحرج من ترك فرض، أو ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهم واجبات القلوب وفرضها، ويتحرج من فعل أدنىٰ المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريمًا وأعظم إثمًا.

بل ما أكثر من يتعبد لله ﷻ بترك ما أوجب عليه؛ فيتخلىٰ وينقطع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع قدرته عليه، ويزعم أنه متقرب إلىٰ الله تعالىٰ بذلك، مجتمع علىٰ ربه، تارك ما لا يعنيه؛ فهذا من أمقت الخلق إلىٰ الله تعالىٰ، وأبغضهم له،

مع ظنه أنه قائم بحقائق الإيمان وشرائع الإسلام، وأنه من خواص أوليائه وحزبه.

بل ما أكثر من يتعبد لله بما حرَّمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعة وقربة، وحاله في ذلك شر من حال من يعتقد ذلك معصية وإثمًا؛ كأصحاب السماع الشعري الذي يتقربون به إلىٰ الله تعالىٰ، ويظنون أنهم من أولياء الرحمن، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان.

وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الحق ونوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل، وحبك الشيء يعمي ويصم. والإنسان مجبول علىٰ حب نفسه؛ فهو لا يرىٰ إلا محاسنها، ومبغض لخصمه؛ فهو لا يرىٰ إلا مساويه، بل قد يشتد به حبه لنفسه حتىٰ يرىٰ مساويها محاسن؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨]، ويشتد به بغض خصمه حتىٰ يرىٰ محاسنه مساوئ؛ كما قال:

نظـــروا بعـــين عـــداوة ولـــو أنهـــا　　　عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

وهذا الجهل مقرون بالهوىٰ والظلم غالبًا؛ فإن الإنسان ظلوم جهول.

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وقلدوهم فيها: في الإثبات والنفي، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة.

والله سبحانه إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علمًا وعملًا، لم يضمن نصر الباطل، ولو اعتقد صاحبه أنه محق، وكذلك العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال؛ قال



تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة، ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا.

وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه؛ قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، فإذا ضعف الدفع عنه فهو من نقص إيمانه.

وكذلك الكفاية والحسب هي بقدر الإيمان؛ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: الله حسبك وحسب أتباعك؛ أي: كافيك وكافيهم، فكفايته لهم بحسب اتباعهم لرسوله، وانقيادهم له، وطاعتهم له؛ فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله.

ومذهب **أهل السنة والجماعة**: أن الإيمان يزيد وينقص.

وكذلك ولاية الله تعالىٰ لعبده هي بحسب إيمانه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال الله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الإيمان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩]، فإذا نقص الإيمان وضعف، كان حظ العبد من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حظه من الإيمان.

وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه: إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه.

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١]. ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلًا في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل له عليهم سبيلًا في الحجة.

والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوه من طاعة الله تعالىٰ. فالمؤمن عزيز غالب مؤيَّد منصور، مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهرًا وباطنًا؛ وقد قال تعالىٰ للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٥].

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جند من جنود الله، يحفظهم

بها، ولا يفردها عنهم، ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره، ولم تكن موافقة لأمره. اهـ[(١)].

[أصول جامعة نافعة في ابتلاء المؤمنين وتنعم غيرهم]

تمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة:

الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذىٰ دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثيرٍ.

الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالىٰ مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعولهم علىٰ الصبر والاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤونته؛ فإنهم كلما شاهدوا العوض هانَ عليهم تحمل المشاق والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبه تعالىٰ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤]. فاشتركوا في الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفىٰ من الله تعالىٰ.

الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٥٤٦- ٥٥٣).

وإخلاصه، ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتىٰ يحمل عنه من الأذىٰ ما لو كان شيء منه علىٰ غيره لعجز عن حمله، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن؛ فإنه يدفع عنه كثيرًا من البلاء، وإذا كان لا بد له من شيء منه دفع عنه ثقله ومئونته ومشقته وتبعته.

الأصل الرابع: أن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه، كان أذىٰ المحب في رضا محبوبه مستحلىٰ غير مسخوط، والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتىٰ قال قائلهم:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلىٰ، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه؟!

الأصل الخامس: أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه، دون ما يحصل للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «إنهم وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم النعال، إنَّ ذل المعصية لفي قلوبهم؛ أبىٰ الله إلا أن يذل من عصاه».

الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته؛ فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة. ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه؛ كما قال النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده، لا يقضي الله**



للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[(١)].

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته، ولهذا كان «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأقرب إليهم فالأقرب؛ يبتلىٰ المرء علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يمشي علىٰ وجه الأرض وليس عليه خطيئة**»[(٢)].

الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان: أمر لازم لا بد منه، وهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتىٰ للأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين؛ فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللذة عن الألم، لكان ذلك عالمًا غير هذا، ونشأة أخرىٰ غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار أخرىٰ غير هذه الدار؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧].

الأصل الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم، وكسرهم

---

(١) رواه بنحوه مسلم في (الزهد والرقائق)، باب (المؤمن أمره كله خير)، (ح٢٩٩٩).

(٢) هو معنىٰ حديث رواه أحمد: (١/ ١٧٢، ١٧٤)، والترمذي في (الزهد)، (ح٢٣٩٨).

لهم أحيانًا، فيه حكم عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله ﷻ.

فمنها: استخراج عبوديتهم وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤالهم نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائمًا منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائمًا مقهورين مغلوبين منصورًا عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة. فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبتهم تارة، وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غُلِبوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلَبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائمًا منصورين، غالبين، قاهرين، لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول؛ فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائمًا لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة، وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها. فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.



ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم؛ كما قال تعالىٰ في حكمة إدالة الكفار علىٰ المؤمنين يوم أحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٤].

فذكر سبحانه أنواعًا من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار، بعد أن ثبَّتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله، فقد مس أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولًا بين الناس، فيصيب كلًّا منهم نصيبه منها، كالأرزاق والآجال.

ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعًا.

ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء؛ فإن الشهادة درجة عالية عنده،

ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين؛ أي تخليصهم من ذنوبهم، بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبىٰ ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائمًا منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذىٰ أعدائهم.

فهذا بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

الأصل التاسع: أنه ﷻ إنما خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزيَّن الأرض بما عليها، لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها.

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت، أو لا يؤمن بل يستمر علىٰ السيئات والكفر، ولا بد من امتحان هذا وهذا.

فأما من قال: آمنت، فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه ليتبين: هل هو صادق في قوله: آمنت أو كاذب؟ فإن كان كاذبًا رجع علىٰ عقبيه، وفر من الامتحان كما



يفر من عذاب الله، وإن كان صادقًا ثُبِّت علىٰ قوله، ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيمانًا علىٰ إيمانه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما من لم يؤمن فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب ويفتن به، وهي أعظم المحنتين، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوباتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم، فلا بد من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ وفي القيامة لكل أحد. ولكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية؛ فإن الله يدفع عنه بالإيمان، ويحمل عنه به، ويرزقه من الصبر والثبات والرضا والتسليم ما يُهوِّن به عليه محنته. وأما الكافر والمنافق والفاجر، فتشتد محنته وبليته وتدوم؛ فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة.

فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعمة ابتداء، ثم يصير إلىٰ الألم، فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم ألبتة، يوضحه:

الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدني بالطبع؛ لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات، وتصورات، واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذىٰ والعذاب من وجه آخر، فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت علىٰ باطل، وفي المخالفة ألم

وعذاب إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المرتب علىٰ موافقتهم.

واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة علىٰ ظلم، أو فاحشة، أو شهادة زور، أو المعاونة علىٰ محرم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن تكون له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقىٰ، وإن وافقهم فرارًا من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه، والغالب أنهم يسلطون عليه، فيناله من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولًا بموافقتهم.

فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد؛ فألم يسير يُعْقِب لذة عظيمة دائمة أولىٰ بالاحتمال من لذة يسيرة تُعْقِب ألمًا عظيمًا دائمًا، والتوفيق بيد الله.

الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب.

والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلىٰ به العبد في الله.

وأشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس: ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها؛ فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة علىٰ ما هو معتاد لبني آدم. فمن عدَّ مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت علىٰ الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها

وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش! وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن؛ حيث يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ١٦].

فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلًا؛ إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله، إن أراد به سوءًا غير الموت الذي فر منه؛ فإنه فر من الموت لمَّا كان يسوءه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءًا غيره لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن؛ فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالىٰ وإعلاء كلمته سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرىٰ، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلًا وآجلًا. وإن حبسه وادخره منعه التمتع به، ونقله إلىٰ غيره، فيكون له مهنؤه وعلىٰ مُخْلِفه وزره. وكذلك من رفَّه بدنه وعرضه، وآثر راحته علىٰ التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: «لما يلقىٰ الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقىٰ الذي يتقي الله من معالجة التقوىٰ».

واعتبر ذلك بحال إبليس؛ فإنه امتنع من السجود لآدم فرارًا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادمًا لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته.

وكذلك عباد الأصنام: أنفوا أن يتبعوا رسولًا من البشر، وأن يعبدوا إلهًا واحدًا سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه في طاعته؛ لا بد أن يذل لمن لا يسوىٰ، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته عقوبة له؛ كما قال بعض السلف: «من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله تعالىٰ أكثر منها في غير طاعته». اهـ[١].

[كيف نصبر على البلاء؟]

والصبر علىٰ البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٥٥٨- ٥٦٥).

يخلق فلا بد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوىٰ، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا علىٰ أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوىٰ، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة. قال علي بن أبي طالب: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة».

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلىٰ مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلىٰ مقام الظلم وتعدىٰ الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر علىٰ تجرعه، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلًا.

الثامن: أن يعلم أن في عقبىٰ هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلىٰ عاقبته وحسن تأثيره؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال الله

تعالىٰ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]، وفي مثل هذا قال القائل:

لعــل عتبــك محمـــود عواقبـــه ... وربمــا صــحت الأجســام بالعلــل

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب علىٰ وجهه ونكص علىٰ عقبيه طُرِدَ وصُفِعَ قفاه وأقصي وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة. وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة. والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان؛ لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يربي عبده علىٰ السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد علىٰ الحقيقة من قام بعبودية الله علىٰ اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله علىٰ حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت علىٰ محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل

المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت علىٰ البلاء والعافية. فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه: فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج زغلًا محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتىٰ يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقىٰ ذهبًا خالصًا، فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه، اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر علىٰ البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر. فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه. اهـ(١).

[كيف تتحمل أذى الخلق؟]

للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذىٰ الخلق وجنايتهم عليه:

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ -أي الهروي- وهو مشهد «القدر» وأن ما جرىٰ عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره فيراه؛ كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار؛ فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا استراح وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٧٦- ٢٧٨).

المشهد الثاني: مشهد «الصبر»: فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام؛ فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا علىٰ هذا -وهو محمود- صبر اضطرارًا علىٰ أكبر منه وهو مذموم.

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم»؛ فإنه متىٰ شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته لم يعدل عنه إلا لعشىٰ في بصيرته؛ فإنه «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**»(١) كما صح ذلك عن النبي ﷺ وعلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلَّ. هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

المشهد الرابع: مشهد «**الرضا**»؛ وهو فوق مشهد «العفو والصفح»، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله. وهذا شأن كل محب صادق، يرضىٰ بما يناله في رضا محبوبه من المكاره، ومتىٰ تسخط به وتشكىٰ منه، كان ذلك دليلًا علىٰ كذبه في محبته. والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

مـن أجلـك جعلـت خَـدِّي أرضًـا للشـامت والحسـود حتـىٰ ترضـىٰ

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه، فلينزل عن درجة المحبة،

---

(١) رواه مسلم في (البر)، باب (استحباب العفو والتواضع)، ح(٢٥٨٨).



وليتأخر فليس من ذا الشأن.

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان»؛ وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان؛ فيحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويُهوِّن هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدىٰ إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه، فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلىٰ ما أحسن به إليك.

وهاهنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب، وهذا المسكين قد وهبك حسناته، فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها لتثبت الهبة، وتأمن رجوع الواهب فيها.

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم وأهل العزائم.

ويُهوِّنه عليك أيضًا: علمك بأن الجزاء من جنس العمل؛ فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك: عفوت عنه، وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلك. فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك؛ يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك، فهذا لا بد منه، وشاهده في السُّنة من وجوه كثيرة لمن تأملها.

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب»؛ وهذا مشهد شريف جدًّا لمن عرفه، وذاق حلاوته؛ وهو ألا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذىٰ، وطلب الوصول إلىٰ درك ثأره، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك، ويرىٰ أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له وألذ وأطيب، وأعون علىٰ مصالحه؛ فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه، فيكون بذلك مغبونًا، والرشيد لا يرضىٰ بذلك، ويرىٰ أنه من تصرفات السفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟

المشهد السابع: مشهد «الأمن»؛ فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك، وإذا انتقم واقعه الخوف ولا بدَّ؛ فإن ذلك يزرع العداوة، والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيرًا، فكم من حقير أردىٰ عدوه الكبير؟ فإذا غفر ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو زيادتها، ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه، ويكف من جزعه، بعكس الانتقام، والواقع شاهد بذلك أيضًا.

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد»؛ وهو أن يشهد تولد أذىٰ الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلمته.

وصاحب هذا المقام قد اشترىٰ الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن؛ فإن أراد أن يسلَّم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له علىٰ من آذاه، ولا شيء له قِبَله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره علىٰ الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنىٰ مكة -أعزها الله- ولم يَرُدَّ علىٰ أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق رضي الله عنه علىٰ تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه -بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم-: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها علىٰ الله، ولا دية لشهيد»، فاتفق الصحابة علىٰ قول عمر ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتىٰ أوذي في الله حرَّم الله عليه الانتقام؛ كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].



المشهد التاسع: مشهد «النعمة»؛ وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلومًا يترقب النصر، ولم يجعله ظالمًا يترقب المقت والأخذ، فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين -ولا بد من إحداهما- لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه؛ فإنه ما أصاب المؤمن همٌّ ولا غم ولا أذىٰ إلا كفَّر الله به من خطاياه، فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب، ومن رضي أن يلقىٰ الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو مغبون سفيه؛ فأذىٰ الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلىٰ مرارة الدواء وكراهته ومن كان علىٰ يديه، وانظرْ إلىٰ شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك علىٰ يدي من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها؛ فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوىٰ منها وأمر، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلىٰ سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة، وأنها في الحقيقة نعمة، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة، وفي بعض الآثار: «أنه يتمنىٰ أناس يوم القيامة لو أنَّ جلودهم كانت تُقْرَض بالمقاريض؛ لما يرون من ثواب أهل البلاء».

هذا، وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَل الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض؛ فالعاقل يَعُدُّ هذا ذخرًا ليوم الفقر والفاقة، ولا يبطله

بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئًا.

المشهد العاشر: مشهد «الأُسوة»؛ وهو مشهد شريف لطيف جدًّا، فإن العاقل اللبيب يرضىٰ أن يكون له أسوة برسل الله وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه؛ فإنهم أشد الخلق امتحانًا بالناس، وأذىٰ الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور، ويكفي تدبر قصص الأنبياء - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذىٰ أعدائه له بما لم يُؤذه مَن قبله، وقد قال له وَرَقَةُ بن نوفل: «لَتُكَذَّبن، ولَتُخْرَجَنَّ، ولَتُؤْذَينَّ»[١]، وقال له: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»[٢]. وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ. أفلا يرضىٰ العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده: الأمثل فالأمثل؟

ومن أحب معرفة ذلك فليقف علىٰ مِحَن العلماء، وأذىٰ الجهال لهم، وقد صنَّف في ذلك ابن عبد البر كتابًا سماه: مِحَن العلماء.

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد»؛ وهو أجل المشاهد وأرفعها، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والأنس به، واطمأن إليه، وسكن إليه، واشتاق إلىٰ لقائه، واتخذه وليًّا دون من سواه، بحيث فوَّض إليه أموره كلها، ورضي به وبأقضيته، وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه عن كل ما سواه؛ فإنه لا يبقىٰ في قلبه متسع لشهود أذىٰ الناس له ألبتة، فضلًا عن أن يشتغل قلبه وفكره وسِرُّه بتطلب الانتقام والمقابلة؛ فهذا

---

(١) رواه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (١/ ٢٣٨).

(٢) رواه البخاري بنحوه في (بدء الوحي)، (ح٤)، ومسلم في (الإيمان)، (ح١٦٠).

لا يكون إلا من قلبٍ ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه، فهو قلب جائع غير شبعان، فإذا رأىٰ أيَّ طعام رآه هَفَتْ إليه نوازعه، وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبه بأعلىٰ الأغذية وأشرفها فإنه لا يلتفت إلىٰ ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم(١). اهـ.

[علاج المصائب]

قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته؛ فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلىٰ عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله ﷻ حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضًا فإنه محفوف بعَدَمَيْنِ: عدم قبله وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضًا فإنه ليس الذي أوجده عن عدمه حتىٰ يكون ملكه حقيقةً، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده؛ فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي، وأيضًا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرُّف العبد المأمور المنهي لا تصرف المُلَّاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلىٰ الله مولاه الحق، ولا بد أن يُخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا كما خلقه أول مرة: بلا أهل، ولا مال، ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته، فكيف يفرح

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٥- ٣٣٠).

بموجود أو يأسىٰ علىٰ مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ومن علاجه: أن ينظر إلىٰ ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقىٰ عليه مثله، أو أفضل منه، وادخر له -إن صبر ورضي- ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل وادٍ بنو سعد، ولينظر يمنة: فهل يرىٰ إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة: فهل يرىٰ إلا حسرة؟ وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلىٰ: إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا ساءت دهرًا، وإن متَّعت قليلًا منعت طويلًا، وما ملأت دارًا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور؛ قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لكل فرحة ترحة، وما مُلِئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا»، وقال ابن سيرين: «ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء».

وقالت هند بنت النعمان: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكًا، ثم لم تغب الشمس حتىٰ رأيتنا ونحن أقلُّ الناس، وإنه حقٌّ علىٰ الله ألا يملأ دارًا خيرة إلا ملأها عبرة.



وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها فقالت: أصبحنا ذا صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا...

ومن علاجها: أن يعلم أن الجزع لا يردها، بل يُضاعفها، وهو في الحقيقة من تزايد المرض.

ومن علاجها: أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم -وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله علىٰ الصبر والاسترجاع- أعظم من المصيبة في الحقيقة.

ومن علاجها: أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويُغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويُضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضىٰ شيطانه، ورده خاسئًا، وأرضىٰ ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه، وعزَّاهم هو قبل أن يُعزُّوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط علىٰ المقدور.

ومن علاجها: أن يعلم أن ما يُعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنىٰ له في الجنة علىٰ حمده لربه واسترجاعه، فلينظر: أيُّ المصيبتين أعظم؟ مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد. وفي الترمذي مرفوعًا: «**يود ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا؛ لما يرون من ثواب أهل البلاء**»[1].

(١) أخرجه الترمذي في (الزهد)، باب (ما يود أهل العافية في الجنة)، (ح٢٤٠٤)، وقال: غريب.

وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس.

ومن علاجها: أن يروح قلبه بروح رجاء الخلف من الله؛ فإنه من كل شيء عوض إلا الله، فما منه عوض كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

ومن علاجها: أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له؛ فمن رضي فله الرضىٰ، ومن سخط فله السخط؛ فحظُّك منها ما أحدثته لك، فاختر خير الحظوظ أو شرها، فإن أحدثتْ له سخطًا وكفرًا؛ كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدثتْ له جزعًا وتفريطًا في ترك واجب أو فعل محرم؛ كتب في ديوان المفرِّطين، وإن أحدثتْ له شكاية وعدم صبر؛ كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدثتْ له اعتراضًا علىٰ الله وقدحًا في حكمته؛ فقد قرع باب الزندقة أو ولجه، وإن أحدثتْ له صبراً وثباتًا لله؛ كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له الرضىٰ عن الله كتب في ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء الحمد مع الحمَّادين، وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلىٰ لقاء ربه؛ كُتب في ديوان المحبين المخلصين.

وفي «مسند الإمام أحمد» والترمذي، من حديث محمود بن لبيد يرفعه: «**إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضىٰ، ومن سخط فله السخط**»، زاد أحمد: «**ومن جزع فله الجزع**»[1].

---

(١) رواه الترمذي في (الزهد)، باب (الصبر علىٰ البلاء)، (ح٢٣٩٦)، وقال: حسن غريب، وابن ماجة في (الفتن)، (ح٤٠٣١)؛ كلاهما من حديث أنس ﷺ. ومن حديث محمود بن لبيد رواه أحمد بنحوه: (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩).

ومن علاجها: أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايته، فآخر أمره إلىٰ صبر الاضطرار، وهو غير محمود ولا مُثاب؛ قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومَن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم. وفي «الصحيح» مرفوعًا: «**الصبر عند الصدمة الأولىٰ**»(١)، وقال الأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سَلَوتَ سُلُوَّ البهائم».

ومن علاجها: أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعىٰ محبة محبوب، ثم سخط ما يحبه وأحب ما يسخطه، فقد شهد علىٰ نفسه بكذبه وتمقت إلىٰ محبوبه.

وقال أبو الدرداء: إن الله إذا قضىٰ قضاء أحب أن يُرضىٰ به. وكان عمران بن حصين يقول في علته: أحبه إليَّ أحبه إليه، وكذلك قال أبو العالية.

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبين، ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به.

ومن علاجها: أن يُوازن بين أعظم اللذتين والمتعتين وأدومهما: لذة تمتعه بما أُصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له، فإن ظهر له الرجحان فآثر الراجح، فليحمد الله علىٰ توفيقه، وإن آثر المرجوح من كل وجه، فليعلم أن مصيبته في عقله، وقلبه، ودينه أعظم من مصيبته التي أُصيب بها في دنياه.

ومن علاجها: أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين، وأرحم

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (الجنائز)، (ح١٣٠٢)، ومسلم في (الجنائز)، (ح٩٢٦).

الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه به، ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحًا ببابه، لائذًا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعًا قصص الشكوىٰ إليه.

قال الشيخ عبد القادر: يا بني، إن المصيبة ما جاءت لتهلكك؛ وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني، القدر سَبُعٌ، والسبعُ لا يأكل الميتة.

والمقصود: أن المصيبة كير العبد الذي يسبك به حاصله؛ فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما أن يخرج خبثًا كله؛ كما قيل:

سبكناه ونحسبه لجينا ... فأبدىٰ الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا، فبين يديه الكير الأعظم، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خيرٌ له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين، فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل.

ومن علاجها: أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد -من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب- ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا؛ فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه! كما قيل:

قد ينعم بالبلوىٰ وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم



فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواءً من الابتلاء، والامتحان علىٰ قدر حاله؛ يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتىٰ إذا هذَّبه ونقَّاه وصفَّاه، أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه.

ومن علاجها: أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها الله سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، وأن ينتقل من مرارة منقطعة إلىٰ حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا فانظر إلىٰ قول الصادق المصدوق: «**حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات**»(١).

وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال؛ فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة علىٰ الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذُلَّ ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد؛ فإنَّ الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إيثار العاجلة، ورفض الآخرة، وهذا حال النظر الواقع علىٰ ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلىٰ العواقب والغايات، فله شأن آخر.

فادع نفسك إلىٰ ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، والفوز الأكبر، وما أعدَّ لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والعقاب

---

(١) رواه مسلم في (الجنة وصفة نعيمها)، (ح٢٨٢٣).

والحسرات الدائمة، ثم اخترْ أي القسمين أليق بك، وكلٌّ يعمل علىٰ شاكلته، وكل أحد يصبو إلىٰ ما يناسبه، وما هو الأولىٰ به، ولا تستطل هذا العلاج، فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلىٰ بسطه، وبالله التوفيق(١). اهـ.

[عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم]

قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، فالآية الأولىٰ في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية؛ فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية علىٰ نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شرٌّ له في معاشه ومعاده.

وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه.

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول؛ فلا ينبغي أن يجعل المعيار علىٰ ما يضره وينفعه ميله وحبه، ونفرته وبغضه، بل المعيار علىٰ ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له علىٰ الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضرُّ الأشياء

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٨٩ - ١٩٦).



عليه علىٰ الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلىٰ عن طاعته وعبوديته، فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به، فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها، فانظرْ إلىٰ غارس جنة من الجنات، خبير بالفلاحة، غرسَ جنة وتعاهدها بالسقي والإصلاح حتىٰ أثمرت أشجارها، فأقبل عليها يفصل أوصالها ويقطع أغصانها، لعلمه أنها لو خُلِّيَتْ علىٰ حالها لم تطبْ ثمرتها، فيُطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتىٰ إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها، أقبل يقلِّمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها؛ لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك، ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطشها وقتًا ويسقيها وقتًا، ولا يترك الماء عليها دائمًا، وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها، ثم يعمد إلىٰ تلك الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيرًا منها؛ لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضاءها بالحديد، ويلقي عنها كثيرًا من زينتها، وذلك عين مصلحتها، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان لتوهمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها؛ وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق علىٰ ولده العالم بمصلحته، إذا رأىٰ مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه بَضَعَ جلده[١] وقطع عروقه، وأذاقه الألم الشديد، وإن رأىٰ شفاءه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه[٢]، كل ذلك رحمة به وشفقة عليه. وإن رأىٰ مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه، ولم يوسع عليه لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلىٰ فساده وهلاكه، وكذلك يمنعه كثيرًا من شهواته؛ حمية له ومصلحة، لا بخلًا عليه.

فأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأعلم العالمين، الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من ألا ينزله بهم؛ نظرًا منه لهم، وإحسانًا إليهم، ولطفًا بهم. ولو مُكِّنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علمًا وإرادة وعملًا؛ لكنه سبحانه تولىٰ تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا، فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي ذلك علىٰ الجُهَّل به وبأسمائه وصفاته، فنازعوه تدبيره، وقدحوا في حكمته، ولم ينقادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، وسياساتهم الجائرة؛ فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حَصَّلوا... والله الموفق.

ومتىٰ ظفر العبدُ بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم الآخرة؛ فإنه لا يزال راضيًا عن ربه، والرضا جنة الدنيا ومستراح

(١) بَضَعَ الجلد: أي شَقَّه.

(٢) أبانه عنه: أي قطعه.



العارفين؛ فإنه طيب النفس بما يجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينتها إلىٰ أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا، وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره؛ فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضىٰ، فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة، والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك ألبتة، كما قال ﷺ في الدعاء المشهور: «**اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، ما قالها أحدٌ قط إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرجًا**»، قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟ قال: «**بلىٰ، ينبغي لمن يسمعهن أن يتعلمهن**»[1].

والمقصود قوله: «**عدل فيَّ قضاؤك**»، وهذا يتناول كل قضاء يقضيه علىٰ عبده من: عقوبة أو ألم، وسبب ذلك فهو الذي قضىٰ بالسبب وقضىٰ بالمسبب، وهو عدلٌ في هذا القضاء، وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»[2].

قال العلامة ابن القيم: فسألت شيخنا: هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال:

---

(١) رواه أحمد بنحوه: (١/ ٣٩١).

(٢) سبق تخريجه ص٧٨٣.

نعم بشرطه. فأجمل في لفظة «بشرطه» ما يترتب علىٰ الذنب من الآثار المحبوبة لله: من التوبة، والانكسار، والندم، والخضوع، والذل، والبكاء وغير ذلك. اهـ[١].

[الرحمة الحقيقية]

مما ينبغي أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلىٰ العبد، وإن كرهتها نفسه وشقَّت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية؛ فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه علىٰ التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتىٰ أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهلٍ كرحمة الأم.

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء علىٰ العبد؛ فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أعراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

وقد جاء في الأثر: «**إن المبتلىٰ إذا دُعي له: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟!**». وفي أثر آخر: «**إن الله إذا أحب عبده حماه**

(١) «الفوائد» (١٣٦- ١٤٠).



الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه». فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه.

كيف وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها؟!

فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به؛ فهو الغني الحميد، ولا بخلًا منه عليهم بما نهاهم عنه؛ فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغَّص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلىٰ ذلك بسياط الابتلاء والامتحان؛ فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذَّرهم نفسه؛ لئلا يغتروا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد حذرهم من نفسه، لئلا يغتروا به. اهـ[(١)].

[ففروا إلى الله]

كيف يَسْلَم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه،

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٤٤٤، ٤٤٥).

وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمَّارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوىٰ مُرْد، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستول عليه؟ فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلَّىٰ عنه ووكله إلىٰ نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة. اهـ(١).

[التحيُّز إلى الله ورسوله ﷺ]

إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر؛ فإن ذلك يفضي إلىٰ المشاقة والمحادة، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها؛ فإن المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شق، والمحادة أن يكون حد وهو في حد.

ولا تستسهل هذا؛ فإن مبادئه تجرُّ إلىٰ غايته، وقليله يدعو إلىٰ كثيره. وكنْ في الجانب الذي يكون فيه الله ورسوله وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر؛ فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون بالجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة؛ فهناك لا تكاد تجد أحدًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يعده الناس ناقص العقل، سيئ الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلىٰ الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل؛ فإنهم نسبوهم إلىٰ الجنون لما كانوا في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر.

ولكن من وطَّن نفسه علىٰ ذلك، فإنه يحتاج إلىٰ علم راسخ بما جاء به الرسول يكون يقينًا له لا ريب عنده فيه، وإلىٰ صبر تام علىٰ معاداة من عاداه ولومة من لامه.

---

(١) «الفوائد» (٧٤).



ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار والآخرة؛ بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا وآثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وليس شيء أصعب علىٰ الإنسان من ذلك في مبادئ الأمر؛ فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلىٰ العاجل، فإذا خالفوهم تصدوا لحربه؛ فإنْ صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلًا، وذلك الألم لذة؛ فإن الرب شكور، فلا بد أن يذيقه لذة تحيزه إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، ويريه كرامة ذلك؛ فيشتد به سروره وغبطته، ويبتهج به قلبه، ويظفر بقوته وفرحه وسروره، ويبقىٰ من كان محاربًا له -علىٰ ذلك- بين هائب له، ومسالم له، ومساعد وتارك، ويقوي جنده ويضعف جند العدو.

ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلىٰ الله ورسوله ولو كنت وحدك؛ فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك.

وأعظم الأعوان لك علىٰ هذا -بعد عون الله- التجرُّد من الطمع والفزع؛ فمتىٰ تجردت منهما هانَ عليك التحيز إلىٰ الله ورسوله، وكنت دائمًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتىٰ قام بك الطمع والفزع، فلا تطمع في هذا الأمر ولا تحدث نفسك به. فإن قلتَ: فبأي شيء أستعين علىٰ التجرد من الطمع ومن الفزع؟ قلت: بالتوحيد، والتوكل، والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله ليس لأحدٍ مع الله شيء. اهـ[1].

---

(١) «الفوائد» (١٦٩، ١٧٠).

[البلاء بالسراء]

قال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون.

وقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»(١).

ولذلك حذَّر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة، وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر؛ كما في «جامع الترمذي» من حديث إسرائيل: حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا

---

(١) رواه الترمذي في (صفة القيامة والرقائق والورع)، (ح٢٤٦٤)، وقال: حديث حسن.

رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين، هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ [التغابن: ١٤] الآية. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: «**الولد مبخلة مجبنة**»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد، قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «**صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾** [التغابن: ١٥]، **نظرت إلىٰ هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتىٰ قطعت حديثي ورفعتهما**»[(٣)].

وهذا من كمال رحمته ﷺ، ولطفه بالصغار، وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

وإنما كان الصبر علىٰ السراء شديدًا؛ لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه علىٰ الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة

---

(١) رواه الترمذي في (تفسير القرآن)، باب (من سورة التغابن)، (ح٣٣١٧)، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه ابن ماجة في (الأدب)، باب (بر الولد) ... (ح٣٦٦٦).

(٣) رواه أحمد: (٥/ ٣٥٤)، والترمذي في (المناقب)، باب (مناقب الحسن والحسين)، (ح٣٧٧٤)، وقال: حسن غريب.

أصبر منه عند حضورها. اهـ[١].

[الاستدراج بالنعم]

وربما اتَّكل بعض المغترين علىٰ ما يرىٰ من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، وهذا من الغرور.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ بن غيلان، حدثنا رشدين بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد من الدنيا علىٰ معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله ﷻ:** ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]»[٢].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم علىٰ معاصيه فاحذره؛ فإنما هو استدراج منه يستدرجك به، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣- ٣٥]. وقد رد سبحانه علىٰ من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ

---

(١) «عدة الصابرين» (٨٣- ٨٥).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٥).



وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي: ليس كل من نعَّمته ووسَّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيَّقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»(١).

وقال بعض السلف: «رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، وربَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم». اهـ(٢).

[رضا العبد بطاعته]

رضاء العبد بطاعته دليل علىٰ حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الرب ﷻ ويليق أن يعامل به.

وحاصلُ ذلك أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنىٰ، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها. فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم

---

(١) لم أجده في الترمذي، وهو عند أحمد (١/ ٣٨٧).

(٢) «الداء والدواء» (٥٣، ٥٤).

أحدهم علىٰ مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالىٰ وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن: مدوا الصلاة إلىٰ السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله ﷻ.

وفي **الصحيح**: أن النبي ﷺ: كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»(١)، وأمره الله تعالىٰ بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله؛ فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

ومن هاهنا فَهِم عمر وابن عباس رضي الله عنهم أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه: «**سبحانك اللهم**

---

(١) رواه مسلم في (المساجد)، باب (استحباب الذكر بعد الصلاة)، (ح٥٩١).

وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»[١].

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جَهْل أصحاب الدعاوىٰ وشطحاتهم.

وقال بعض العارفين: متىٰ رضيتَ نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به، ومن عرف أن نفسه مأوىٰ كل عيب وشر، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضىٰ لله نفسه وعمله؟

ولله در الشيخ أبي يزيد حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوىٰ، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله. اهـ[٢].

---

(١) هما حديثان أدخل بعضهما في بعض؛ فالأول هو المعروف بكفارة المجلس؛ وهو قوله: «**سبحانك اللهم وبحمدك ... أستغفرك وأتوب إليك**». رواه الترمذي في (الدعوات)، باب (ما يقول إذا قام من المجلس)، (ح٣٤٣٣)، وقال: حسن صحيح غريب. والثاني هو قوله: «اللهم اجعلني من التوابين ...» إلخ. رواه الترمذي أيضًا في (الطهارة)، باب (فيما يقال بعد الوضوء)، (ح٥٥)، وقد أعله الترمذي بالاضطراب، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٤٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٠ - ١٨٢).

[قتل الأنبياء والأولياء كرامة لهم]

إذا أغرق الله أعداءه وأهلكهم وانتقم منهم كان هذا غاية الحكمة والعدل والمصلحة، وإن أغرق أولياءه وأهل طاعته فهو سبب من الأسباب التي نصبها لموتهم، وتخليصهم من الدنيا، والوصول إلىٰ دار كرامته، ومحل قربه. ولا بد من موت علىٰ كل حال، فاختار لهم أكمل الموتتين وأنفعهما لهم في معادهم، ليوصلهم إلىٰ درجات عالية لا تنال إلا بتلك الأسباب التي نصبها الله موصلها؛ كإيصال سائر الأسباب إلىٰ مسبباتها.

ولهذا سلط علىٰ أنبيائه وأوليائه ما سلط عليهم من القتل وأذىٰ الناس وظلمهم لهم وعدوانهم عليهم، وما ذاك لهوانهم عليه ولا لكرامة أعدائهم عليه، بل ذاك عين كرامتهم وهوان أعدائهم عليه، وسقوطهم من عينه، لينالوا بذلك ما خلقوا له من مساكنتهم في دار الهوان، وينال أولياؤه وحزبه ما هيئ لهم من الدرجات العلىٰ، والنعيم المقيم؛ فكل تسليط أعدائه وأعدائهم عليهم عين كرامتهم وعين إهانة أعدائهم.

فهذا من بعض حكمه تعالىٰ في ذلك، ووراء ذلك من الحكم ما لا تبلغه العقول والأفهام، وكان إغراقه وإهلاكه وابتلاؤه محض الحكمة والعدل في حق أعدائه، ومحض الإحسان والفضل والرحمة في حق أوليائه، فلهذا حسن منه.

ولعل الإغراق وتسليط القتل عليهم أسهل الموتتين عليهم، مع ما في ضمنه من الثواب العظيم، فيكون قد بلغ حسن اختياره لهم إلىٰ أن خفف عليهم الموتة



وأعاضهم عليها أفضل الثواب؛ فانه لا يجد الشهيد من ألم القتل إلا كمس القرصة.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تنوعت الأسباب والموت واحد

فليس إماتة أوليائه شهداء بيد أعدائه إهانة لهم، ولا غضبًا عليهم، بل كرامة ورحمة، وإحسانًا ولطفًا، وكذلك الغرق والحرق والردم والتردي والبطن وغير ذلك، والمخلوق ليس بهذه المثابة، فلهذا قبح منه الإغراق والإهلاك، وحسن من اللطيف الخبير. اهـ(١).

[النعيم لا يدرك بالنعيم]

المصالح والخيرات واللذات والكمالات كلها لا تنال إلا بحظ من المشقة، ولا يعبر إليها إلا علىٰ جسر من التعب.

كذا المعالي إذا ما رُمت تدركها ... فاعبرْ إليها علىٰ جسر من التعب

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتىٰ تلعق الصبرا

وقد أجمع عقلاء كل أمة علىٰ أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة؛ فلا فرحة لمن لا همَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلًا استراح طويلًا، وإذا تحمَّل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٨٩، ٤٩٠).

وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله.

وكلما كانت النفوس أشرف، والهمة أعلىٰ، كان تعب البدن أوفر، وحظه من الراحة أقل، كما قال المتنبي:

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــارًا   تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام

وقال ابن الرومي:

قلـــب يظـــل علـــىٰ أفكـــاره وئـــدٌ   تمضي الأمـور ونفسٌ لهوهـا التعبُ

وقال مسلم في «صحيحه»: قال يحيىٰ بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة البدن.

ولا ريب عند كل عاقل أن كمال الراحة بحسب التعب، وكمال النعيم بحسب تحمل المشاق في طريقه، وإنما تخلص الراحة واللذة والنعيم في دار السلام، فأما في هذه الدار فكلا ولمَّا... اهـ(١).

[التشديد ثم التيسير]

تأمَّل الحكمة في التشديد في أول التكليف ثم التيسير في آخره، بعد توطين النفس علىٰ العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر علىٰ عزمه وتوطين نفسه علىٰ الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه.

فمن ذلك: أمر الله تعالىٰ رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء، ثم خففها، وتصدق بجعلها خمسًا.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣٤٧، ٣٤٨).



ومن **ذلك**: أنه أمر أولًا بصبر الواحد إلىٰ العشرة، ثم خفف عنهم ذلك إلىٰ الاثنين.

ومن **ذلك**: أنه حرم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع، ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلىٰ الفجر.

ومن **ذلك**: أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله ﷺ، فلما وطنوا له أنفسهم علىٰ ذلك خففه عنهم.

ومن **ذلك**: تخفيف الاعتداد بالحول بأربعة أشهر وعشرًا.

وهذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر فقد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر؛ يشدد علىٰ العبد أولًا ثم يخفف عنه، [وحكمة] (١) تسهيل الثاني بالأول، وتلقي الثاني بالرضىٰ، وشهود المنَّة والرحمة.

وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبًا من هذا، فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جدًّا الذي ربما عجزوا عنه، ثم يحطونه إلىٰ ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذله ويسهل عليهم.

وقد يفعل بعض الحمالين قريبًا من هذا؛ فيزيدون علىٰ الحمل شيئًا لا يحتاجونه إليها، ثم يحط تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم.

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: (وحكمته)، أو: (لحكمة)، أو: (والحكمة منه) ... إذ هذا هو المقصود من الكلام، والله أعلم.

والمقصود أن هذا باب من الحكمة خلقًا وأمرًا، ويقع في الأمر والقضاء والقدر أيضًا ضد هذا؛ فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلىٰ ما هو أشد منه؛ لئلا يفجأها هذا الشديد بغتة؛ فلا تحتمله ولا تنقاد له.

وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئًا بعد شيء، دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة.

وكذلك المحرمات؛ ومن هذا: أنهم أمروا بالصلاة أولًا ركعتين ركعتين، فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر.

ومن هذا: أنهم أمروا أولًا بالصيام وخيروا فيه بين الصوم عينًا، وبين التخيير بينه وبين الفدية، فلما ألفوه أُمِروا بالصوم عينًا.

ومن هذا: أنهم أذن لهم في الجهاد أولًا من غير أن يوجب عليهم، فلما توطنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أُمِروا به فرضًا. وحكمة هذا التدريج: التربية علىٰ قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئًا فشيئًا.

وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره، يقدر علىٰ عبده بلاء لا بد له منه، اقتضاه حمده وحكمته؛ فيبتليه بالأخف أولًا، ثم يرقيه إلىٰ ما هو فوقه حتىٰ يستكمل ما كتب عليه منه.

ولهذا قد يسعىٰ العبد في أول البلاء في دفعه وزواله، ولا يزداد إلا شدة؛ لأنه كالمرض في أوله وتزايده، فالعاقل يستكين له أولًا، وينكسر ويذل لربه،



ويمد عنقه خاضعًا ذليلًا لعزته، حتىٰ إذا مر به معظمه وغمرته، وآذن ليله بالصباح، فإذا سعىٰ في زواله ساعدته الأسباب، ومن تأمل هذا في الخلق انتفع به انتفاعًا عظيمًا... ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالىٰ. اهـ[1].

[درس عظيم من قصة الذين خُلِّفوا]

في نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلَّف عنه دليل علىٰ صدقهم وكذب الباقين؛ فأراد هجرَ الصادقين وتأديبهم علىٰ هذا الذنب، وأما المنافقون فجُرمهم أعظم من أن يُقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدة فيه. وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم؛ فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنىٰ زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، أما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخلِّي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: **«إذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبدٍ شرًّا أمسك عنه عقوبته في الدنيا، فيرد يوم القيامة بذنوبه»**[2].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٥٥- ١٥٧).

(٢) رواه بنحوه الترمذي في (الزهد)، باب (الصبر علىٰ البلاء)، (ح٢٣٩٦)، وابن ماجة في (الفتن)، (ح٤٠٣١).

وفي هذا دليل أيضًا علىٰ هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه؛ إذ المراد تأديبه لا إتلافه. اهـ[1].

༺♦༻

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٨).



الفصل السابع: الجهاد

[الأعداء الثلاثة]

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقُبَّته، ومنازل أهله أعلىٰ المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا؛ فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، واستولىٰ علىٰ أنواعه كلها؛ فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة علىٰ الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا.

وأمره الله تعالىٰ بالجهاد من حين بعثه، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، فهذه سورة مكية أُمِر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن.

وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام؛ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عددًا، فهم الأعظمون عند الله قدرًا.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض؛ مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا -صلوات الله وسلامه عليه- من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا علىٰ جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**»(١)، كان جهاد النفس مقدمًا علىٰ جهاد العدو في الخارج، وأصلًا له؛ فإنه ما لم يجاهد نفسه أولًا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده، ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلىٰ عدوه حتىٰ يجاهد نفسه علىٰ الخروج. فهذان عدوان قد امتُحِنَ العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه علىٰ استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد علىٰ عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء أُمِرَ العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطت عليه امتحانًا من الله له وابتلاء، فأعطىٰ الله العبد مددًا وعدة وأعوانًا

---

(١) أخرجه أحمد بنحوه (٦/ ٢١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١١) وصححه، ووافقه الذهبي.

وسلاحًا لهذا الجهاد، وأعطىٰ أعداءه مددًا وعدة وأعوانًا وسلاحًا، وبلا أحد الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه ويتولىٰ رسله ممن يتولىٰ الشيطان وحزبه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]، فأعطىٰ عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوىٰ، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدهم بملائكته وقال لهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم علىٰ حرب عدوهم، وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين علىٰ عدوه وعدوهم، وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أُمِروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يؤيسهم، ولم يقنطهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلىٰ مناهضة عدوهم، فينصرهم عليهم، ويظفرهم بهم، فأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين، وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا علىٰ عدوهم، ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم واجتاحهم. وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلىٰ قدره؛ فإن قوي الإيمان قويت المدافعة، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب

نهيه؛ فإنه يعد الأماني، ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهىٰ عن التقىٰ والهدىٰ والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله؛ لتكون كلمة الله هي العليا. اهـ[1].

[الجهاد امتحان وابتلاء]

الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذىٰ والعذاب، تارة منهم وتارة من غيرهم؛ كمن عنده دين وتقىٰ حل بين قوم فُجَّار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم، سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذىٰ أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب علىٰ يد غيرهم؛ فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «من أرضىٰ الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضىٰ الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا».

ومن تأمل أحوال العالم رأىٰ هذا كثيرًا، فيمن يعين الرؤساء علىٰ أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع علىٰ بدعهم هربًا من عقوبتهم؛ فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة علىٰ فعل المحرم، وصبر علىٰ عدوانهم، ثم

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥ - ٨).



تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار، ومن ابتُلي من العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه ألبتة، عزَّىٰ الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع علىٰ الألم العظيم المستمر، بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥]، فضرب لمدة هذا الألم أجلًا لا بد أن يأتي، وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمَّل من الألم من أجله وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله. وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه إلىٰ لقاء ربه ووليه علىٰ تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيَّبه الشوق إلىٰ لقائه عن شهود الألم والإحساس به، ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلىٰ لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «**اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، وأسألك الشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»(١).

فالشوق يحمل المشتاق علىٰ الجد في السير إلىٰ محبوبه، ويقرب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها علىٰ

(١) أخرجه النسائي في (السهو)، باب (نوع آخر)، (ح٥٥)، وابن حبان (ح٥٠٩)، وهو في المسند أيضًا (٤/ ٢٦٤).

عبده، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه، فتصلح عنده هذه النعمة، ويصلح بها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ علىٰ نفسه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

ثم عزَّاهم تعالىٰ بعزاء آخر؛ وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه سبحانه، ثم أخبر أنَّه يُدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين.

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله؛ وهي أذاهم له، ونيلُهم إياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم وتركه السبب الذي ناله، كعذاب الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان؛ فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلىٰ الإيمان، وتحمَّلوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته، فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلىٰ موافقتهم ومتابعتهم، ففرَّ من ألم عذابهم إلىٰ ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، وغُبِنَ كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفرَّ من ألم ساعة إلىٰ ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوىٰ عليه صدره من النفاق.

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته، ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له، ويخلصها بكير الامتحان؛ كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلىٰ السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة. اهـ[1].

[مراتب الجهاد]

الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها علىٰ تعلم الهدىٰ ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتىٰ فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها علىٰ العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها علىٰ الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٥- ١٨).

يكتمون ما أنزل الله من الهدىٰ والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها علىٰ الصبر علىٰ مشاق الدعوة إلىٰ الله وأذىٰ الخلق، ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين؛ فإن السلف مجمعون علىٰ أن العالم لا يستحق أن يُسمىٰ ربانيًّا حتىٰ يعرف الحق، ويعمل به ويعلمه، فمن علِم وعمل وعلَّم فذاك يدعىٰ عظيمًا في ملكوت السماوات.

وأما جهاد الشيطان: فمرتبتان: **إحداهما**: جهاده علىٰ دفع ما يُلقي إلىٰ العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده علىٰ دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات؛ فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني: يكون بَعدَه الصبر؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبر أن إمامة الدين إنما تُنال بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب: **الأولىٰ**: باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلىٰ اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه، فهذه ثلاث عشرة مرتبة من الجهاد، و«**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات علىٰ شعبة من النفاق**»[1]. اهـ[2].

---

(١) رواه بنحوه مسلم في (الإمارة)، (ح١٩١٠).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٩- ١١).



[فضل المجاهدين]

المجاهدون في سبيل الله هم جند الله الذين يقيم بهم دينه، ويدفع لهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم بيضة الإسلام، ويحمي بهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا؛ قد بذلوا أنفسهم في محبة الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ودفع أعدائه، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها وإن باتوا في ديارهم، ولهم مثل أجور من عبدَ الله بسبب جهادهم وفتوحهم؛ فإنهم كانوا هم السبب فيه. والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر، ولهذا كان الداعي إلىٰ الهدىٰ والداعي إلىٰ الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تبعه. وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السُّنة علىٰ الترغيب في الجهاد والحض عليه، ومدح أهله، والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات، ويكفي في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصف: ١٠]، فتشوقت النفوس إلىٰ هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم، فقال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصف: ١١]، فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة، فكأنها قالت: فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ ، مع المغفرة ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾، فكأنها قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣] فلله ما أحلىٰ هذه الألفاظ، وما ألصقها بالقلوب، وما أعظمها جذبًا لها وتسييرًا إلىٰ ربها، وما ألطف موقعها من قلب كل محب، وما أعظم غنىٰ القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها، فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم. ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٩- ٢٢]، فأخبر ﷻ أنه لا يستوي عنده عُمَّار المسجد الحرام -وهم عُمَّاره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن- وأهل سقاية الحاج؛ لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفىٰ التسوية بين المجاهدين وعمَّار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه علىٰ عُمَّاره بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]، فهؤلاء هم عمَّار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم. اهـ[1].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٣٥٥، ٣٥٦).



[أغلى العقود]

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]، فجعل سبحانه هاهنا الجنة ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكَّده بأنواع من التأكيد:

أحدها: إخباره به سبحانه بصيغة الخبر المؤكد بأداة إنَّ.

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلىٰ نفسه سبحانه، وأنه هو الذي اشترىٰ هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدًا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتىٰ بصيغة (علىٰ) التي للوجوب، إعلامًا لعباده بأن ذلك حق عليه أحقَّه هو علىٰ نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقًّا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفىٰ بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه سبحانه أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضًا بشارة من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار، ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخبارًا مؤكَّدًا بأن ذلك البيع الذي بايعوا به هو الفوز العظيم، والبيع هاهنا بمعنىٰ المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن، وهو الجنة.

وقوله: ﴿بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ أي: عاوضتم وثامنتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذين وقع لهم العقد، وتمَّ لهم دون غيرهم، وهم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ مما يكره، ﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ له بما يحب، ﴿ٱلۡحَـٰمِدُونَ﴾ له علىٰ ما يحبون وما يكرهون، ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وفسرت السياحة: بالصيام، وفسرت: بالسفر في طلب العلم، وفسرت: بالجهاد، وفسرت: بدوام الطاعة، والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته، والإنابة إليه، والشوق إلىٰ لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن، بأنهن ﴿سَـٰٓئِحَـٰتٖ﴾ [التحريم: ٥]، وليست سياحتهن جهادًا، ولا سفرًا في طلب علم، ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالىٰ وخشيته، والإنابة إليه وذكره.

وتأملْ كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين؛ هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتين؛ هذا الثناء عليه بأوصاف كماله

وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله.

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج، فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب.

وجعل الإسلام والإيمان قرينتين؛ فهذا علانية، وهذا في القلب، كما في «المسند» عنه ﷺ: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»(١).

وجعل القنوت والتوبة قرينتين؛ فهذا فعل ما يحب، وهذا ترك ما يكره.

وجعل الثيوبة والبكارة قرينتين؛ فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبتها، وهذه روضة أُنُفٌ لم يُرتع فيها بعد.

وجعل الركوع والسجود قرينين، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينين، وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم؛ إعلامًا بأن أحدهما لا يكفي حتىٰ يكون مع الآخر، وجعل ذلك قرينًا لحفظ حدوده، فهذا حفظها في نفس الإنسان، وذلك أمر غيره بحفظها.

وأفهمت الآية: خطر النفس الإنسانية وشرفها، وعظم مقدارها؛ فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلىٰ المشتري لها من هو؟ وانظر إلىٰ الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلىٰ ما جرىٰ علىٰ يده عقد التبايع، فالسلعة النفس، والله سبحانه المشتري لها، والثمن جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة، وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر، وأكرمهم عليه:

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٤، ١٣٥).

قَـد هيئـوك لأمـرٍ لـو فطنـتَ لـه ... فاربـأ بنفسـك أن تَرعـىٰ مـع الهَمَـل

. اهـ(١).

[مهر المحبة والجنة]

جنس **الجهاد فرض عين**: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلىٰ كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان: والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١]، وعلق النجاة من النار به ومغفرة الذنب، ودخول الجنة، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠- ١٢]، وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب، فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾ [الصف: ١٣] أي: ولكم خصلة أخرىٰ تحبونها في الجهاد، وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ﴾ [الصف: ١٣]، وأخبر سبحانه أنه: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل

---

(١) «حادي الأرواح» (١١٩- ١٢١).

كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم. فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع، ما أعظم خطره وأجله؛ فإن الله ﷻ هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك. والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المُدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادَّعى الخلي حرفة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن

نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد؛ فإن ﴿ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأىٰ التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرىٰ عقد التبايع علىٰ يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقىٰ تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضًا واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن. تأمل قصة جابر بن عبد الله وقد اشترىٰ منه ﷺ بعيره، ثم وفَّاه الثمن وزاده، ورد عليه البعير، وكان أبوه قد قتل مع النبي ﷺ في وقعة أحد، فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره: «**أن الله أحياه، وكلمه كفاحًا، وقال: يا عبدي تمن علي**»[1]، فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق؛ فقد أعطىٰ السلعة، وأعطىٰ الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع علىٰ عيبه، وأعاض عليه أجل الأثمان، واشترىٰ عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن

---

(١) رواه الترمذي في (التفسير)، باب (من سورة آل عمران)، (ح٣٠١٠)، وابن ماجة في (الجهاد)، (ح٢٨٠٠).



والمثمن، وأثنىٰ عليه ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له وشاءه منه.

لقد حرك الداعي إلىٰ الله، وإلىٰ دار السلام النفوس الأبية، والهمم العالية، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع الله من كان حيًّا، فهزه السماع إلىٰ منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حطت به رحاله إلا بدار القرار، فقال: **«انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق علىٰ أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل»**. اهـ(١)(٢).

[عوامل النصر الخمسة]

قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال ٤٥، ٤٦]، فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئة قط إلا نُصرت، وإن قلَّت وكثر عدوها:

أحدها: الثبات. والثاني: كثرة ذكره ﷻ.

الثالث: طاعته وطاعة رسوله.

الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن؛ وهو جند

---

(١) رواه البخاري في (الإيمان)، باب (الجهاد من الإيمان)، (ح٣٦)، ومسلم بنحوه في (الإيمان)، (ح١٨٧٦).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٧٢- ٧٦).

يُقوِّي به المتنازعون عدوهم عليهم؛ فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام، لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها.

الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه؛ وهو الصبر.

فهذه خمسة أشياء تُبتنىٰ عليها قبة النصر، ومتىٰ زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوَّىٰ بعضها بعضًا، وصار لها أثر عظيم في النصر، ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم، وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد والبلاد؛ ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلىٰ ما آل.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المستعان، وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل. اهـ[(١)].

[الجهاد علاج الهم والغم]

تأثير الجهاد في دفع الهم والغم أمر معلوم بالوجدان؛ فإن النفس متىٰ تركت صائلَ الباطل وصولته واستيلاءه اشتد همها، وغمها، وكربها، وخوفها؛ فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحًا ونشاطًا وقوة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فلا شيء أذهب لجوىٰ القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد. اهـ[(٢)].

---

(١) «الفروسية» (٣٢٦، ٣٢٧).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٢١٠).



[دروس من غزوة أُحُد]

منها: تعريفهم -أي الصحابة- سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظة، وتحرزًا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرىٰ، لكن تكون لهم العاقبة؛ فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتُصر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة؛ فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق، وما جاءوا به ممن يتبعهم علىٰ الظهور والغلبة خاصة...

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فإن المسلمين لما أظهرهم الله علىٰ أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمة الله ﷻ أن سبَّب لعباده محنة ميزت بين

المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلىٰ كافر ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوًّا في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي: ما كان الله ليذركم علىٰ ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتىٰ يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء؛ فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزًا مشهودًا، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه علىٰ الغيب سوىٰ الرسل؛ فإنه يُطلعهم علىٰ ما يشاء من غيبه، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم فلكم أعظم الأجر والكرامة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا علىٰ الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله علىٰ حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن،

وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدًا لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته؛ إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر؛ فإنَّ خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥] فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره، كسره أولًا، ويكون جبره له ونصره علىٰ مقدار ذله وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنىٰ طغيانًا وركونًا إلىٰ العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلىٰ الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته، قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه

العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتىٰ يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلىٰ مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء؛ تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه علىٰ نفوسهم، ولا سبيل إلىٰ نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم: بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذىٰ أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر ﷻ ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠]، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب؛ كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ



يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حاضر، يقسمها دولًا بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة؛ فإن عِزَّها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرىٰ وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب علىٰ المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

ثم ذكر حكمة أخرىٰ؛ وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء؛ فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلىٰ المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠] تنبيه لطيف الموقع جدًّا علىٰ كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد، فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء؛ لأنه لم يحبهم، فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمة أخرىٰ فيما أصابهم ذلك اليوم؛ وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضًا فإنه خلَّصهم، ومحصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرىٰ؛ وهي محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر علىٰ أذىٰ أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر علىٰ من ظنه وحسبه؛ فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢] أي: ولما يقع ذلك منكم فيعلمه؛ فإنه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء علىٰ الواقع المعلوم، لا علىٰ مجرد العلم؛ فإن الله لا يجزي العبد علىٰ مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه، ثم وبخهم علىٰ هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولما أخبرهم الله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣]. اهـ[1].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢١٨- ٢٢٤).



[واجبات منسية]

لله تبارك وتعالىٰ علىٰ عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما:

أحدهما: أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه؛ فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلىٰ عفو الله ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبئون منها الا بما شاركهم فيه عموم الناس. وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلًا عن أن يريدوا فعلها، وفضلًا عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلىٰ الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلَّ أن ترىٰ منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالًا عند الله من هؤلاء.

وقد ذكر أبو عمر وغيره: «أن الله تعالىٰ أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب، إن فيهم فلانًا العابد الزاهد، قال: به فابدأ، وأسمعني صوته؛ إنه لم يتمعر وجهُه فيَّ في يوم قط». اهـ[1].

---

(١) «عدة الصابرين» (٢٠٣، ٢٠٤).



الفصل الثامن: الدعاء

[هل يرد الدعاء القدر؟]

سؤال مشهور؛ وهو: أن المدعو به إن كان قُدِّر لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قدر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء، وقالت: لا فائدة فيه! وهؤلاء -مع فرط جهلهم وضلالهم- متناقضون؛ فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قُدِّرا لك فلا بدَّ من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، وإن لم يقدرا لم يقعا، أكلت أو لم تأكل. وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة والأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن، فلا حاجة إلىٰ التزوج والتسري. وهلم جرا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور علىٰ مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته؛ فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا.

وتكايس بعضهم، وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما. ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في

حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أخرىٰ أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمارة علىٰ قضاء الحاجة؛ فمتىٰ وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة علىٰ أن حاجته قد انقضت. وهذا كما إذا رأينا غيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة علىٰ أنه يمطر. قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له...

والصواب أن هاهنا قسمًا ثالثًا غير ما ذكره السائل؛ وهو أن هذا المقدور قُدِّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدَّر مجردًا عن سببه، ولكن قُدر بسببه، فمتىٰ أتىٰ العبد بالسبب وقع المقدور، ومتىٰ لم يأت بالسبب انتفىٰ المقدور. وهكذا كما قُدر الشبع والري بالأكل والشرب، وقُدر الولد بالوطء، وقُدر حصول الزرع بالبذر، وقُدر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قُدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق، وهو الذي حُرِمَه السائل ولم يوفق له.

وحينئذ فالدعاء من أقوىٰ الأسباب، فإذا قُدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ، وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يستنصر به علىٰ عدوه، وكان أعظم جنديه، وكان يقول لأصحابه: «لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء». وكان يقول: «إني لا أحمل همَّ الإجابة معه، ولكن هم الدعاء، فإن أُلهمتم الدعاء فإن الإجابة معه». وأخذ الشاعر هذا المعنىٰ فنظمه، فقال:

لو لم تُرِد نيل ما أرجو وأطلبه … من جود كفك ما عودتني الطلبا

فمن أُلهم الدعاء فقد أريد به الإجابة؛ فإن الله سبحانه يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي سنن ابن ماجة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(١).

وهذا يدل علىٰ أن رضاءه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الرب تبارك وتعالىٰ فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه.

وقد دل العقل والنقل والفطر وتجارب الأمم -علىٰ اختلاف أجناسها ومللها ونحلها- علىٰ أن التقرب إلىٰ رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلىٰ خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر؛ فما استجلبت نعم الله تعالىٰ واستدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلىٰ خلقه.

---

(١) أخرجه بلفظه الترمذي في (الدعوات)، (ح٣٣٧٣)، وبنحوه ابن ماجة في الدعاء، (ح٣٨٢٧).

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه علىٰ الأعمال؛ ترتب الجزاء علىٰ الشرط، والمعلول علىٰ العلة، والمسبب علىٰ السبب، وهذا في القرآن يزيد علىٰ ألف موضع...

ومن تفقَّه هذه المسألة، وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل علىٰ القدر جهلًا منه وعجزًا وتفريطًا وإضاعة؛ فيكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا. بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك؛ فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء؛ فربُّ الدارين واحد، وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا. فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقىٰ عليه أمران، بهما تتم سعادته وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جربه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن؛ فإنه كفيل بذلك علىٰ أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة، ثم السنة؛ فإنها شقيقة القرآن،



وهي الوحي الثاني. ومن صرف إليهما عنايته اكتفىٰ بهما عن غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتىٰ كأنك تعاين ذلك عيانًا.

بعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك علىٰ أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة؛ فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرَّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

الأمر الثاني: أن يحذر مغالطة نفسه علىٰ هذه الأسباب. وهذا من أهم الأمور؛ فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال علىٰ عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة، وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرىٰ. اهـ[١].

[إخفاء الدعاء]

قول الله تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء[٢]، لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة؛ ولهذا أمر بإخفائه وإسراره، قال الحسن: «بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد

(١) «الداء والدواء» (٢٦ - ٣٢).

(٢) يعني بذلك: دعاء العبادة والذكر والثناء، ودعاء الطلب والمسألة.

كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وأن الله تعالىٰ ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله تعالىٰ يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: «إن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا».

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخفىٰ عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلىٰ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده؛ فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتىٰ إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته، وكسرته وضراعته، إلىٰ أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق؛ فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتىٰ معها رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ في الدعاء؛ فإنَّ رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته

وقصده للمدعو ﷻ.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًّا أنه دال علىٰ قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأل مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

ولهذا أثنىٰ الله سبحانه علىٰ عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، فكلما استحضر القلب قرب الله تعالىٰ منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك أخفىٰ دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفي كلامه، فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه.

ولله المثل الأعلىٰ سبحانه، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا المعنىٰ بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: «**اربعوا علىٰ أنفسكم؛ إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته**»[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]». وهذا يدل علىٰ إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت؛ فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا بأن ربهم

---

(١) رواه بنحوه البخاري في عدة مواضع منها كتاب (المغازي)، (ح٤٢٠٥)، ومسلم في (الذكر والدعاء)، (ح٢٧٠٤).

تبارك وتعالىٰ قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلىٰ النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي. وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده.

وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد؛ كما قال النبي ﷺ راويًا عن ربه تبارك وتعالىٰ: «**من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا**»(١). فهذا قربه من عابده.

وأما قربه من داعيه وسائله، فكما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربه تبارك وتعالىٰ من محبه فنوع آخر، وبناء آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرنا في كتاب (التحفة المكية)، علىٰ أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصِّل في القلب حقيقة معناه أبدًا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزل قدم بعد ثبوتها. وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام، وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح، وقابلهم من غلظ حجابه فأنكر محبة العبد لربه جملة، وقربه منه، وأعاد ذلك إلىٰ مجرد الثواب المخلوق، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا.

---

(١) رواه بلفظه مسلم من حديث أبي ذر في (الذكر والدعاء)، (ح٢٦٨٧)، وبنحوه رواه البخاري أيضًا من حديث أبي هريرة في (التوحيد)، (ح٧٥٣٧).



وقد ذكرنا من طرق الرد علىٰ هؤلاء وهؤلاء في كتاب (التحفة) أكثر من مائة طريق، والمقصود هاهنا الكلام علىٰ هذه الآية.

سابعها: أنه أدعىٰ إلىٰ دوام الطلب والسؤال؛ فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته به، فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته؛ فإنه لا يطول له ذلك، بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات؛ فإن الداعي إذا أخفىٰ دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفىٰ، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعم الإقبال علىٰ الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد علىٰ قدرها -دقت أو جلت- ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وألا يقصد إظهارها له.

وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: ٥] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وألا يطلعوا عليه أحدًا،

ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدىٰ السر مجتهدًا ... لم يأمنوه علىٰ الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مذيعًا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته، والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه، بحيث لا يخشىٰ عليه من العواصف، فإنه إذا أبدىٰ حاله وشأنه مع الله ليُقتدىٰ به ويؤتم به لم يبال. وهذا باب عظيم النفع، وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال علىٰ الله، فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وصفاته؛ فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: «**أفضل الدعاء: الحمد لله**»[1] فسمي الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلىٰ أنواع الطلب للمحبوب؛ فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمىٰ داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا

(١) رواه الترمذي في (الدعوات)، باب (دعوة المسلم مستجابة)، (ح٣٣٨٣)، وقال: حسن غريب، وابن ماجة في (الأدب)، (ح٣٨٠٠).



الموضع ولا تحتاج إلىٰ ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال، وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنىٰ عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

وعلىٰ هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمىٰ دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه، والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فأمر تعالىٰ نبيه أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح. وقد تقدم حديث أبي موسىٰ: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: «**يا أيها الناس، اربعوا علىٰ أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته**»(١). وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فذكر التضرع فيهما معًا؛ وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء. وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها. اهـ(٢).

---

(١) سبق تخريجه ص٨٥٩.

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ٧- ١١).

[كيد إبليس للأبوين]

فقد قص الله سبحانه علينا قصته معهما، وأنه لم يزل يخدعهما، ويعدهما، ويمنيهما الخلود في الجنة، حتىٰ حلف لهما بالله جهد يمينه: إنه ناصح لهما، حتىٰ اطمأنا إلىٰ قوله، وأجاباه إلىٰ ما طلب منهما، فجرىٰ عليهما من المحنة والخروج من الجنة ونزع لباسهما عنهما ما جرىٰ، وكان ذلك بكيده ومكره الذي جرىٰ به القلم، وسبق به القدر، ورد الله سبحانه كيده عليه، وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته، فأعادهما إلىٰ الجنة علىٰ أحسن الأحوال وأجملها، وعاد عاقبة مكره عليه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وظن عدو الله بجهله أن الغلبة والظفر له في هذه الحرب، ولم يعلم بكمين جيش: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولا بإقبال دولة: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢].

وظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلىٰ عن صفيه وحبيبه -الذي خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء- من أجل أكلة أكلها.

وما علم أن الطبيب قد عَلَّم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحس بالمرض بادر إلىٰ استعمال الدواء؛ لما رماه العدو وبسهم وقع في غير مقتل، فبادر إلىٰ مداواة الجرح، فقام كأن لم يكن به قلبة.



وبُلي العدو بالذنب فأصر واحتج وعارض الأمر، وقدح في الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولا ندم علىٰ الزلة. وبلي الحبيب بالذنب فاعترف وتاب وندم، وتضرع واستكان وفزع إلىٰ مفزع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العتب، وغفر له الذنب، وقبل منه المتاب، وفُتح له من الرحمة والهداية كل باب. ونحن الأبناء، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدي لأحسن الشيم. اهـ[1].

[موانع استجابة الدعاء]

الدعاء من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه؛ إما لضعفه في نفسه -بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان- وإما لضعف القلب وعدم إقباله علىٰ الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، ورين الذنوب علىٰ القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو، وغلبتها عليها؛ كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه**»[2]، فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها؛ كما في صحيح مسلم من حديث أبي

(١) «إغاثة اللهفان» (٥٧١، ٥٧٢).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٧٠)، والترمذي في (الدعوات)، باب (جامع الدعوات عن النبي ﷺ)، (ح٣٤٧٩)، وبنحوه رواه أحمد (٢/ ١٧٧).

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلىٰ السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنىٰ يستجاب لذلك؟»(١).

وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: «أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحىٰ الله ﷻ إلىٰ نبيهم أن أخبرهم: إنكم تخرجون إلىٰ الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إلي أكفًّا قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم؟ ولن تزدادوا مني إلا بعدًا».

وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البر، ما يكفي الطعام من الملح. اهـ(٢).

[إجابة الدعاء هل هي كرامة؟]

من الناس من هو معرض عن عبادة الله وعن الاستعانة به؛ فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلىٰ حظوظه وشهواته، لا علىٰ مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمد هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه إليه عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها،

---

(١) رواه مسلم في (الزكاة)، باب (قبول الصدقة من الكسب الطيب)، (ح١٠١٥).

(٢) «الداء والدواء» (١٦، ١٧).



ومتَّعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا له علىٰ مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به علىٰ أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا علىٰ طاعته كان مُبْعِدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤه له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا، لا بخلًا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن -بجهله- أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان علىٰ نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله علىٰ الأقدار، وعتابه الباطن لها؛ كما قيل:

وعاجز الرأي مِضياع لفرصته ... حتىٰ إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأىٰ هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إلي؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذرْ كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خِيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدًّا، فعلقه علىٰ شرط علمه تعالىٰ فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلىٰ تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكِل إلىٰ نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عونًا لك علىٰ طاعته وبلاغًا إلىٰ مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطىٰ لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط؟

فردَّ الله سبحانه علىٰ من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: «لم أبتل عبدي بالغنىٰ لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي». فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران علىٰ المال وسعة الرزق وتقديره؛ فإنه سبحانه يوسع علىٰ الكافر لا لكرامته، ويقتر علىٰ المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد علىٰ هذا وعلىٰ هذا، وهو الغني الحميد، فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]. اهـ[١].

❀♦❀

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩١- ٩٣).



الفصل التاسع: عوائق

[عوائق في الطريق]

إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولًا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتلي بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته ونحو ذلك؛ فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا؛ فإن وقف مع ذلك انقطع به المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظرًا إلى مراد الله منه وما يحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره. فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء ألبتة... وبالله التوفيق. اهـ[1].

---

(١) «الفوائد» (٢٤٧، ٢٤٨).

[موانع اتباع الحق]

السبب الأول: ضعف معرفته بذلك.

السبب الثاني: عدم الأهلية، وقد تكون معرفته به تامة، لكن يكون مشروطًا بزكاة المحل، وقبوله للتزكية، فإذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التي لا تخالطها الماء؛ فإنه يمتنع النبات منها لعدم اهليتها وقبولها، فإذا كان القلب قاسيًا حجريًّا لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر، وبذر فيها كل بذر، كما قال تعالىٰ في هذا الصنف من الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فإذا كان القلب قاسيًا غليظًا جافيًا لا يعمل فيه العلم شيئًا، وكذلك إذا كان مريضًا مهينًا مائيًّا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم.

السبب الثالث: قيام مانع؛ وهو إما حسد أو كبر، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله...

السبب الرابع: مانع الرياسة والملك، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته، فيضن بملكه ورياسته؛ كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطنًا، وأحبوا الدخول في دينه؛ لكنهم خافوا علىٰ ملكهم!



وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة، وقلَّ من نجا منه إلا من عصم الله، وهو داء فرعون وقومه، ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧]، أنِفُوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسىٰ وهارون وينقادوا لهما، وبنو إسرائيل عبيد لهم.

ولهذا قيل: إن فرعون لما أراد متابعة موسىٰ وتصديقه شاور هامان وزيره فقال: بينما أنت إله تعبد تصير عبدًا تعبد غيرك! فأبىٰ العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال!

السبب الخامس: مانع الشهوة والمال؛ وهو الذي منع كثيرًا من أهل الكتاب من الإيمان خوفًا من بطلان مأكلهم وأموالهم التي تصير اليهم من قومهم، وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته، فيدخلون عليه منها، فكانوا يقولون لمن يحب الزنىٰ والفواحش: إن محمدًا يحرم الزنىٰ، ويحرم الخمر. وبه صدوا الأعشىٰ الشاعر عن الإسلام...

السبب السادس: محبة الأهل والأقارب والعشيرة؛ يرىٰ أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم.

وهذا سبب بقاء خلف كثير علىٰ الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم.

السبب السابع: محبة الدار والوطن؛ وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب، لكن يرىٰ أن في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلىٰ دار الغربة والنوىٰ فيضن بوطنه وداره.

السبب الثامن: من تخيل أن في الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعنًا منه علىٰ آبائه وأجداده وذمًّا لهم، وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام؛ استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك، وضللوا عقولهم، ورموهم بأقبح القبائح؛ وهو الكفر والشرك...

السبب التاسع: متابعة من يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلىٰ الدخول في دينه، وتخصيصه، وقربه منه.

وهذا القدر منع خلقًا كثيرًا من اتباع الهدىٰ؛ يكون للرجل عدو ويبغض مكانه، ولا يحب أرضًا يمشي عليها ويقصد مخالفته ومناقضته، فيراه قد اتبع الحق، **فيحمله قصد مناقضته ومعاداته علىٰ معاداة الحق وأهله**، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم.

هذا كما جرىٰ لليهود مع الأنصار؛ فإنهم كانوا أعداءهم، وكانوا يتواعدونهم بخروج النبي ﷺ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه، فلما بدرهم إليه الأنصار وأسلموا حملهم معاداتهم علىٰ البقاء علىٰ كفرهم ويهوديتهم.

السبب العاشر: **مانع الإلف والعادة والمنشأ**؛ فإن العادة قد تقوىٰ حتىٰ تغلب حكم الطبيعة، ولهذا قيل: هي طبيعة ثانية، فيربَّىٰ الرجل علىٰ المقالة، وينشأ عليها صغيرًا، فيتربىٰ قلبه ونفسه عليها، كما يتربىٰ لحمه وعظمه علىٰ الغذاء المعتاد، ولا يعقل نفسه إلا عليها، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه، وأن يسكن موضعها، فيعسر عليه الانتقال، ويصعب عليه الزوال.



وهذا السبب -وإن كان أضعف الأسباب معنىٰ- فهو أغلبها علىٰ الأمم وأرباب المقالات والنحل، ليس مع أكثرهم -بل جميعهم- إلا ما عسىٰ أن يشذ إلا عادة ومربي تربىٰ عليه طفلًا، لا يعرف غيرها، ولا يحسن به، فدين العوايد هو الغالب علىٰ أكثر الناس، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلىٰ طبيعة ثانية.

فصلوات الله وسلامه علىٰ أنبيائه ورسله، خصوصًا علىٰ خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، كيف غيَّروا عوائد الأمم الباطلة ونقلوهم إلىٰ الإيمان حتىٰ استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عاداتهم وطبيعتهم الفاسدة.

ولا يعلم مشقة هذا علىٰ النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلىٰ الحق، فجزىٰ الله المرسلين أفضل ما جزىٰ به أحدًا من العالمين. اهـ[1].

[فتنة التقليد والتعصب للمذاهب]

خلف من بعدهم -[أي: التابعين والأئمة]- خلوف، ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، وكل إلىٰ ربهم راجعون، جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون، ورءوس أموالهم التي بها يتجرون، وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب، ولسان الحق يتلو عليهم: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٣٥- ٣٤٠).

قال الشافعي -قدس الله تعالىٰ روحه-: «أجمع المسلمون علىٰ أن من استبانت له سُنة رسول الله ﷺ؛ لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ من الناس».

قال أبو عمر وغيره من العلماء: «أجمع الناس علىٰ أن المقلد ليس معدودًا من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله». وهذا كما قال أبو عمر -رحمه الله تعالىٰ- فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليده.

فقد تضمن هذان الإجماعان: إخراج المتعصب بالهوىٰ، والمقلد الأعمىٰ عن زمرة العلماء، وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من وراثة الأنبياء.

فإن العلماء هم ورثة الأنبياء؛ فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في ردِّ ما جاء به إلىٰ قول مقلده ومتبوعه، ويضيع [عليه] ساعات عمره في التعصب والهوىٰ، ولا يشعر بتضييعه؟!

تالله إنها فتنة عمَّت فأعْمَت، ورمت القلوب فأصمت، ربَا عليها الصغير، وهرم فيها الكبير، واتُّخِذَ لأجلها القرآن مهجورًا، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطورًا، ولما عمَّتْ بها البلية، وعظمت بسببها الرزية، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها، ولا يعدون العلم إلا إياها، فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون، ومؤثره علىٰ ما سواه عندهم مغبون، نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل، وبَغَوا له الغوائل، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد، وقالوا لإخوانهم: إنا نخاف أن يبدل دينكم أو



أن يظهر في الأرض الفساد. فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة ألا يلتفت إلىٰ هؤلاء، ولا يرضىٰ لها بما لديهم، وإذا رُفِع له علم السنة النبوية شمَّر إليه، ولم يحبس نفْسَه عليهم، فما هي إلا ساعة حتىٰ يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، وتتساوىٰ أقدام الخلائق في القيام لله، وينظر كل عبد ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم، وسنة نبيهم أنهم كانوا كاذبين. اهـ(١).

[فتنة الشبهات والسلامة منها]

والفتنة نوعان: فتنة الشبهات -وهي أعظم الفتنتين- وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما:

ففتنة الشبهات: من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوىٰ؛ فهنالك الفتنة العظمىٰ، والمصيبة الكبرىٰ، فقل ما شئت في ضلال سيئ القصد، الحاكم عليه الهوىٰ لا الهدىٰ، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوىٰ يضل عن سبيل الله، فقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٧، ٨).

وهذه الفتنة مآلها إلىٰ الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، علىٰ حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدىٰ بالضلال.

ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقىٰ عنه حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يثبته الله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقىٰ عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكوات ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولًا في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يُتَلقىٰ إلا عنه، ولا يؤخذ إلا منه، فالهدىٰ كله دائر علىٰ أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال. فإذا عقد قلبه علىٰ ذلك، وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قَبِلَه، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه ردَّه، ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق فائت خفي علىٰ الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوىٰ متبع، فهي من عمىٰ في البصيرة، وفساد في الإرادة. اهـ[1].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٥٣٤، ٥٣٥).

[آفتان عظيمتان]

حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأسًا، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم علىٰ رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك؛ قال تعالىٰ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨٣]، فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فلتهنه السلامة. اهـ[1].

[أنا، لي، عندي]

ليحذر كل الحذر من طغيان «أنا»، «ولي»، «وعندي»؛ فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتُلي بها إبليس وفرعون وقارون: فـ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] لإبليس، و﴿لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٥٣).

[القصص: ٧٨] لقارون. وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف، ونحوه. «ولي» في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل، «وعندي» في قوله: **«اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»**. اهـ(١).

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٧٥).



الفصل العاشر: ضوابط منهجية

[سَدُّ الذرائع]

الدلالة عليها من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فحرَّم الله تعالىٰ سب آلهة المشركين -مع كون السب غيظًا وحمية لله وإهانة لآلهتهم- لكونه ذريعة إلىٰ سبهم الله تعالىٰ، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالىٰ أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز.

الوجه الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فمنعهن من الضرب بالأرجل، وإن كان جائزًا في نفسه؛ لئلا يكون سببًا إلىٰ سَمْع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

الوجه الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨]؛ أمر تعالىٰ مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة لئلا يكون دخولهم هجمًا بغير استئذان فيها ذريعة إلىٰ اطلاعهم علىٰ عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في

تركه هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة.

الوجه الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة -مع قصدهم بها الخير- لئلا يكون قولهم ذريعة إلىٰ التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم؛ فإنهم كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويقصدون بها السبَّ، ويقصدون فاعلًا من الرعونة، فنُهي المسلمون عن قولها سدًّا لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلىٰ أن يقولها اليهود للنبي ﷺ تشبهًا بالمسلمين، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون، ولئلا يُخاطَب بلفظ يحتمل معنىٰ فاسدًا.

الوجه الخامس: قوله تعالىٰ لكليمه موسىٰ وأخيه هارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] فأمر تعالىٰ أن يلينا القول لأعظم أعدائه وأشدهم كفرًا وأعتاهم عليه؛ لئلا يكون إغلاظ القول له مع أنه حقيق به ذريعة إلىٰ تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة، فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالىٰ.

الوجه السادس: أنه تعالىٰ نهىٰ المؤمنين في مكة عن الانتصار باليد، وأمرهم بالعفو والصفح؛ لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلىٰ وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضَّيم، ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة علىٰ مصلحة الانتصار والمقابلة.

الوجه السابع: أنه تعالىٰ نهىٰ عن البيع وقت نداء الجمعة؛ لئلا يتخذ ذريعة



إلىٰ التشاغل بالتجارة عن حضورها.

الوجه الثامن: ما رواه حميد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[١] متفق عليه.

ولفظ البخاري: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قيل: يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[٢].

فجعله رسول الله ﷺ سابًّا لاعنًا لأبويه بتسببه إلىٰ ذلك، وتوسله إليه وإن لم يقصده.

الوجه التاسع: أن النبي ﷺ كان يكف عن قتل المنافقين -مع كونه مصلحة- لئلا يكون ذريعة إلىٰ تنفير الناس عنه، وقولهم: إن محمدًا يقتل أصحابه؛ فإن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه ومَن لم يدخل فيه، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل.

الوجه العاشر: أن الله تعالىٰ حرَّم الخمر لما فيها من المفاسد الكثيرة المترتبة

---

(١) هذا لفظ مسلم؛ أخرجه في (الإيمان)، باب (بيان الكبائر)، (ح٩٠).
(٢) أخرجه البخاري في (الأدب)، باب (لا يسب الرجل والديه)، (ح٥٩٧٣).

علىٰ زوال العقل، وهذا ليس مما نحن فيه، لكن حرَّم القطرة الواحدة منها، وحرَّم إمساكها للتخليل ونجسها، لئلا تتخذ القطرة ذريعة إلىٰ الحسوة، ويتخذ إمساكها للتخليل ذريعة إلىٰ إمساكها للشرب، ثم بالغ في سد الذريعة، فنهىٰ عن الخليطين، وعن شرب العصير بعد ثلاث، وعن الانتباذ في الأوعية التي قد يتخمر النبيذ فيها ولا يعلم به؛ حسمًا لمادة قربان المسكر، وقد صرح ﷺ بالعلة في تحريم القليل فقال: «**لو رخصت لكم في هذه لأوشك أن تجعلوها مثل هذه**»(١).

الوجه الحادي عشر: أنه ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن، والسفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين؛ سدًّا لذريعة ما يحاذر من الفتنة وغلبات الطباع...

الوجه السادس والثلاثون: أن الله تعالىٰ منع رسوله حيث كان بمكة من الجهر بالقرآن؛ حيث كان المشركون يسمعونه فيسبون القرآن ومن أنزله ومن جاء به ومن أُنزل عليه. اهـ(٢).

[الجماعة ما وافق الحق وإن كنتَ وحدك]

اعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالِم صاحب الحق، وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض؛ قال عمرو بن ميمون الأودي: صحبت معاذًا باليمن، فما فارقته حتىٰ واريته في التراب بالشام، ثم صحبت من بعده أفقه الناس

---

(١) لم أجد حديثًا بهذا اللفظ أو المعنىٰ، والله أعلم.

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ١٧٧ - ١٨٧).

عبد الله بن مسعود فسمعته يقول: «عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله مع الجماعة، اتبعوا السواد الأعظم؛ فإنه من شذَّ شذ في النار». ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: «سيولىٰ عليكم ولاة يُؤَخِّرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها؛ فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة، قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحدثون؟ قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول لي: صلِّ الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصلِّ مع الجماعة وهي نافلة، قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، أتدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: إن جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة؛ الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك». وفي لفظ آخر: «فضرب علىٰ فخذي وقال: ويحكم، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالىٰ».

وقال نعيم بن حماد: «إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ»، ذكرها البيهقي وغيره.

وقال بعض أئمة الحديث وقد ذُكِرَ له السواد الأعظم، فقال: أتدري ما السواد الأعظم؟ هو محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه. فمسخ المختلفون الذين جعلوا السواد الأعظم والحجة والجماعة هم الجمهور، وجعلوهم عيارًا علىٰ السنة، وجعلوا السنة بدعة، والمعروف منكرًا لقلة أهله، وتفردهم في الأعصار والأمصار، وقالوا: من شذ شذ الله به في النار، وما عرف المختلفون أن الشاذ ما خالف الحق وإن كان الناس كلهم عليه إلا واحدًا منهم فهم الشاذون. وقد شذ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا؛ فكانوا هم الجماعة، وكانت القضاة حينئذ والمفتون

والخليفة وأتباعه كلهم هم الشاذون، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة، ولما لم يتحمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين، أتكون أنت وقُضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم علىٰ الباطل وأحمد وحده علىٰ الحق؟ فلم يتسع علمه لذلك؛ فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل؛ فلا إله إلا الله، ما أشبه الليلة بالبارحة، وهي السبيل المَهْيع لأهل السنة والجماعة حتىٰ يلقوا ربهم، مضىٰ عليها سلفهم، وينتظرها خلفهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اهـ[1].

[معايير التوظيف]

الإمام أحمد يوجب تولية الأصلح فالأصلح من الموجودين، وكل زمان بحسبه، فيقدم الأدين العدل علىٰ الأعلم الفاجر، وقضاة السنة علىٰ قضاة الجهمية، وإن كان الجهمي أفقه، ولما سأله المتوكل عن القضاة أرسل إليه دَرْجًا مع وزيره يذكر فيه تولي أناس وعزل أناس، وأمسك عن أناس، وقال: لا أعرفهم، وروجع في بعض من سمي لقلة عمله فقال: لو لم يولوه لولوا فلانًا، وفي توليته مضرة علىٰ المسلمين، وكذلك أمر أن يولي علىٰ الأموال الدَّيِّن السُّني دون الداعي إلىٰ التعطيل؛ لأنه يضر الناس في دينهم. وسئل عن رجلين: أحدهما أنكىٰ في العدو مع شربه الخمر، والآخر أدين؟ فقال: يغزىٰ مع الأنكىٰ في العدو؛ لأنه أنفع للمسلمين.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٨٨- ٤٩٠).



وبهذا مضت سنة رسول الله ﷺ؛ فإنه كان يولي الأنفع للمسلمين علىٰ من هو أفضل منه، كما ولىٰ خالد بن الوليد من حين أسلم علىٰ حروبه لنكايته في العدو، وقدَّمه علىٰ بعض السابقين من المهاجرين والأنصار مثل عبد الرحمن بن عوف وسالم مولىٰ أبي حذيفة وعبد الله بن عمر، وهؤلاء ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وخالد وكان ممن أنفق بعد الفتح وقاتل؛ فإنه أسلم بعد صلح الحديبية هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة الحجبي، ثم إنه فعل مع بني جذيمة ما تبرأ النبي ﷺ منه حين رفع يديه إلىٰ السماء وقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»[1]، ومع هذا فلم يعزله، وكان أبو ذر من أسبق السابقين وقال له: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ علىٰ اثنين، ولا تولينَّ مال يتيم**»[2]، وأمَّر عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل؛ لأنه كان يقصد أخواله بني عُذْرَة، فعلم أنهم يطيعونه ما لا يطيعون غيره للقرابة، وأيضًا فلحسن سياسة عمرو وخبرته وذكائه ودهائه؛ فإنه كان من أدهىٰ العرب، ودهاة العرب أربعة هو أحدهم، ثم أردفه بأبي عبيدة وقال: «**تَطَاوَعا ولا تختلفا**»، فلما تنازعا فيمن يصلي سلَّم أبو عبيدة لعمرو، فكان يصلي بالطائفتين، وفيهم أبو بكر، وأمَّر أسامة بن زيد مكان أبيه؛ لأنه -مع كونه خليقًا للإمارة- أحرص علىٰ طلب ثأر أبيه من غيره، وقدم أباه زيدًا في الولاية علىٰ جعفر ابن عمه مع أنه مولىٰ، ولكنه من أسبق الناس إسلامًا قبل جعفر، ولم يلتفت إلىٰ طعن الناس في إمارة

---

(١) رواه البخاري في (المغازي)، باب (بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد ... (ح٤٣٣٩).
(٢) رواه مسلم في (الإمارة)، باب (كراهة الإمارة بغير ضرورة)، (ح١٨٢٦).

أسامة وزيد وقال: «**إن تطعنوا في إمارة أسامة فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان خليقًا للإمارة، ومن أحب الناس إلي**»(١)، وأمَّر خالد بن سعيد بن العاص وإخوته؛ لأنهم من كبراء قريش وساداتهم، ومن السابقين الأولين، ولم يتول أحد بعده. والمقصود أن هديه ﷺ تولية الأنفع للمسلمين وإن كان غيره أفضل منه، والحكم بما يُظْهِر الحق ويوضحه إذا لم يكن هناك أقوىٰ منه يعارضه، فسيرته تولية الأنفع، والحكم بالأظهر. اهـ(٢).

[ترفيه الرخص]

وأمَّا قوله -أي الهروي-: «ولا يلتفت -أي الصادق- إلىٰ ترفيه الرخص» فلأنه -لكمال صدقه، وقوة إرادته، وطلبه للتقدم- يحمل نفسه علىٰ العزائم، ولا يلتفت إلىٰ الرفاهية التي في الرخص.

وهذا لا بد فيه من التفصيل؛ فإن الصادق يعمل علىٰ رضا الحق تعالىٰ ومحابه، فإذا كانت الرخص أحب إليه تعالىٰ من العزائم، كان التفاته إلىٰ ترفيهها، وهو عين صدقه. فإذا أفطر في السفر، وَقَصَرَ وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه، وخفف الصلاة عند الشغل، ونحو ذلك من الرخص التي يحب الله تعالىٰ أن يؤخذ بها، فهذا الالتفات إلىٰ ترفيهها لا ينافي الصدق.

---

(١) **متفق عليه:** رواه بنحوه البخاري في مواضع منها كتاب (المغازي)، ح(٤٢٥٠)، ومسلم في (فضائل الصحابة)، (ح٢٤٢٦).

(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ١١٤، ١١٥).

بل هاهنا نكتة؛ وهي أنه فرق بين أن يكون التفاته إليها تَرَفُّهًا وراحة، وأن يكون متابعة وموافقة. ومع هذا فالالتفات إليها ترفهًا وراحة لا ينافي الصدق؛ فإن هذا هو المقصود منها، وفيه شهود نعمة الله علىٰ العبد، وتعبده باسمه «البر، اللطيف، المحسن، الرفيق» فإنه رفيق يحب الرفق، وفي الصحيح: **«ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا»**(١) لما فيه من روح التعبد باسم: «الرفيق، اللطيف»، وإجمام القلب به لعبودية أخرىٰ؛ فإن القلب لا يزال يتنقل في منازل العبودية، فإذا أخذ بترفيه رخصة محبوبه استعد بها لعبودية أخرىٰ. وقد تقطعه عزيمتها عن عبودية هي أحب إلىٰ الله منها؛ كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه، والمفطر الذي يضرب الأخبية، ويسقي الركاب، ويضم المتاع؛ ولهذا قال فيهم النبي ﷺ: **«ذهب المفطرون اليوم بالأجر»**(٢). أما الرخص التأويلية، المستندة إلىٰ اختلاف المذاهب والآراء التي تصيب وتخطئ، فالأخذ بها عندهم عين البطالة ومناف للصدق. اهـ(٣).

[محبة الزوجة]

من المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمين الرجل؛ فإنها معينة علىٰ ما شرع الله سبحانه له من النكاح وملك اليمين، من إعفاف الرجل نفسه وأهله،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه في (الحدود)، (ح٦٧٨٦)، ومسلم في (الفضائل)، (ح٢٣٢٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في (الجهاد)، باب (الخدمة في الغزو)، (ح٢٨٩٠)، ومسلم في (الصيام)، باب (أجر المفطر في السفر إذا تولىٰ العمل)، (ح١١١٩).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨٧، ٢٨٨).

فلا تطمح نفسه إلىٰ سواها من الحرام، ويعفها، فلا تطمح نفسها إلىٰ غيره، وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتم وأقوىٰ كان هذا المقصود أتم وأكمل؛ قال تعالىٰ: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ [الروم: ٢١].

وفي الصحيح، عنه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم أنه سئل: من أحب الناس إليك؟ فقال: «**عائشة**»(١)، ولهذا كان مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ يقول إذا حدث عنها: (حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، المبرأة من فوق سبع سماوات).

وصح عنه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم أنه قال: «حبب إلي من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»(٢).

فلا عيب علىٰ الرجل في محبته لأهله وعشقه لها، إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له؛ من محبة الله ورسوله، وزاحم حبه وحب رسوله؛ فإن كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة، وإن أعانت علىٰ محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهي محمودة. ولذلك كان رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم يحب الشراب البارد الحلو، ويحب الحلواء والعسل، ويحب الخيل، وكان أحب الثياب إليه القميص، وكان

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (المناقب)، (ح٣٦٦٢)، ومسلم في (فضائل الصحابة)، (ح٢٣٨٤).
(٢) رواه النسائي في (عشر النساء)، باب (حب النساء)، (ح٣٩٤٠)، وأحمد (٣/ ٢٨٥).



يحب الدباء، فهذه المحبة لا تزاحم محبة الله، بل قد تجمع الهم والقلب علىٰ التفرغ لمحبة الله، فهذه محبة طبيعية تتبع نية صاحبها وقصده بفعل ما يحبه.

فإن نوىٰ به القوة علىٰ أمر الله تعالىٰ وطاعته كانت قربة، وإن فعل ذلك بحكم الطبع والميل المجرد لم يثب ولم يعاقب، وإن فاته درجة من فعله متقربًا به إلىٰ الله.

فالمحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين علىٰ طاعة الله تعالىٰ واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالىٰ أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق. اهـ[1].

[البناء المنيع]

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به؛ فإن علو البنيان علىٰ قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتىٰ كان الأساس وثيقًا حمل البنيان واعتلىٰ عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همَّته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٥١١، ٥١٢).

غير أساس، فلا يلبث بنيانه أن يسقط؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان؛ فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعفَ حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك علىٰ قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

وهذا الأساس أمران: الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته، **والثاني**: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسسَّ العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء.

فاحكم الأساس، واحفظ القوة، ودم علىٰ الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدومًا:

فاقر السلام علىٰ الحياة فإنها قد آذنتك بسرعة التوديعِ

فإذا كمل البناء فبيِّضه بحسن الخلق والإحسان إلىٰ الناس، ثم حُطْه بسورٍ من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور علىٰ أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشىٰ عاقبته، ثم ركب له مفتاحًا من ذكر الله به تفتحه وتغلقه؛



فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصنًا تحصنت فيه من أعدائك، إذا طاف به العدو لم يجد منه مدخلًا فييأس منك.

ثم تعاهدْ بناء الحصن كل وقت؛ فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نَقَبَ عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب، فإن أهملت أمره وصل إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه علىٰ ثلاث خلال: إما أن يغلبك علىٰ الحصن ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك، وتعود إلىٰ سدِّ النقب ولمِّ شعث الحصن، وإذا دخل نَقْبُه إليك نالك منه ثلاث آفات: إفساد الحصن، والإغارة علىٰ حواصله وذخائره، ودلالة السُّرَّاق من بني جنسه علىٰ عورته، فلا يزال تبلىٰ منه بغارة بعد غارة حتىٰ يضعفوا قواك ويهنوا عزمه فتتخلىٰ عن الحصن وتخلي بينهم وبينه.

وهذه حال أكثر النفوس مع هذا العدو، ولهذا تراهم يسخطون ربهم برضا أنفسهم، بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ويضيعون كسب الدين بكسب الأموال، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقىٰ لهم، ويحرصون علىٰ الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون في الآخرة وقد هجمت عليهم، ويخالفون ربهم باتباع أهوائهم، ويتكلون علىٰ الحياة ولا يذكرون الموت، ويذكرون شهواتهم وحظوظهم وينسون ما عهد الله إليهم، ويهتمون بما ضمنه الله ولا يهتمون بما أمرهم به، ويفرحون بالدنيا ويحزنون علىٰ فوات حظهم منها، ولا يحزنون علىٰ فوات الجنة وما فيها، ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار، ويفسدون حقهم بباطلهم، وهُداهم بضلالهم، ومعروفهم بمنكرهم، ويلبسون إيمانهم بظنونهم، ويخلطون

حلالهم بحرامهم، ويترددون في حيرة آرائهم وأفكارهم، ويتركون هدىٰ الله الذي أهداه إليهم. ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن في هدم حصنه بيديه. اهـ[1].

[ما لَكَ وما عليك]

من أركان المحاسبة: أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين ما لك وما عليك؛ فالذي لك: هو المباح الشرعي؛ فعليك حق، ولك حق، فأدِّ ما عليك يؤتك ما لك. ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وكثير من الناس يجعل كثيرًا مما عليه من الحق من قسم ما له؛ فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأىٰ أنه فضل قام به لا حق أداه. وبإزاء هؤلاء من يرىٰ كثيرًا مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه، فيتعبد بترك ما له فعله، كترك كثير من المباحات، ويظن ذلك حقًّا عليه، أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظن ذلك حقًّا عليه.

مثال الأول: من يتعبد بترك النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلًا، أو الطيبات من المطاعم والملابس، ويرىٰ -لجهله- أن ذلك مما عليه؛ فيوجب علىٰ نفسه تركه، أو يرىٰ تركه من أفضل القرب، وأجل الطاعات، وقد أنكر النبي ﷺ علىٰ من زعم ذلك؛ ففي الصحيح: «**أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا عن عبادته في السر، فكأنهم تقالوها، فقال أحدهم: أمَّا أنا فلا آكل اللحم،**

(١) «الفوائد» (٢٢٦- ٢٢٩).

وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا فلا أنام علىٰ فراش. فبلغ النبي ﷺ مقالتهم، فخطب، وقال: ما بال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم، ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج، ويقول الآخر: أما أنا فلا أنام علىٰ فراش؟ لكني أتزوج النساء، وآكل اللحم، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١)، فتبرأ ممن رغب عن سُنته، وتعبَّد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقادًا أن الرغبة عنه وهجره عبادة، فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

ومثال الثاني: من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال، والكشف والتصرف. ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها ألبتة؛ فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلًا وتركًا، ويراها حقًّا عليه، وهي حق له، وله تركها؛ كفعل الرياضات، والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم، من غير تمييز بين ما فيها من حظ العبد والحق الذي عليه، فهذا لون وهذا لون. اهـ(٢).

[مدلولات في الرؤيا]

الرؤيا: هي جزء من أجزاء النبوة، ونوع من أنواع الوحي؛ فإنها مبنية علىٰ

---

(١) **متفق عليه**: رواه بنحوه البخاري في (النكاح)، باب (الترغيب في النكاح)، (٥٠٦٣)، ومسلم في (النكاح)، باب (استحباب النكاح)، (ح١٤٠١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٩، ١٨٠).

القياس والتمثيل، واعتبار المعقول بالمحسوس؛ ألا ترىٰ أن الثياب في التأويل كالقمص تدل علىٰ الدين، فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس فهو في الدين، كما أوَّل النبي ﷺ القميص بالدين والعلم، والقدر المشترك بينهما أن كلًّا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس؛ فالقميص يستر بدنه والعلم والدين يستر روحه وقلبه ويجمله بين الناس، ومن هذا تأويل اللبن بالفطرة لما في كل منهما من التغذية الموجبة للحياة وكمال النشأة، وأن الطفل إذا خلي وفطرته لم يعدل عن اللبن؛ فهو مفطور علىٰ إيثاره علىٰ ما سواه، وكذلك فطرة الإسلام التي فطر الله عليها الناس.

ومن هذا: تأويل البقر بأهل الدين والخير الذين بهم عمارة الأرض، كما أن البقر كذلك، مع عدم شرها وكثرة خيرها وحاجة الأرض وأهلها إليها؛ ولهذا لما رأىٰ النبي ﷺ بقرًا تنحر كان ذلك نحرًا في أصحابه. ومن ذلك تأويل الزرع والحرث بالعمل؛ لأن العامل زارع للخير والشر، ولا بد أن يخرج له ما بذره كما يخرج للباذر زرع ما بذره؛ فالدنيا مزرعة، والأعمال البذر، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده. ومن ذلك: تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين، والجامع بينهما أن المنافق لا روح فيه ولا ظل ولا ثمر؛ فهو بمنزلة الخشب الذي هو كذلك؛ ولهذا شبه الله تعالىٰ المنافقين بالخشب المسندة؛ لأنهم أجسام خالية عن الإيمان والخير، وفي كونها مسنَّدة نكتة أخرىٰ؛ وهي أن الخشب إذا انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به جعل مسندًا بعضه إلىٰ بعض، فشبه المنافقين بالخشب في



الحالة التي لا ينتفع فيها بها. ومن ذلك: تأويل النار بالفتنة لإفساد كل منهما ما يمر عليه ويتصل به، فهذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان، وهذه تحرق القلوب والأديان والإيمان. ومن ذلك: تأويل النجوم بالعلماء والأشراف؛ لحصول هداية أهل الأرض بكل منهما، ولارتفاع الأشراف بين الناس كارتفاع النجوم. ومن ذلك: تأويل الغيث بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس. ومن ذلك: خروج الدم في التأويل يدل علىٰ خروج المال، والقدر المشترك أن قوام البدن بكل واحد منهما. ومن ذلك: الحدث في التأويل يدل علىٰ الحدث في الدين؛ فالحدث الأصغر ذنب صغير، والأكبر ذنب كبير.

ومن ذلك: أن اليهودية والنصرانية في التأويل بدعة في الدين؛ فاليهودية تدل علىٰ فساد القصد واتباع غير الحق، والنصرانية تدل علىٰ فساد العلم والجهل والضلال. ومن ذلك: الحديد في التأويل وأنواع السلاح يدل علىٰ القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح ومرتبته. ومن ذلك: الرائحة الطيبة تدل في الثناء الحسن، وطيب القول والعمل، والرائحة الخبيثة بالعكس، والميزان يدل علىٰ العدل، والجراد يدل علىٰ الجنود والعساكر والغوغاء الذين يموج بعضهم في بعض، والنحل يدل علىٰ من يأكل طيبًا ويعمل صالحًا، والديك رجل عالي الهمة بعيد الصيت، والحية عدو أو صاحب بدعة يهلك بسمه، والحشرات أوغاد الناس، والخلد رجل أعمىٰ يتكفف الناس بالسؤال، والذئب رجل غشوم ظلوم غادر فاجر، والثعلب رجل غادر مكار محتال مراوغ عن الحق، والكلب عدو ضعيف كثير الصخب والشر في كلامه وسبابه، أو رجل مبتدع متبع هواه

مؤثر له على دينه، والسنور العبد والخادم الذي يطوف على أهل الدار، والفأرة امرأة سوء فاسقة فاجرة، والأسد رجل قاهر متسلط، والكبش الرجل المنيع المتبوع. اهـ[1].

* * *

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٠٧- ٢٠٩).

الفصل الحادي عشر: فروق ينبغي التنبه لها

[الفرق بين حسن الظن بالله والغرور]

اتكال بعض الناس على قوله ﷺ حاكيًا عن ربه: «أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»[1] يعني: ما كان في ظنه، فإني فاعله به. ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان؛ فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته. وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد؛ فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا؛ فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته. وأحسن الناس ظنًّا بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه، فأحسن العمل. وإن الفاجر أساء الظن بربه، فأساء العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصر عليه؟! وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠٦)، ولكن نصه: «أنا عند ظن عبدي بي ...»، وليس فيه كلمة (حسن)، ولم أجدها في روايات أو طرق أخرى للحديث، والله أعلم.

وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟ وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهىٰ، ولا يرضىٰ، ولا يغضب؟ وقد قال الله تعالىٰ في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣]، فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن. وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلًا من الشيطان، لا إحسان ظن بربه.

فتأمل هذا الوضع، وتأمل شدة الحاجة إليه! وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه، ويرىٰ مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفىٰ عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم علىٰ مساخطه، مضيع لأوامره، معطل لحقوقه. وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خداع النفوس وغرور الأماني؟ وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير علىٰ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير -أو سبعة دنانير- فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها، فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتىٰ عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: «**ما فعلتِ؟ أكنت فرقت الستة الدنانير ؟**»، فقلت: لا، واللهِ لقد كان شغلني وجعك. فدعا بها، فوضعها في كفه، فقال: «**ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟**»، وفي لفظ: «**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده؟**»[1].

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٠٤).



فيالله! ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه، ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم: «حسَّنًا ظنوننا بك أنك لم تعذب ظالمًا ولا فاسقًا، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه! سبحان الله؟! ما يبلغ الغرور بالعبد! وقد قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي: فما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره؟

ومن تأمل هذا الموضع حقَّ التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه؛ فإن العبد إنما يحمله علىٰ حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه علىٰ أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبلها منه، فالذي حمله علىٰ حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوىٰ عجز، كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس، عن النبي ﷺ قال: «**الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنىٰ علىٰ الله**»[1].

وبالجملة، فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاح، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتىٰ إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأتىٰ ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك، وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما

---

(١) رواه الترمذي في (صفة القيامة والورع)، (ح٢٤٥٩)، وأحمد (٤/ ١٢٤).

يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة. فلو كان معول حسن الظن علىٰ مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه، وانتهك حرماته؟ بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن بعدها، فهذا حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل، فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فجعل هؤلاء أهل الرجاء، لا البطالين والفاسقين، وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ﴾ [النحل: ١١٠]، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه. اهـ[1].

[الفرق بين المداراة والمداهنة]

المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم؛ والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتىٰ يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره علىٰ

---

(١) «الداء والدواء» (٣٨- ٤١).



باطله ويتركه علىٰ هواه؛ فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتىٰ إذا نضجت أخذ في طبها برفق وسهولة حتىٰ أخرج ما فيها ثم وضع علىٰ مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتىٰ صلحت.

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب بخرقة، ثم اله عنها، فلا تزال تقوىٰ وتستحكم حتىٰ عظم فسادها. اهـ[1].

[الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق]

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق: أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهود نعم الله وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما خشوع النفاق: فيبدو علىٰ الجوارح تصنعًا وتكلفًا، والقلب غير خاشع، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرىٰ الجسد خاشعًا والقلب غير خاشع. فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره، فانجلىٰ الصدر وأشرق فيه نور العظمة، فماتت

(١) «الروح» (٢٧٦).

شهوات النفس للخوف والوقار الذي حُشي به، وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلىٰ الله، وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه، فصار مخبتًا له، والمخبت: المطمئن؛ فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع وتطامن كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماء، فيستقر فيها. وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالًا له وذلًّا وانكسارًا بين يديه، سجدة لا يرفع رأسه عنها حتىٰ يلقاه، وأما القلب المتكبر: فإنه قد اهتز بتكبره وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء، فهذا خشوع الإيمان، وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعًا ومراءاة، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات؛ فهو يتخشع في الظاهر، وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة. اهـ[1].

[الفرق بين التواضع والمهانة]

والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خُلُق هو التواضع؛ وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة لعباده؛ فلا يرىٰ له علىٰ أحد فضلًا، ولا يرىٰ له عند أحد حقًّا، بل يرىٰ الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَله، وهذا خلق إنما يعطيه الله ﷻ من يحبه ويكرمه ويقربه.

---

(١) «الروح» (٢٧٧).

وأما المهانة: فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها؛ كتواضع السفل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع ويبغض المهانة والضعة. وفي الصحيح عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**وأوحىٰ إليَّ أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد**»(١)، رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة.

والتواضع المحمود علىٰ نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا؛ فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هربًا من العبودية، وتثبت عند نهيه طلبًا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالىٰ وتفرده بذلك، وغضبه الشديد علىٰ من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين، والله المستعان. اهـ(٢).

---

(١) رواه مسلم في حديث طويل في (الجنة وصفة نعيمها)، (ح٢٨٦٥)، وأبو داود في (الأدب)، (ح٤٨٩٥)، وابن ماجة في (الزهد)، (ح٤١٧٩).

(٢) «الروح» (٢٧٩).

[الفرق بين القوة والحمية لله والقوة والحمية للنفس]

القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتىٰ يقيمها لله. والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة، ونفاذ الكلمة، سواء عز أمر الله أو هان، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلىٰ ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه.

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس؛ فالأولىٰ يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها، فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه؛ وهي حال عبد قد أشرق علىٰ قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي أُلقي علىٰ قلبه، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب، ولم يقم لغضبه شيء حتىٰ ينتقم لله...

وهذا بخلاف الحمية للنفس؛ فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه؛ فإن الفتنة في النفس، والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب، فإنما هما حرارتان تظهران علىٰ الأركان، حرارة من قبل النفس المطمئنة آثارها تعظيم حق الله، وحرارة من قبل النفس الأمارة آثارها استشعار فوت الحظ. اهـ[1].

---

(١) «الروح» (٢٨٠).



[الفرق بين المهابة والكبر]

والفرق بين المهابة والكبر: أن المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حلَّ فيه النور ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسىٰ وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنَّتْ إليه الأفئدة وقرتْ به العيون، وأنست به القلوب؛ فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور، وإن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر: فأثر من آثار العجب والبغي من قلبٍ قد امتلأ بالجهل والظلم، وترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت، فنظره إلىٰ الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأىٰ أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرىٰ لأحد عليه حقًّا، ويرىٰ حقوقه علىٰ الناس، ولا يرىٰ فضلهم عليه، ويرىٰ فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعدًا، ومن الناس إلا صغارًا وبغضًا. اهـ(١).

[الفرق بين الجُود والسَّرف]

والفرق بين الجود والسرف: أن **الجواد** حكيم يضع العطاء مواضعه،

---

(١) «الروح» (٢٨١).

والمسرف مبذر قد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه. وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقًا وهي نوعان: حقوق موظفة، وحقوق ثانية.

فالحقوق الموظفة: كالزكاة والنفقات الواجبة علىٰ من تلزمه نفقته.

والثانية: كحق الضيف ومكافأة المُهْدِي وما وقىٰ به عرضه ونحو ذلك؛ فالجواد يتوخىٰ بماله أداء هذه الحقوق علىٰ وجه الكمال، طيبة بذلك نفسه، راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبىٰ، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس وانشراح صدر؛ بخلاف المبذر؛ فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته جزافًا لا علىٰ تقدير ولا مراعاة مصلحة، وإن اتفقت له، فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض وتوخىٰ ببذره مواضع المغل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرًا ولا سفيهًا، والثاني بمنزلة من بذر حبة في سباخ وغراز من الأرض، وإن أنفق بذره في محل النبات بذر بذرًا متراكمًا بعضه علىٰ بعض؛ فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل، وهذا المكان بذر بذرًا متراكمًا بعضه علىٰ بعض، فذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقي، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته، والله سبحانه هو الجواد علىٰ الإطلاق، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلىٰ جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا وهي من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء، وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه، وإن خفي علىٰ أكثر الناس أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله، وأي المحال أولىٰ به. اهـ[١].

---

(١) «الروح» (٢٨١).



[الفرق بين الشجاعة والجرأة]

والفرق بين الشجاعة والجرأة: أن الشجاعة من القلب وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن؛ فإنه متىٰ ظن الظفر وساعده الصبر ثبت، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر. وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء، وهو ينشأ من الرئة؛ فإذا ساء الظن ووسوست النفس بالسوء انتفخت الرئة فزاحمت القلب في مكانه وضيقت عليه حتىٰ أزعجته عن مستقره، فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه. ولهذا جاء في حديث عمرو بن العاص -الذي رواه أحمد وغيره- عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**شر ما في المرء جبن خالع وشح هالع**»[1]. فسمىٰ الجبن خالعًا؛ لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السحر وهو الرئة؛ كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر: انتفخ سحرك. فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد علىٰ الجوارح، فوضعت الأمور علىٰ غير مواضعها.

فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته؛ فإنها خدم له وجنود، كما أنه إذا ولىٰ ولَّت سائر جنوده.

وأمّا الجرأة: فهي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض، فإما عليها وإما لها. اهـ[2].

---

(١) رواه بنحو أبو داود في (الجهاد)، باب (في الجرأة والجبن)، (ح٢٥١١)، وأحمد (٢/ ٣٠٢، ٣٢٠).
(٢) «الروح» (٢٨٢).

[الفرق بين الفراسة والظن]

والفرق بين الفراسة والظن: أن الظن يخطئ ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر تعالىٰ باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعضه إثم.

وأما الفراسة: فأثنىٰ علىٰ أهلها ومدحهم في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أي للمتفرسين، وقال تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]؛ فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهَّر وتصفَّىٰ وتنزَّه من الأدناس، وقَرُبَ من الله؛ فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه. وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**»(١).

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله؛ فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه؛ فرأىٰ في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلىٰ الله

---

(١) رواه الترمذي في (تفسير القرآن)، باب (من سورة الحجر)، (ح٣١٢٧).



عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربه ﷻ أنه قال: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي**»(١). أخرجه البخاري.

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله؛ فسمع به وأبصر به وبطش به ومشىٰ به، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق علىٰ ما هي عليه، فلا تكاد تخطئ له فراسة؛ فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر علىٰ ما هو عليه، فإذا سمع بالله سمعه علىٰ ما هو عليه، وليس هذا من علم الغيب؛ بل علام الغيوب قذف الحق في قلب قريب مستبشر بنوره، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق فيه، وإذا غلب علىٰ القلب النور فاض علىٰ الأركان، وبادر من القلب إلىٰ العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور. وقد كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يرىٰ أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه.

ورأىٰ بيت المقدس عيانًا وهو بمكة.

ورأىٰ قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرىٰ وهو بالمدينة يحفر الخندق.

ورأىٰ أمراءه بمؤتة وقد أُصيبوا وهو بالمدينة.

---

(١) انفرد بروايته البخاري في (الرقاق)، باب (التواضع)، (ح٦٥٠٢). وليس فيه آخر فقرة منه: «**فبي يسمع، وبي يبصر ...**» إلخ، وفيه بدلًا منها قوله: «**وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته**».

ورأىٰ النجاشي بالحبشة لما مات وهو بالمدينة، فخرج إلىٰ المصلىٰ فصلىٰ عليه.

ورأىٰ عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه: يا سارية الجبلَ.

ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعي، فصعَّد فيه البصر وصوبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث، فقال: ما له قاتله الله؛ إني لأرىٰ للمسلمين منه يومًا عصيبًا. ودخل عمرو بن عبيد علىٰ الحسن فقال: هذا سيد الفتيان إن لم يحدث...

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأىٰ امرأة في الطريق فتأمل محاسنها، فقال له عثمان: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنىٰ ظاهر علىٰ عينيه! فقلت: أوحي بعد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

فهذا شأن الفراسة، وهي نور يقذفه الله في القلب، فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له، وينفذ إلىٰ العين فترىٰ ما لا يراه غيرها. اهـ[١].

[الفرق بين العفو والذل]

والفرق بين العفو والذل: أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك علىٰ الانتقام؛ فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق. بخلاف

---

(١) «الروح» (٢٨٤- ٢٨٧).

الذل؛ فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالًا منه، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٣٩]؛ فمدحهم بقوتهم علىٰ الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك، حتىٰ إذا قدروا علىٰ من بغىٰ عليهم، وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلىٰ الخلق الشريف من العفو والصفح؛ فقال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرَّمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم علىٰ الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم علىٰ الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم علىٰ الانتصار وهو القدرة والقوة علىٰ استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلىٰ العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يُستَذلوا، فإذا قدروا عفوا، فمدحهم علىٰ عفو بعد قدرة لا علىٰ عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ .

والمخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل، وباطنه عز ومهابة، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل؛ فما زاد الله بعفو إلا عزًّا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم لنفسه قط، وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٣٩] كيف يفهم منه أن فيهم من

القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه علىٰ حد العدل غالبًا، بل لا بد من المجاوزة، شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة، وحرَّم الزيادة وندب إلىٰ العفو.

والمقصود: أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الأمّارة، ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء. اهـ[(١)].

[الفرق بين الانتصار والانتقام]

فالانتصار: أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوىٰ علىٰ ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه؛ فإنه حينئذ ينال حظًّا من العز الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بغي عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به غيرةً علىٰ ذلك العز أن يستضام ويقهر، وحمية للعبد المنسوب إلىٰ العزيز الحميد أن يستذل؛ فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة علىٰ أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيًا فيه وإذلالًا له.

وأما النفس المطمئنة التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلىٰ عز توحيدها وإنابتها إلىٰ ربها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضرب لذلك مثلًا بعبدين من عبيد الغلة حراثين، ضرب أحدهما صاحبه

---

(١) «الروح» (٢٨٨- ٢٩٠).

فعفا المضروب عن الضارب نصحًا منه لسيده، وشفقة علىٰ الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي علىٰ عفوه ووقع منه بموقع، وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمّله وألبسه ثيابًا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأي سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه وأوفق لمرضاته؛ كأنه يقول: إنما فعل هذا بك جرأة عليّ واستخفافًا بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته، فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به، فذل وانكسر قلبه، فإن سيده يحب منه ألا يعاقبه لحظة، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه؛ كما روي عن علي ﵁ أنه مر برجل فاستغاث به وقال: هذا منعني حقي ولم يعطني إياه، فقال: أعطه حقه. فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعلي فرجع وقال: أتاك الغوث، فقال له: استقد منه، فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين فضربه عليٌّ تسع درر وقال: قد عفا عنك من لطمته، وهذا حق السلطان. فعاقبه علي لما اجترأ علىٰ سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلىٰ أبي بكر ﵁ فقال: احملني فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك -وعنده المغيرة بن شعبة- فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل، فسال الدم فجاء قومه إلىٰ أبي بكر ﵁ فقالوا: أقدنا من المغيرة، فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله لا أقيدكم منه. فرأىٰ أبو بكر أن ذلك انتصار من المغيرة وحمية الله وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه، فترك قوده لاجترائه علىٰ الله وسلطانه الذي أعز به

رسوله ودينه وخليفته. فهذا لون، والضرب حمية للنفس الأمارة لون. اهـ(١).

[الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل]

والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة؛ فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لست بخب ولا يخدعني الخب.

وكان عمر أعقل من أن يُخْدع وأورع من أن يَخْدَع، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من: مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوىٰ الأنفس؛ فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا. اهـ(٢).

[الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها]

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه؛ فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكر له، ناشر لجميع ما أولاه؛ مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه

---

(١) «الروح» (٢٩٠).

(٢) «الروح» (٢٩٢).

والثناء، وبعث النفس علىٰ الطلب منه دون غيره، وعلىٰ محبته ورجائه؛ فيكون راغبًا إلىٰ الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم: فهو أن يستطيل بها علىٰ الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر؛ فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله، والكبر علىٰ عباد الله، والفخر بعطية الله، والهون في غير ذات الله. اهـ[1].

[الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة]

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلىٰ الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها؛ فإن الناصح لله المعظم له المحب له، يحب أن يطاع ربه فلا يعصىٰ، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه؛ فقد ناصح الله في عبوديته وناصح خلقه في الدعوة إلىٰ الله، فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون كما اقتدىٰ هو بالمتقين، فإذا أحب هذا العبد الداعي إلىٰ الله أن يكون في أعينهم جليلًا وفي قلوبهم مهيبًا وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول علىٰ يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلىٰ الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا علىٰ ذلك موصلًا إليه، ولهذا

---

(١) «الروح» (٢٩٦، ٢٩٧).

ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنىٰ عليهم في تنزيله، وأحسن جزاءهم يوم لقائه؛ فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم علىٰ طاعته وعبوديته؛ فإن الإمام والمؤتم متعاونان علىٰ الطاعة، فإنما سألوه ما يعانون به المتقين علىٰ مرضاته وطاعته؛ وهو دعوتهم إلىٰ الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤]، وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا، التي لا تتم الإمامة إلا بها. وتأملْ كيف نسبهم في هذه الآيات إلىٰ اسمه الرحمن ﷻ ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنَّته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف -وهي المنازل العالية في الجنة- لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية، بل من أعلىٰ مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة، وهذا بخلاف طلب الرياسة؛ فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم علىٰ جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب علىٰ هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمىٰ عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما

إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم، وتحقيرًا وتصغيرًا كما صغروا أمر الله وحقروا عباده. اهـ[(١)].

[الفرق بين الحب في الله والحب مع الله]

والفرق بين الحب في الله والحب مع الله -وهذا من أهم الفروق- كل أحد محتاج، بل مضطر إلىٰ الفرق بين هذا وهذا:

فالحب في الله: هو من كمال الإيمان.

والحب مع الله: هو عين الشرك. والفرق بينهما أن المحب في الحب تابع لمحبة الله؛ فإذا تمكنت محبته من قلب العبد، أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه؛ كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه لكونه تعالىٰ يحبهم، ويبغض من يبغضهم لكونه تعالىٰ يبغضهم. وعلامة هذا الحب والبغض في الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حبًّا لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضًا إذا وصل إليه من جهته من يكرهه ويؤلمه، إما خطأ وإما عمدًا مطيعًا لله فيه، أو متأولًا أو مجتهدًا أو باغيًا نازعًا تائبًا.

والدين كله يدور علىٰ أربع قواعد: حب، وبغض، ويترتب عليهما: فعل وترك؛ فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا فعل فعل لله، وإذا ترك ترك لله، وما

---

(١) «الروح» (٣٠٢).

نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه. وهذا بخلاف الحب مع الله؛ فهو نوعان: نوع يقدح في أصل التوحيد، وهو شرك. ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يُخْرِج من الإسلام.

فالأول: كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله، كما يحبون الله. فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها، ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته، فكل من عبد شيئًا من لدن عرشه إلىٰ قرار أرضه، فقد اتخذ من دون الله إلهًا ووليًّا وأشرك به، كائنًا ذلك المعبود ما كان، ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه.

والنوع الثاني: محبة ما زيَّنه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث؛ فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء. فهذه المحبة ثلاثة أنواع: فإن أحبها لله توصلًا بها إليه واستعانة علىٰ مرضاته وطاعته أثيب عليها، وكانت من قسم الحب لله توصلًا بها إليه، ويلتذ بالتمتع بها، وهذا حال أكمل الخلق الذي حُبِّب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكانت محبته لهما عونًا له علىٰ محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره. وإن أحبها لموافقة طبعه



وهواه وإرادته، ولم يؤثرها علىٰ ما يحبه الله ويرضاه؛ بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من قسم المباحات ولم يعاقب علىٰ ذلك، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه. وإن كانت هي مقصودة ومراده وسعيه في تحصيلها أو الظفر بها، وقدمها علىٰ ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالمًا لنفسه متبعًا لهواه.

فالأولىٰ: محبة السابقين.

والثانية: محبة المقتصدين.

والثالثة: محبة الظالمين.

فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق؛ فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة، والمهدي مَن هداه الله. اهـ(١).

[الفرق بين التوكل والعجز]

والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادًا علىٰ الله وثقة به والتجاء إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه، وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها؛ فقد كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين، وكان يلبس لأمته ودرعه، بل ظاهر يوم أُحد بين درعين، واختفىٰ في الغار ثلاثًا، فكان متوكلًا في السبب لا علىٰ السبب.

---

(١) «الروح» (٣٠٣).

وأما العجز: فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما؛ فإما أن يعطل السبب عجزًا منه، ويزعم أن ذلك توكل، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه، غافلا عن المسبب، معرضًا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقًا تامًّا، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب. فهذا توكله عجز، وعجزه توكل، وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطًا:

فأحد الطرفين: عطل الأسباب محافظة علىٰ التوكل.

والثاني: عطل التوكل محافظة علىٰ السبب.

والوسط: علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب؛ فتوكل علىٰ الله في نفس السبب. وأما من عطَّل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن؛ كمن عطَّل النكاح والتسري وتوكل في حصول الولد، وعطَّل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب، وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني.

فحقيقة التوكل: أن يتخذ العبد ربه وكيلًا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلىٰ وكيله للعالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعىٰ ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته، وأمره ألا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه سبحانه المليء بالوكالة الوفي بالكفالة؛ فالعاجز من رمي هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان طالبًا للراحة، مؤثرًا للدعة يقول: الرزق يطلب صاحبه



كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قُدِّر لي علىٰ ضعفي، ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي، ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني، فيقال له: نعم، وهذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعي غيرك؟ وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه؟ وإذا خفي عليك هذا كله، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعي ولا كد؟ فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك؟ وكم من شيء سعىٰ فيه غيرك فقدر لك رزقًا، فإذا رأيت هذا عيانًا فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟ وأيضًا فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها، حتىٰ في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل يعطلها اعتمادًا علىٰ التوكل؟ أم يقوم بها مع التوكل؟ بلىٰ لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله، وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلىٰ الله واطمأن إليه ووثق به، وكان هذا من أقوىٰ أسباب حصول رزقه؛ فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلىٰ سبب أقوىٰ منه، فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك، أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلىٰ الآخر.

ولا ريب أن هذا أكمل حالًا ممن امتلأ قلبه بالسبب، واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد كان زكريا نجارًا، وقد أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادًا علىٰ التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين. ألا ترىٰ أنهم بذلوا جهدهم في محاربة

أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم، وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت؛ اقتداء بسيد المتوكلين، صلوات الله وسلامه عليه وآله. اهـ(١).

[الفرق بين النصيحة والتأنيب]

والفرق بين النصيحة والتأنيب: أن النصيحة إحسان إلىٰ من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه؛ فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه، والإحسان إلىٰ خلقه؛ فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذىٰ المنصوح ولائمته، ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن، فهذا شأن الناصح.

وأمَّا المؤنب: فهو رجل قصده التعيير والإهانة، وذم من أنَّبه وشتمه في صورة النصح؛ فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقًّا الذم والإهانة في صورة ناصح مشفق. وعلامة هذا أنه لو رأىٰ من يحبه ويحسن إليه علىٰ مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا، ويطلب له وجوه المعاذير، فإن غلب قال: وأَنَّىٰ ضمنت له العصمة، والإنسان عرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساوئه، والله غفور رحيم، ونحو ذلك.

فيا عجبًا! كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه؟! وكيف كان حظ

---

(١) «الروح» (٣٠٥، ٣٠٧).

ذلك منك التأنيب في صورة النصح، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير؟!

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب: أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته، وقال: قد وقع أجري علىٰ الله قبلت أو لم تقبل، ويدعو لك بظهر الغيب، ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس، والمؤنب بضد ذلك. اهـ[(١)].

[الفرق بين المبادرة والعجلة]

والفرق بين بالمبادرة والعجلة: أن المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها، ولا يتركها حتىٰ إذا فاتت طلبها؛ فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد علىٰ فريسته؛ فهو بمنزلة من يبادر إلىٰ أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها.

والعجلة: طلب أخذ الشيء قبل وقته؛ فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها.

فالمبادرة: وسط بين خلقين مذمومين: أحدهما التفريط والإضاعة، والثاني الاستعجال قبل الوقت، ولهذا كانت العجلة من الشيطان؛ فإنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعًا من الشرور، وتمنعه أنواعًا من الخير، وهي قرين

---

(١) «الروح» (٣٠٨).

الندامة؛ فقلَّ من استعجل إلا ندم، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة. اهـ[١].

[الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى]

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوىٰ -وإن اشتبهت صورتهما- أن **الإخبار بالحال** يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه؛ فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله علىٰ الصبر بالتأسي به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوىٰ، فقال: يابن أخي، لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة، فما أعلمت به أحدًا.

ففي ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكي علىٰ التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوىٰ، ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم لما قالت عائشة: وارأساه! فقال: «**بل أنا وارأساه**»[٢] أي: الوجع القوي بي أنا دونك، فتأسي بي فلا تشتكي. ويلوح لي فيه معنىٰ آخر: وهو أنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كانت حبيبة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، بل كانت أحب النساء إليه علىٰ الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بمُحِبِّها من الألم مثل الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه؛ يتألم بتألمه، ويسر بسروره، حتىٰ إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة.

---

(١) «الروح» (٣٠٩).

(٢) رواه البخاري في (الأحكام)، باب (الاستخلاف)، (ح٧٢١٧)، وفيه قصة.



فالمعنىٰ الأول: يفهم أنك لا تشتكي واصبري؛ فبي من الوجع مثلما بك، فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوىٰ.

والمعنىٰ الثاني: يفهم إعلامها بصدق محبته لها؛ أي: انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك، فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك، كما يسرني ما يسرك.

كما قيل:

وإن أولىٰ البرايا أن تواسيه عند السرور الذي واساك في الحزن

وأما الشكوىٰ: فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلىٰ إلىٰ غيره؛ فإن شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوىٰ بل استعطاف وتملق واسترحام له؛ كقول أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وقول موسىٰ عليه السلام: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكىٰ وأنت المستعان، وبك المستعاث وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(١)].

وقول سيد ولد آدم ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس؛ أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ بعيد يتجهمني، أو إلىٰ عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) (٣/ ٣٥٦)، (ح٣٣٩٤)، وفي (الصغير) (١/ ٢١١)، (ح٣٣٩)، وليس فيهما قوله: (وبك المستغاث، وعليك التكلان).

أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

فالشكوىٰ إلىٰ الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه؛ فإن الله تعالىٰ قال عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]، مع إخباره عنه بالشكوىٰ إليه في قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وأخبر عن نبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والنبي إذا قال وفىٰ، مع قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره، ولا يُلتفت إلىٰ غير هذا من ترهات القوم.

كما قال بعضهم: لما قال: مسني الضر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [ص: ٤٤] ولم يقل صبورًا، حيث قال: مسني الضر.

وقال بعضهم: لم يقل: ارحمني، وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد علىٰ الإخبار بحاله، ووصف ربه.

وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مس ضر ضعف الذكر، لا ضر المرض والألم.

وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة، وكأن هذا القائل رأىٰ أن الشكوىٰ إلىٰ الله تنافي الصبر، وغلط أقبح الغلط؛ فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوىٰ إليه؛ فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه

---

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة دون إسناد؛ حيث قال: «فيما ذُكِرَ لي»، انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام، بتحقيق: طه عبد الرءوف سعد (٢/ ٢٦٨)، ط. دار الجبل، بيروت، ط (١) ١٤١١هـ. وابن إسحاق ثقة لكنه مدلس، فالحديث عنه ضعيف حيث لم يصرح بالسماع من أحد.



والشكوىٰ إليه، ولا يحب التجلد عليه، وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه، وتذلـله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه، وقلة صبره، فاحذر كلَّ الحذر من إظهار التجلد عليه، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف؛ فرحمته اقرب إلىٰ هذا القلب من اليد للفم. اهـ(١).

[الفرق بين تجريد متابعة المعصوم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها]

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وإهدار أقوال العلماء وإلغائها:

أن تجريد المتابعة: ألا تقدم علىٰ ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائنًا من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولًا، فإذا صح لك نظرت في معناه ثانيًا، فإذا تبين لك لم تعدل عنه، ولو خالفك من بين المشرق المغرب. ومعاذ الله أن تتفق الأمة علىٰ مخالفة ما جاء به نبيها، بل لا بد أن يكون في الأمة من قال به، ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة علىٰ الله ورسوله، بل اذهبْ إلىٰ النص ولا تَضْعُف، واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا، ولكن لم يصل إليك هذا، مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم، واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه؛ فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها لشبهة أنه أعلم بها منك. فإن كان كذلك فمن ذهب

---

(١) «الروح» (٣١٠).

إلىٰ النص أعلم به منك، فهلا وافقته إن كنت صادقًا، فمن عرض أقوال العلماء علىٰ النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم، ولم يهضم جانبهم، بل اقتدىٰ بهم؛ فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقًّا من امتثل ما أوصوا به، لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص علىٰ أقوالهم. ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه؛ فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه، ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به، ولذلك سُمي تقليدًا، بخلاف ما استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلىٰ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلىٰ الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنىٰ بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم علىٰ القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنىٰ.

قال الشافعي: أجمع الناس علىٰ أن من استبانت له سُنَّة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ. اهـ[١].

٨٠♦٠٣

(١) «الروح» (٣١٧).



الفصل الثاني عشر: المعرضون عن الله

[سير الأشقياء في الدنيا]

الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلىٰ دار الشقاء، متزودين غضب الرب سبحانه، ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله، ومحاربة من يدعو إلىٰ دينه، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده، فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه.

وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته علىٰ مراضي الرب سبحانه وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه؛ يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه، ويعزم علىٰ الرجوع إلىٰ الله. فهذا حال المسلم.

وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنًا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم علىٰ الرجوع إلىٰ الله والإنابة إليه أصلًا، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحًا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان. اهـ[١].

(١) «طريق الهجرتين» (٢٠٣).

[المغرورون]

كثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: «أستغفر الله» زال أثر الذنب، وراح هذا بهذا! وقال لي رجل من المنتسبين إلىٰ الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة؛ حُطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»**(١). وقال لي آخر من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا، وقد مُحي عنه ذلك. وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب، أصبت ذنبًا فاغفره لي، فغفر له. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا آخر فقال: أي رب، أصبت ذنبًا فاغفره لي، فغفره له. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب، أصبت ذنبًا، فاغفره لي. فقال الله ﷻ: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؛ قد غفرتُ لعبدي، فليصنع ما شاء!»**(٢) قال: وأنا لا أشك أن لي ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به.

وهذا الضرب من الناس قد تعلَّق بنصوص من الرجاء واتكل عليها، وتعلق بها بكلتا يديه، وإذا عوتب علىٰ الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء. وللجهال من هذا الضرب

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري في (الدعوات)، باب (فضل التسبيح)، (ح٦٤٠٥)، ومسلم في (الذكر والدعاء)، باب (فضل التهليل والتسبيح)، (ح٢٦٩١).

(٢) **متفق عليه:** رواه بنحوه البخاري في (التوحيد)، (ح٧٥٠٧)، ومسلم في (التوبة)، (ح٢٧٥٨).



من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب؛ كقول بعضهم:

وكثــر مــا اســتطعت مــن الخطايــا إذا كـــان القـــدوم علـــىٰ كـــريم

وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقول الآخر: ترك الذنوب جراءة علىٰ مغفرة الله، واستصغار لها.

وقال أبو محمد ابن حزم: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من العصمة.

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له ألبتة ولا اختيار، وإنما هو مجبور علىٰ فعل المعاصي.

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردد إلىٰ قبورهم، والتضرع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلىٰ الله بهم، وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده.

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه، وأن لهم عند الله مكانة وصلاحًا، فلا يَدَعوه أن يخلصوه، كما يشاهد في حضرة الملوك؛ فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلَّصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته.

ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه، كاتكال بعضهم علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحىٰ:٥]،

وهو لا يرضىٰ أن يكون في النار أحد من أمته! وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه؛ فإنه يرضىٰ بما يرضىٰ به ربه ﷻ، والله تعالىٰ يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرِّين علىٰ الكبائر، فحاشا رسوله ألا يرضىٰ مما يرضىٰ به ربه تبارك وتعالىٰ. وكاتكال بعضهم علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذا أيضًا من أقبح الجهل؛ فإن الشرك داخل في هذه الآية، فإنه رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين؛ فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان. ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتي صاحبه من قلة علمه وفهمه؛ فإنه سبحانه هاهنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين. وفي سورة النساء خصص وقيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦]، فيقول: كرمه! وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته، وهذا جهل قبيح، وإنما غره به الغرور -وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء، وجهله، وهواه. وأتىٰ سبحانه بلفظ «الكريم»، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالىٰ في النار: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل: ١٥، ١٦]، وقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]. ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم، فهو



سبحانه لم يقل: «لا يدخلها»، بل قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٥]، ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها؛ فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يُجنَّبها.

وأما قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ، فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]. ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة، ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنىٰ مثقال ذرة من الإيمان، ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد علىٰ صوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتىٰ يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفِّر ذنوب العام كلها، ويبقىٰ صوم يوم عرفة زيادة في الأجر. ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينها إذا اجتنبت الكبائر. ورمضان إلىٰ رمضان، والجمعة إلىٰ الجمعة لا يقويان علىٰ تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوىٰ مجموع الأمرين علىٰ تكفير الصغائر، فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد، وهو مصر عليها، غير تائب منها؛ هذا محال، علىٰ أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام علىٰ عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره علىٰ الكبائر مانعًا من التكفير. فإذا لم يُصر علىٰ الكبائر تَسَاعَد الصوم وعدم الإصرار وتعاونا علىٰ عموم التكفير؛ كما

كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين علىٰ تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر علىٰ التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوىٰ وأتم منه مع انفراد أحدهما. وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوىٰ وأتم وأشمل. اهـ(١).

[آدميون بنفوس حيوانية]

من الناس من لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان؛ ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها، فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية لم تترق عنها إلىٰ درجة الإنسانية، فضلًا عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر، وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم علىٰ أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية؛ لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها وحماها من سائر الكلاب، ونبح كل كلب يدنو منها، فلا تقربها الكلاب إلا علىٰ كره منه وغلبة، ولا يسمح لكلب بشيء منها، وهمه شبع بطنه من أي طعام اتفق: ميتة أو مذكىٰ، خبيث أو طيب، ولا يستحي من قبيح؛ إن تَحْمِلِ عليه يَلْهَث أو تتركه يلهث، إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك، وإن منعته هرَّك ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية؛ لم تخلق إلا للكد والعلف، كلما زيد في علفه

---

(١) «الداء والدواء» (٣٣- ٣٧).



زيد في كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة، ولهذا مثَّل الله ﷻ به من حمَّله كتابه، فلم يحمله معرفة ولا فقهًا ولا عملًا. ومثَّل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلىٰ الأرض واتبع هواه. وفي هذين المثلين أسرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية؛ همته العدوان علىٰ الناس وقهرهم بما وصلت إليه قدرته. طبيعته تتقاضىٰ ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه.

ومنهم: من نفسه فأرية؛ فاسق بطبعه، مفسد لما جاوره. تسبيحه بلسان الحال: سبحان من خلقه للفساد.

ومنهم: من نفسه علىٰ نفوس ذوات السموم والحُمَّات كالحية والعقرب وغيرهما. وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه؛ فيُدخل الرجل القبر والجمل القِدْر. والعين وحدها لم تفعل شيئًا؛ وإنما النفس الخبيثة السُّمية تكيفت بكيفية غضبية، مع شدة حسد وإعجاب، وقابلت المعين علىٰ غِرَّة منه وغفلة، وهو أعزل من سلاحه، فلدغَتْه كالحية التي تنظر إلىٰ موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه، فإما عطب وإما أذىٰ. ولهذا لا يتوقف أذىٰ العائن علىٰ الرؤية والمشاهدة، بل إذا وُصف له الشيء الغائب عنه وصل إليه أذاه. والذنب لجهل المعين وغفلته وغِرَّته عن حمل سلاحه كل وقت، فالعائن لا يؤثر في شاكي السلاح؛ كالحية إذا قابلت دِرعًا سابغًا علىٰ جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف، فحق علىٰ من أراد حفظ نفسه وحمايتها ألا يزال متدرعًا متحصنًا لابسًا أداة الحرب، مواظبًا علىٰ أوراد التعوذات، والتحصينات النبوية التي في القرآن والتي في السنة...

ومن الناس: من طبعه طبع خنزير؛ يمر بالطيبات فلا يلوي عليها، فإذا قام الإنسان عن رجيعه قَمَّه. وهكذا كثير من الناس: يسمع منك ويرىٰ من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأىٰ سَقْطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها، فجعلها فاكهته ونُقْله.

ومنهم: من هو علىٰ طبيعة الطاووس ليس له إلا التَّطَوس والتزين بالريش، وليس وراء ذلك من شيء.

ومنهم: من هو علىٰ طبيعة الجمل أحقد الحيوان، وأغلظه كبدًا.

ومنهم: من هو علىٰ طبيعة الدُّب أبكم خبيث، وعلىٰ طبيعة القرد.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسًا، وأكرمها طباعًا، وكذلك الغنم، وكل من ألِفَ ضَربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه، فإن تغذىٰ بلحمه كان الشَّبه أقوىٰ؛ فإن الغاذي شبيه بالمغتذي. ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها، والله أعلم. اهـ[1].

[أتباع كل ناعق]

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم علىٰ سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق؛ يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٤- ٣٩٦).



بنور العلم، ولم يلجئوا إلىٰ ركنٍ وثيق»... فالهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم، وأصله من الهمج جمع همجة؛ وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط علىٰ وجوه الغنم والدواب. والرعاع من الناس: الحمقىٰ الذين لا يعتد بهم.

وقوله: «أتباع كل ناعق» أي: من صاح بهم ودعاهم تبعوه؛ سواء دعاهم إلىٰ هدىٰ أو إلىٰ ضلال؛ فإنهم لا علم لهم بالذي يُدْعون إليه أحق هو أم باطل؟ فهم مستجيبون لدعوته، وهؤلاء من أضر الخلق علىٰ الأديان؛ فإنهم الأكثرون عددًا، الأقلون عند الله قدرًا، وهم حطب كل فتنة؛ بهم توقد ويشب ضرامها؛ فإنها يعتزلها أولو الدين، ويتولاها الهمج الرعاع.

وسمي داعيهم ناعقًا تشبيهًا لهم بالأنعام التي ينعق بها الراعي فتذهب معه أين ذهب! قال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهذا الذي وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم؛ فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل، بل الكل عندهم سواء.

وقوله رضي الله عنه: «يميلون مع كل ريح»، وفي رواية: «مع كل صائح»؛ شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف، وشبه الأهوية والآراء بالرياح، والغصن يميل مع الريح حيث مالت، وعقول هؤلاء تميل مع كل هوىٰ وكل داع، ولو كانت عقولًا كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعب بها الرياح.

وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبي ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع، تفيئه

الريح مرة وتقيمه أخرىٰ، والمنافق كشجرة الأرز التي لا تُقطع حتىٰ تستحصد؛ فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها، فلا يزال بين عافية وبلاء، ومحنة ومنحة، وصحة وسقم، وأمن وخوف، وغير ذلك؛ فيقع مرة ويقوم أخرىٰ، ويميل تارة ويعتدل أخرىٰ، فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره، والكافر كله خبث ولا يصلح إلا للوقود، فليس في إصابته في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة المؤمن.

فهذه حال المؤمن في الابتلاء.

وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع، فكما قيل:

تزول الجبال الراسيات وقلبه ... علىٰ العهد لا يلوي ولا يتغير

وقوله رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلىٰ ركن وثيق»؛ بيَّن السبب الذي جعلهم بتلك المثابة؛ وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب! فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل.

فإن الحق متىٰ استقر في القلب قوي به وامتنع مما يضره ويهلكه، ولهذا سمىٰ الله الحجة العلمية سلطانًا.



فالعبد يؤتىٰ من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوي قلبه. اهـ[(١)].

[خطر المنافقين وحالهم]

هم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهم في الدرك الأسفل من النار؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥]، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالىٰ في حقهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر؛ أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلىٰ المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعدواة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها؛ فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم -وهم في الباطن علىٰ خلاف دينهم- أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم تنقضي ويعقبها النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو علىٰ عوراتهم،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١٢- ٤١٥)، مع الحذف والاختصار.

ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ ، لا علىٰ معنىٰ أنه لا عدو لكم سواهم، بل علىٰ معنىٰ أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًّا من الكفار المجاهرين...

والمقصود أن هذه الطبقة أشقىٰ الأشقياء، ولهذا يُستهزأ بهم في الآخرة، وتعطىٰ نورًا يتوسطون به علىٰ الصراط ثم يطفئ الله نورهم ويقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] ، ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] ، وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء: أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتىٰ إذا ظن أنه ناج ورأىٰ منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم؛ فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلىٰ المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين، ولهذا قال تعالىٰ في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقين: ٣]، وقال تعالىٰ فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالىٰ في الكفار: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا كان

أشد كفرًا، وأخبث قلبًا، وأعتىٰ علىٰ الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل.

وفيه معنىٰ آخر أيضًا؛ وهو أن الحامل لهم علىٰ النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين؛ فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضًا. ومن هاهنا دخل عليهم البلاء؛ فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله ورسوله، بل كان ميلهم وصغوهم وجهتهم إلىٰ الكفار، فقوبلوا علىٰ ذلك بأعظم الذل؛ وهو أن جعل مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار، فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله والذين آمنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان والكذب والتلاعب بالدين، وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم علىٰ الكفر والشرك وعداوة الله ورسوله أمر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم به، فاستحقوا الدرك الأسفل من النار. ولهذا لما ذكر تعالىٰ أقسام الخلق في أول سورة البقرة (٢- ٢٠) فقسمهم إلىٰ مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وكافر ظاهرًا وباطنًا، ومؤمن في الظاهر كافر في الباطن -وهم المنافقون- ذكر في حق المؤمنين ثلاث[١]، وفي حق الكفار آيتين[٢].

فلما انتهىٰ إلىٰ ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية[٣] ذمهم فيها غاية الذم، وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم، وأخبر أنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض، المخادعون المستهزئون المغبونون في اشترائهم الضلالة بالهدىٰ، وأنهم صم بكم

---

(١) «سورة البقرة»: الآيات من [٣ إلىٰ ٥].

(٢) «سورة البقرة»: الآيات من [٦ إلىٰ ٧].

(٣) «سورة البقرة»: الآيات من [٨ إلىٰ ٢٠].

عمي فهم لا يرجعون، وأنهم مرضىٰ القلوب، وأن الله يزيدهم مرضًا إلىٰ مرضهم، فلم يدع ذمًّا ولا عيبًا إلا ذمهم به.

وهذا يدل علىٰ شدة مقته سبحانه لهم، وبغضه إياهم، وعداوته لهم، وأنهم أبغض أعدائه إليه. فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار.

نعوذ بالله من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته. اهـ[(١)].

[أوصاف المنافقين]

من تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذم، علم أنهم أحق بالدرك الأسفل؛ فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض -وهو مرض الشبهات والشكوك- ووصفهم بالإفساد في الأرض وبالاستهزاء بدينه وبعباده، وبالطغيان، واشتراء الضلالة بالهدىٰ، والصمم والبكم والعمىٰ والحيرة والكسل عند عبادته، والزنا وقلة ذكره، والتردد -وهو التذبذب- بين المؤمنين والكفار، فلا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، والحلف باسمه تعالىٰ كذبًا وباطلًا وبالكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين وبعدم العلم، وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرب، وبأنهم مضرة علىٰ المؤمنين، ولا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال والإسراع بينهم بالشر وإلقاء الفتنة، وكراهتهم لظهور أمر الله، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر،

---

(١) «طريق الهجرتين» (٤٠٢- ٤٠٤).



ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، فيلمزون المتصدقين، ويعيبون مزهدهم، ويرمون بالرياء وإرادة الثناء في الناس مكثرهم، وأنهم عبيد الدنيا؛ إن أُعطوا منها رضوا، وإن مُنعوا سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إلىٰ ما برأه الله منه، ويعيبونه بما هو من كماله وفضله، وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، وأنهم يتحيلون علىٰ تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله، وأنهم مطبوع علىٰ قلوبهم، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس بالله: قد اتخذوا أيمانهم جُنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم؛ وهذا شأن المنافق: أحلف الناس بالله كاذبًا؛ قد اتخذ يمينه جنة ووقاية يتقي بها إنكار المسلمين عليه، ووصفهم بأنهم رجس -والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره- فهم أخبث بني آدم وأقذرهم وأرذلهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرة علىٰ أهل الإيمان يقصدون التفريق بينهم، ويئون من حاربهم وحارب الله ورسوله، وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم في أعمالهم ليتوصلوا منها إلىٰ الإضرار بهم وتفريق كلمتهم -هذا شأن المنافقين أبدًا- وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء -هذه عادتهم في كل زمان- وارتابوا في الدين فلم يصدقوا به، وغرتهم الأماني الباطلة وغرهم الشيطان، وأنهم أحسن الناس أجسامًا تعجب الرائي أجسامهم، والسامع منطقهم، فإذا جاوزت أجسامهم وقولهم

رأيت خشبًا مسندة، ولا إيمان ولا فقه، ولا علم ولا صدق، بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر، وليسوا وراء ذلك شيئًا، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها، إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة -كحال كثير من الزنادقة- وإما احتقارًا وازدراء بمن يدعوهم إلىٰ ذلك، ووصفهم سبحانه بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله وبأنهم مجرمون، وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في مرضاته، ونسيان ذكره، وبأنهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين، وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتىٰ أنساهم ذكر الله، فلا يذكرونه إلا قليلًا، وأنهم حزب الشيطان، وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله، وبأنهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلىٰ فلتات ألسنتهم، وبأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

ومن صفاتهم: التي وصفهم بها رسول الله ﷺ: الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلىٰ آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعًا، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء.

ومن صفاتهم: التي وصفهم الله بها: الشح علىٰ المؤمنين بالخير، والجبن عند الخوف، فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حداد؛ فهم أحد الناس ألسنة عليهم كما قيل:

جهلا علينا وجبنا عن عدوكم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن



وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم ومخبآتها، وأما عند الأمن فيجب ستره، فإذا لحق المسلمين خوف دبت عقارب قلوبهم وظهرت المخبآت وبدت الأسرار.

ومن صفاتهم: أنهم أعذب الناس ألسنة، وأمرهم قلوبًا، وأعظم الناس خلفًا بين أعمالهم وأقوالهم.

ومن صفاتهم: أنهم لا يجتمع فيهم حسن صمت وفقه في دين أبدًا.

ومن صفاتهم: أن أعمالهم تكذب أقوالهم، وباطنهم يكذب ظاهرهم، وسرائرهم تناقض علانيتهم.

ومن صفاتهم: أن المؤمن لا يثق بهم في شيء؛ فإنهم قد أعدوا لكل أمر مخرجًا منه، بحق أو بباطل، بصدق أو بكذب، ولهذا سمي منافقًا أخذًا من نافقاء اليربوع - وهو بيت يحفره ويجعل له أسرابًا مختلفة- فكلما طلب من سرب خرج من سرب آخر، فلا يتمكن طالبه من حصره في سرب واحد؛ قال الشاعر:

ويستخرج اليربوع من نافقائه ... ومن جحره بالشيحة اليتقصع

فأنت منه كقابض علىٰ الماء؛ ليس معك منه شيء.

ومن صفاتهم: كثرة التلون، وسرعة التقلب، وعدم الثبات علىٰ حال واحد: بينا تراه علىٰ حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدي صالح أو صدق، إذ انقلب إلىٰ ضد ذلك كأنه لم يعرف غيره؛ فهو أشد الناس تلونًا وتقلبًا وتنقلًا، جيفة بالليل قطرب بالنهار.

ومن صفاتهم: أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلىٰ القرآن والسنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه، ودعوك إلىٰ التحاكم إلىٰ طواغيتهم؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠- ٦٣].

ومن صفاتهم: معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها علىٰ ما جاء؛ فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدىٰ في آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به، فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا مع ذلك معارضته، وزعموا أنه لا يستفاد منه هدىٰ.

ومن صفاتهم: كتمان الحق، والتلبيس علىٰ أهله، ورميهم له بأدوائهم؛ فيرمونهم -إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا إلىٰ الله ورسوله- بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض. وقد علم الله ورسوله والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعا ورثة الرسول إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة، متمسكين بطاعة الله ورسوله رموهم بالزوكرة والتلبيس والمحال. وإذا رأوا معهم



حقًّا ألبسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول في قالب شنيع لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق، وأخرجوه في قالبه ليقبل منهم.

وجملة أمرهم: أنهم في المسلمين كالزغل في النقود؛ يروج علىٰ أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ما هم.

وليس علىٰ الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلَّىٰ الله أمرهم في القرآن، وأوضح أوصافهم وبيَّن أحوالهم وكرر ذكرهم؛ لشدة المؤنة علىٰ الأمة بهم، وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلىٰ معرفتهم والتحرز من مشابهتهم والإصغاء إليهم، فكم قطعوا علىٰ السالكين إلىٰ الله طرق الهدىٰ، وسلكوا بهم سبيل الردىٰ، ووعدوهم ومنوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنوهم الويل والثبور. فكم لهم من قتيل، ولكن في سبيل الشيطان وسليب ولكن للباس التقوىٰ والإيمان، وأسير لا يرجىٰ له الخلاص، وفار من الله لا إليه، وهيهات ولات حين مناص. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار، ومن علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالًا، ويمشي علىٰ عقبيه القهقرىٰ إدبارًا منه، وهو يحسب ذلك إقبالًا. فهم والله قطاع الطريق، فيا أيها الركب المسافرون إلىٰ منازل السعداء، حذار منهم حذار؛ إذ هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا، ففرارًا منهم أيها الغنم فرارًا. ومن البلية أنهم الأعداء حقًّا وليس لنا بد من مصاحبتهم، وخلطتهم أعظم الداء وليس بد من مخالطتهم، فقد جُعلوا علىٰ أبواب

جهنم دعاة إليها فبُعدًا للمستجيبين، ونصبوا شباكهم حواليها علىٰ ما حُفَّت به من الشهوات، فويل للمغترين. نصبوا الشباك ومدوا الأشراك وأذن مؤذنهم: يا شياه الأنعام حي علىٰ الهلاك، حي علىٰ التباب. فاستبقوا يهرعون إليهم، فأوردوهم حياض العَذاب، لا الموارد العِذاب. وساموهم من الخسف والبلاء أعظم خطة، وقالوا: ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة، فليس بيوم حطة. فواعجبًا لمن نجا من شراكهم لا من علق، وأنَّىٰ ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق. فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلو بالمحل الذي أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا في أردأ منازل أهل العناد والكفران. وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها علىٰ أنفسهم أن يكونوا منهم؛ فكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول: «يا حذيفة، ناشدتك الله، هل سماني رسول الله ﷺ مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا»؛ يعني: لا أفتح عليَّ هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك.

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول إنه علىٰ إيمان جبرائيل وميكائيل. اهـ[1].

[المصلحون المفسدون]

وهم من حُرِم العلم والعزيمة؛ وهم الموصوفون بقوله: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وبقوله: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ

---

(١) «طريق الهجرتين» (٤٠٥- ٤٠٩).



أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وبقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢].

وهذا الضرب شر البرية، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون، ولكن ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويتعلمون، ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، وينطقون، ولكن عن الهوىٰ ينطقون، ويتكلمون، ولكن بالجهل يتكلمون، ويؤمنون، ولكن بالجبت والطاغوت يؤمنون، ويعبدون، ولكن يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويجادلون، ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ويبيتون، ولكن ما لا يرضىٰ من القول يبيتون، ويدعون، ولكن مع الله إلهًا آخر يدعون، ويذكرون، ولكن إذا ذكِّروا لا يذكرون، ويصلون، ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون، ويمنعون الماعون. ويحكمون، ولكن حكم الجاهلية يبغون. ويكتبون، ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون. ويقولون: إنما نحن مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون، وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس، قالو ا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يشعرون.

فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة، وجلهم -إذا فكَّرت- فهم حمير أو كلاب أو ذئاب. اهـ[1].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٨، ٣٧٩).

[المتحاكمون إلى الطاغوت]

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٠- ٦٥].

أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلىٰ غير ما جاء به الرسول، فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه، والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه علىٰ غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم [ممن أعرض عن عبادة الله] إلىٰ عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلىٰ الله ورسوله إلىٰ التحاكم إلىٰ الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلىٰ طاعة الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم



يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة -وهم الصحابة ومن تبعهم- ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا.

ثم أخبر تعالىٰ عن هؤلاء أنهم إذا قيل لهم: تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول أعرضوا عن ذلك، ولم يستجيبوا للداعي، ورضوا بحكم غيره، ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم؛ بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره، والتحاكم إليه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق؛ أي بفعل ما يرضي الفريقين، ويوفق بينهما، كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه، ويزعم أنه بذلك محسن قاصد الإصلاح والتوفيق. والإيمانُ إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول، وبين كل ما خالفه من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي؛ فمحض الإيمان في هذا الحرب، لا في التوفيق، وبالله التوفيق. ثم أقسم سبحانه بنفسه علىٰ نفي الإيمان عن العباد حتىٰ يُحكِّموا رسوله في كل ما شَجَر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتىٰ ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضًا بذلك حتىٰ يُسلِّموا تسليمًا، وينقادوا انقيادًا. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخيَّر بعد ذلك فقد ضل ضلالًا مبينًا، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تأمروا حتىٰ يأمر، ولا تُفْتوا حتىٰ يُفتي، ولا تقطعوا أمرًا حتىٰ يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه. روىٰ علي بن

أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلافَ الكتاب والسنة».

وروىٰ العوفي رضي الله عنه قال: «نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه».

والقول الجامع في معنىٰ الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢] فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم؛ فكيف تقديم آرائهم، وعقولهم، وأذواقهم، وسياساتهم، ومعارفهم، علىٰ ما جاء به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولىٰ أن يكون مُحْبطًا لأعمالهم؟ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولىٰ أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلىٰ قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به علىٰ أنه أذن فيه. اهـ[1].

[المعرضون عن الوحي بالآراء]

فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه، واستنفد فيه أوقاته، وآثره علىٰ ما الناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله ﷺ مسدود، وقلبه عن المرسل سبحانه وتعالى وتوحيده، والإنابة إليه والتوكل عليه، والتنعم بحبه، والسرور بقربه، مطرود ومصدود، وقد طاف عمره كله علىٰ أبواب المذاهب، فلم يفز إلا بأخس المطالب، سبحان الله!

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٣- ٥٥).



إن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرق قصدها، تربىٰ فيه الصغير، وهرم عليه الكبير، فظنت خفافيش الأبصار أنها الغاية التي تسابق إليها المتسابقون، والنهاية التي تنافس فيها المتنافسون، وهيهات! أين الظلام من الضياء؟ وأين الثرىٰ من كوكب الجوزاء؟ وأين الحرور من الظلال؟ وأين طريقة أصحاب اليمين من طريقة أصحاب الشمال؟ وأين القول الذي لم تضمن لنا عصمة قائله بدليل معلوم من النقل المصدق عن القائل المعصوم؟ وأين العلم الذي سنده محمد بن عبد الله ﷺ عن جبرائيل ﷺ، عن رب العالمين ﷻ من الخوض الخرص الذي سنده شيوخ أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة وفلاسفة المشائين؟ بل أين الآراء التي أعلىٰ درجاتها أن تكون عند الضرورة سائغة الاتباع إلىٰ النصوص النبوية الواجب علىٰ كل مسلم تحكيمها والتحاكم إليها في موارد النزاع؟ وأين الآراء التي نهىٰ قائلها عن تقليده فيها، وحض علىٰ النصوص التي فرض علىٰ كل عبد أن يهتدي بها ويتبصر؟ وأين الأقوال والآراء التي إذا مات أنصارها والقائمون بها فهي من جملة الأموات إلىٰ النصوص التي لا تزول إلا إذا زالت الأرض والسماوات؟ لقد استبان والله الصبح لمن له عينان ناظرتان، وتبين الرشد من الغي لمن له أذنان واعيتان، لكن عصفت علىٰ القلوب أهوية البدع والشبهات والآراء المختلفات، فأطفأت مصابيحها، وتحكمت فيها أيدي الشهوات، فأغلقت أبواب رشدها، وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها وتقليدها لآراء الرجال، فلم تجد حقائق القرآن والسنة فيها منفذًا، وتمكنت فيها أسقام الجهل والتخليط؛ فلم تنتفع معها بصالح الغذاء. واعجبًا! جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاغتذاء بكلام الله تعالىٰ ونص نبيه المرفوع. واعجبًا! كيف اهتدت في ظلم الآراء إلىٰ التمييز بين الخطأ

فيها والصواب، وعجزت عن الاهتداء بمطالع الأنوار ومشارقها من السنة والكتاب، فأقرت بالعجز عن تلقي الهدىٰ والعلم من مشكاة السنة والقرآن، ثم تلقَّته من رأي فلان ورأي فلان!

فسبحان الله! ماذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي واقتباس الهدىٰ من مشكاتها من الكنوز والذخائر؟ وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟ قنعوا بأقوال استنبطتها بمعاول الآراء فكرًا، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبرا، وأوحىٰ بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غرورًا، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا، درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمروها، ووقعت أعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأفلت كواكبه من آفاقهم فليسوا يبصرونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها فليسوا يثبتونها، خلعوا نصوص الوحي عن سلطان الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التحريف بالتأويلات الباطلة؛ فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم المخذولة كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف علىٰ أقوام لئام، فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال والإكرام، وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في صدورها والأعجاز.

وقالوا: ما لك عندنا من عبور، وإن كان لا بد فعلىٰ سبيل المجاز، أنزلوا النصوص منزلة الخليفة العاجز في هذه الأزمان: له السكة والخطبة وما له حكم نافذ ولا سلطان. حرموا والله الوصول بخروجهم عن منهج الوحي وتضييع الأصول، وتمسكوا بأعجاز لا صور لها، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها، وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها، حتىٰ إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه، وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقدموا علىٰ ما قدموه،



﴿... وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ، وسقط في أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غلة ما بذروه. فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباء منثورًا، ويا عظم المصيبة عندما تتبين بوارق آماله وأمانيه خلبًا غرورًا، فما ظن من انطوت سريرته علىٰ البدعة والهوىٰ والتعصب للآراء بربه ﷻ يوم تبلىٰ السرائر؟! وما عذر من نبذ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراء ظهره في يوم لا ينفع فيه الظالمين المعاذر؟ أفيظن المعرض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن ينجو غدًا بآراء الرجال، أو يتخلص من مطالبة الله تعالىٰ له بكثرة البحوث والجدال، أو ضروب الأقيسة وتنوع الأشكال، أو بالشطحات والإشارات وأنواع الخيال. هيهات! والله لقد ظن أكذب الظن، ومنىٰ نفسه أبين المحال، وإنما ضمنت النجاة لمن حكم هدىٰ الله تعالىٰ علىٰ غيره، وتزود التقوىٰ، وأتم بالدليل، وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من التوحيد واتباع الرسول ﷺ بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها، والله سميع عليم. اهـ(١).

[مَن أعرض عن الحق وقع في الباطل]

إن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده، وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولا بد، حتىٰ في الأعمال.

من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق؛ فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك.

---

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٦٠ - ٦٣).

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بد.

وكذلك من رغب عن الهدىٰ بالوحي ابتلي بكناسة الآراء وزبالة الأذهان ووسخ الأفكار.

فليتأملْ من يريد نصح نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع في نفسه وفي غيره والله المستعان. اهـ(١).

[حكم عظيمة من وجود الكفرة والمعاندين والشرور والآثام]

قد يترتب علىٰ خلق من يكفر بالله ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك؛ فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت آية الطوفان وبقيت آية يتحدث بها الناس علىٰ ممر الأزمان، ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم التي دمرت ما مَرَّت عليه، ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة، ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب يتحدث بها الأمم أمة بعد أمة، واهتدىٰ بها من شاء الله، فهلك بها من هلك عن بينه، وحي بها مَن حي عن بينة، وظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وآيات رسله وصدقهم.

فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها، والجواب عنها، وإهلاك الله لهم

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧١).



من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه. ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعُدد والشوكة يوم بدر، لما حصلت تلك الآية العظيمة التي ترتب عليها من الإيمان والهدىٰ والخير ما لم يكن حاصلًا مع عدمها، وقد بينا أن الموقوف علىٰ الشيء لا يوجد بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. فلله كم عمرت قصة بدر من ربع أصبح آهلًا بالإيمان، وكم فتحت لأولي النهىٰ من باب وصلوا منه إلىٰ الهدىٰ والإيقان، وكم حصل بها من محبوب للرحمن وغيظ للشيطان، وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدًّا بالنسبة إلىٰ مصالحها وحكمها؛ وهي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر، وَبَلَّ الثياب، وخَرَّب بعض البيوت بالنسبة إلىٰ مصلحته العامة. وتأمل ما حصل بالطوفان وغرق آل فرعون للأمم من الهدىٰ والإيمان الذي غمر مفسدة من هلك به حتىٰ تلاشت في جنب مصلحته وحكمته.

فكم لله من حكمة في آياته التي ابتلىٰ بها أعداءه وأكرم فيها أولياءه، وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة، ولهذا أمر سبحانه رسوله أن يُذكِّر بها أمته، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٥، ٦] فذكَّرهم بأيامه وإنعامه ونجاتهم من عدوهم وإهلاكهم وهم ينظرون، فحصل بذلك من ذكره وشكره ومحبته وتعظيمه وإجلاله ما تلاشت فيه مفسدة إهلاك الأبناء وذبحهم واضمحلت؛

فإنهم صاروا إلىٰ النعيم وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون إذ كبروا، وسومه له سوء العذاب، وكان الألم الذي ذاقه الأبوان عند الذبح أيسر من الآلام التي كانوا تجرعوها باستعباد فرعون وقومه لهم بكثير، فحظي بذلك الآباء والأبناء.

وأراد سبحانه أن يُري عباده ما هو من أعظم آياته؛ وهو أن يُربي هذا المولود الذي ذبح فرعون ما شاء الله من الأولاد في طلبه في حجر فرعون، وفي بيته، وعلىٰ فراشه، فكم في ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية وتبصرة، وهي موقوفة علىٰ لوازمها وأسبابها، ولم تكن لتوجد بدونها، فإنه ممتنع، فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلتها كأن لم تكن.

وكذلك الآيات التي أظهرها سبحانه علىٰ يد الكريم ابن الكريم ابن الكريم، والعجائب والحكم والمصالح والفوائد التي في تلك القصة التي تزيد علىٰ الألف، لم تكن لتحصل بدون ذلك السبب الذي كان فيه مفسدة جزئية في حق يعقوب ويوسف، ثم انقلبت تلك المفسدة مصالح اضمحلت في جنبها تلك المفسدة بالكلية، وصارت سببًا لأعظم المصالح في حقه وحق يوسف، وحق الإخوة، وحق امرأة العزيز، وحق أهل مصر، وحق المؤمنين إلىٰ يوم القيامة.

فكم جَنَىٰ أهلُ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة، وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة.

وكذلك المفسدة التي حصلت لأيوب من مَسِّ الشيطان له بنصب وعذاب، اضمحلت وتلاشت في جنب المصلحة والمنفعة التي حصلت له



ولغيره عند مفارقة البلاء، وتبدله بالنعماء، بل كان ذلك السبب المكروه هو الطريق الموصل إليها، والشجرة التي جنيت منها ثمار تلك النعم.

وكذلك الأسباب التي أوصلت خليل الرحمن إلىٰ أن صارت النار عليه بردًا وسلامًا، من: كفر قومه، وشركهم، وتكسيره أصنامهم، وغضبهم لها، وإيقاد النار العظيمة له، وإلقائه فيها بالمنجنيق، حتىٰ وقع في روضة خضراء في وسط النار، وصارت آية وحجة وعبرة ودلالة للأمم قرنًا بعد قرن.

فكم لله سبحانه في ضمن هذه الآية من حكمة بالغة ونعمة سابغة، ورحمة وحجة وبينة؛ لو تعطلت تلك الأسباب لتعطلت هذه الحكم والمصالح والآيات، وحكمته وكماله المقدس يأبىٰ ذلك، وحصول الشيء بدون لازمه ممتنع، وكم بين ما وقع من المفاسد الجزئية في هذه القصة، وبين جعل صاحبها إمامًا للحنفاء يوم القيامة، وهل تلك المفاسد الجزئية إلا دون مفسدة الحر والبرد والمطر والثلج بالنسبة إلىٰ مصالحها بكثير؟

ولكن الإنسان -كما قال الله تعالىٰ-: ﴿ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ ظلوم لنفسه، جهول بربه وبعظمته وجلاله وحكمته وإتقان صنعه.

وكم بين إخراج رسول الله ﷺ من مكة علىٰ تلك الحال، ودخوله إليها ذلك الدخول الذي لم يفرح به بشر سواه، وجنود لله قد اكتنفته من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، والمهاجرون والأنصار قد أحدقوا به، والملائكة من فوقهم والوحي من الله ينزل عليه، وقد أدخله حرمه ذلك الدخول، فأين

مفسدة ذلك الإخراج الذي كان كأن لم يكن؟

ولولا معارضة السحرة لموسىٰ بإلقاء العصي والحبال حتىٰ أخذوا أعين الناس واسترهبوهم، لما ظهرت آية عصا موسىٰ حتىٰ ابتلعت عصيهم وحبالهم؛ ولهذا أمرهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يلقوا أولًا، ثم يلقي هو بعدهم.

ومن تمام ظهور آيات الرب تعالىٰ وكمال اقتداره وحكمته أن يخلق مثل جبريل صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها، وهو السفير في كل خير وهدىٰ وإيمان وصلاح، ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس، الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها، وهو الداعي إلىٰ كل شر وأصله ومادته، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام، والأرض والسماء، والجنة والنار، وسدرة المنتهىٰ وشجرة الزقوم، وليلة القدر وليلة الوباء، والملائكة والشياطين، والمؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والحر والبرد، والداء والدواء، والآلام واللذات، والأحزان والمسرات، واستخرج سبحانه من بين ما هو من أحب الأشياء إليه من أنواع العبوديات، والتعرف إلىٰ خلقه بأنواع الدلالات.

ولولا خلق الشياطين والهوىٰ والنفس الأمارة، لما حصلت عبودية الصبر ومجاهدة النفس والشياطين ومخالفتهما، وترك ما يهواه العبد ويحبه لله؛ فإن لهذه العبودية شأنًا ليس لغيرها، ولولا وجود الكفار لما حصلت عبودية الجهاد، ولما نال أهله درجة الشهادة، ولما ظهر من يُقَدِّم محبة فاطره وخالقه علىٰ نفسه وأهله وولده، ومن يقدم أدنىٰ حظ من الحظوظ عليه.



فأين صبر الرسل وأتباعهم وجهادهم وتحملهم لله أنواع المكاره والمشاق، وأنواع العبودية المتعلقة بالدعوة وإظهارها، لولا وجود الكفار؟ وتلك العبودية تقتضي درجة لا تنال إلا بها، والرب تعالىٰ يحب أن يَبْلُغها رسله وأتباعهم، ويشهدهم نعمته عليهم وفضله وحكمته، ويستخرج منهم حمده وشكره ومحبته والرضا عنه.

وقد استقرت حكمته سبحانه أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل إليها إلا علىٰ جسر المشقة والتعب، ولا يدخل إليها إلا من باب المكاره والصبر وتحمل المشاق، ولذلك حَفَّ الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات، ولذلك أخرج صفيَّه آدم من الجنة وقد جعلها له، واقتضت حكمته أنه لا يدخلها دخول استقرار إلا بعد التعب والنصب، فما أخرجه منها إلا ليدخله إليها أتم دخول. فلله كم بين الدخول الأول والدخول الثاني من التفاوت، وكم بين دخول رسول الله ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي ودخوله إليها يوم الفتح، وكم بين راحة المؤمنين ولذتهم في الجنة بعد مقاساة ما قبلها، وبين لذتهم لو خلقوا فيها، وكم بين فرحة من عافاه بعد ابتلائه، وأغناه بعد فقره، وهداه بعد ضلاله، وجمع قلبه عليه بعد شتاته، وفرحة من لم يذق تلك المرارات، وقد سبقت الحكمة الإلهية أن المكاره أسباب اللذات والخيرات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وربما كان مكروه النفوس إلىٰ ... محبوبها سببًا ما مثله سبب

والعقلاء قاطبة متفقون علىٰ استحسان أتعاب النفوس في تحصيل كمالاتها من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، وطلب محمدة من ينفعهم حمده،

وكل من كان أتعب في تحصيل ذلك، كان أحسن حالًا وأرفع قدرًا، وكذلك يستحسنون إتعاب النفوس في تحصيل الغنىٰ والعز والشرف، ويذمون القاعد عن ذلك، وينسبونه إلىٰ دناءة الهمة، وخسة النفس، وضعة القَدْر؛ كما قيل:

دع المكارمَ لا تنهضْ لبُغْيتها ... واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

وهذا التعب والكد يستلزم آلامًا وحصول مكاره ومشاق هي الطريق إلىٰ تلك الكمالات، ولم يقدحوا بتحمل تلك في حكمة من تحملها، ولا يعدونه عابثًا، بل هذا عندهم هو العقل الوافي، ومن أمر غيره به فهو حكيم في أمره، ومن نهاه عن ذلك فهو سفيهٌ عدو له، هذا في مصالح المعاش، فكيف بمصالح الحياة الأبدية الدائمة والنعيم المقيم؟ كيف لا يكون الآمر بالتعب القليل في الزمن اليسير الموصل إلىٰ الخير الدائم حكيمًا رحيمًا محسنًا ناصحًا لمن يأمره بذلك، وينهاه عن ضده من الراحة واللذة التي تقطعه عن كماله ولذته ومسرته الدائمة؟! هذا إلىٰ ما في أمره ونهيه من مصالحه العاجلة التي بها سعادته وفلاحه وصلاحه، ونهيه عما فيه مضرته وعطبه وشقاوته.

فأوامر الرب تعالىٰ رحمة وإحسان وشفاء ودواء وغذاء للقلوب، وزينة للظاهر والباطن، وحياة للقلب والبدن، وكم في ضمنه من مسرة وفرحة ولذة وبهجة، ونعيم وقرة عين؛ فما يسميه هؤلاء تكاليف، إنما هو قرة العيون، وبهجة النفوس، وحياة القلوب، ونور العقول، وتكميل للفطر، وإحسان تام إلىٰ النوع الإنساني، أعظم من إحسانه إليه بالصحة والعافية، والطعام والشراب واللباس.

فنعمته علىٰ عباده بإرسال رسله إليهم، وإنزال كتبه عليهم، وتعريفهم أمره ونهيه، وما يحبه وما يبغضه، أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها، بل لا نسبة



لرحمتهم بالشمس والقمر والغيث والنبات إلىٰ رحمتهم بالعلم والإيمان والشرائع والحلال والحرام. اهـ(١).

[النظر إلى ما وراء الأوامر]

قال تعالىٰ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩]، فشبه نصيبهم -أي المنافقين- مما بعث الله تعالىٰ به رسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب المستوقد للنار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا لا يهتدي سبيلًا، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيب -وهو المطر الذي يصوب أي ينزل من علو إلىٰ سفل- فشبه الهدىٰ الذي هدىٰ به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدىٰ بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلىٰ كمال الانتفاع بذلك الصيب. فالجاهل لفرط جهله يقتصر علىٰ الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلىٰ ما يئول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كل قاصر النظر، ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه

---

(١) «شفاء العليل» (٢/ ٦١٧- ٦٢٣).

الظاهر إلىٰ ما وراءه من كل محبوب. وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته؛ فإذا رأىٰ ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه لأنه لم يشهد ما يئول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون. وكذلك من عزم علىٰ سفر الحج إلىٰ البيت الحرام، فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه ولا يعزم عليه، وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرىٰ ما في القرآن من الوعد والوعيد والزواجر والنواهي والأوامر الشاقة علىٰ النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام علىٰ الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهذا الذي ينظر إلىٰ ما وراء الصيِّب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق ويعلم أنه حياة الوجود. اهـ[(١)].

[لماذا ينقمون منا؟]

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

هذا شأن أعداء الله دائمًا ينقمون علىٰ أوليائه ما ينبغي أن يُحبوا ويكرموا لأجله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٣٧- ٣٩).



وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها، وترك ما خالفها.

وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله، ونعوت جلاله.

وكذلك الرافضة ينقمون علىٰ أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وتَرَضِّيهم عنهم، وولايتهم إياهم، وتقديم من قدَّمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون علىٰ أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه، وتركهم ما خالفه. اهـ[١].

[شروط توبة المبتدعة والمنافقين]

من شروط توبة الدَّاعي إلىٰ البدعة أن يبين أنَّ ما كان يدعو اليه بدعة وضلالة، وأن الهدىٰ في ضده؛ كما شرط تعالىٰ في توبة أهل الكتاب الذين كان

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (١٨٧، ١٨٨).

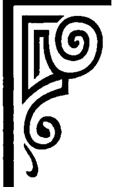
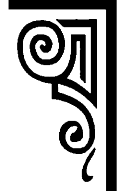
ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدىٰ ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياء وسمعة، فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان. اهـ[1].

ﮓ♦ﮔ

(١) «عدة الصابرين» (٩٠).



الباب الخامس: ما جاء في الذنوب

وفيه:

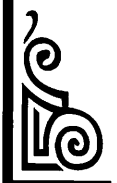
الفصل الأول: آفات المعاصي.

الفصل الثاني: النظر والعشق والزنىٰ.

الفصل الثالث: الوقاية من الذنوب.

الفصل الرابع: حِكَم من قضاء السيئات وتقدير المعاصي.

الفصل الخامس: متفرقات.










الفصل الأول: آفات المعاصي

[الفساد في الأرض بسبب المعاصي]

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلىٰ غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلىٰ طاعة الله؛ فإن عبادة غير الله، والدعوة إلىٰ غيره، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره؛ قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم.

وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلىٰ غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة؛ فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه

وبالأمر بتوحيده، ونهىٰ عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو... وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلىٰ غير الله ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلىٰ الآن، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عمومًا وخصوصًا... ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اهـ[1].

[ضرر الذنوب]

مما ينبغي أن يعلم: أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، علىٰ اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة -دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور- إلىٰ دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وأبدل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظىٰ، وبالإيمان كفرًا،

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٤).



وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان. فهان علىٰ الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالىٰ فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه. فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتىٰ علا الماء فوق رءوس الجبال؟! وما الذي سلط الريح العقيم علىٰ قوم عاد حتىٰ ألقتهم موتىٰ علىٰ وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتىٰ صاروا عبرة للأمم إلىٰ يوم القيامة؟

وما الذي أرسل علىٰ قوم ثمود الصيحة حتىٰ قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرىٰ اللوطية حتىٰ سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه علىٰ أمة غيرهم؟ ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد!

وما الذي أرسل علىٰ قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رءوسهم أمطر عليهم نارًا تلظىٰ؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلىٰ جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتىٰ خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث علىٰ بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبروا ما علوا تتبيرًا؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات؛ مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالىٰ: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الحق بن جبير بن نفير، عن أبيه، قال: «لما فتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكىٰ بعضهم إلىٰ بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق علىٰ الله ﷻ إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله، فصاروا إلىٰ ما ترىٰ...

وذكر أيضًا عن وكيع، حدثنا زكريا، عن عامر قال: كتبت عائشة إلىٰ



معاوية: «أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا».

وذكر أبو نعيم، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي الدرداء قال: «ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين، من حيث لا يشعر، ثم قال: أتدري مم هذا؟ قلت: لا. قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيُلقي الله بُغضه في قلوب المؤمنين، من حيث لا يشعر».

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه، عن محمد بن سيرين: أنه لما ركبه الدَّين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة. اهـ(١).

[نكتة مهلكة]

هاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب؛ وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسىٰ، ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يُغبر حائط في وقوعه ... فليس له بعد الوقوع غُبَار

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق؟! وكم أزالت من نعمة، وكم جلبت من نقمة؟! وما أكثر المغترين بها من العلماء الفضلاء، فضلًا عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض، ولو بعد حين، كما ينقض السم، وكما ينقض الجرح المندمل علىٰ الغش والدَّغَل.

---

(١) «الداء والدواء» (٦٤ - ٦٦).

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتىٰ، واعلموا أن قليلًا يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلىٰ، وأن الإثم لا يُنسىٰ».

ونظر بعض العبَّاد إلىٰ صبي، فتأمل محاسنه، فأتي في منامه، وقيل له: لتجدن غبها بعد أربعين سنة.

هذا مع أن للذنب نقدًا معجلًا لا يتأخر عنه؛ قال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته.

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: «اللهم لا تشمت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله ويشمت به في القيامة كل عدو».

وقال ذو النون: مَن خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية. اهـ[(١)].

[سوء الخاتمة]

إذا نظرت إلىٰ حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم علىٰ أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن لسوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- أسبابًا، ولها طرق وأبواب؛ أعظمها: الانكباب علىٰ

(١) «الداء والدواء» (٨٠، ٨١).



الدنيا، والإعراض عن الأخرىٰ، والإقدام والجرأة علىٰ معاصي الله ﷻ، وربما غلب علىٰ الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبىٰ عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة، فربما جاءه الموت علىٰ ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد.

قال: ويروىٰ أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول: قل: لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي! فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال: الناصر مولاي. وكان هذا دأبه، كلما قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي. ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل. ثم مات. قال عبد الحق: وقيل لآخر -ممن أعرفه-: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا.

قال: وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه أن رجلًا نزل به الموت، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده، يازده دن وازه، تفسيره: عشرة بأحد عشر، وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلىٰ حمام منجاب؟

قال: وهذا الكلام له قصة؛ وذلك أن رجلًا كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلىٰ حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب. فدخلت الدار، ودخل وراءها. فلما رأت نفسها في داره، وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البشرىٰ والفرح باجتماعها معه، وقالت

له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقر به عيوننا. فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين. وخرج، وتركها في الدار، ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول:

يا رب قائلة يومًا وقد تعبت: كيف الطريق إلىٰ حمام منجاب

فبينما هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجارية أجابته من طاق:

هَلَّا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها حرزًا علىٰ الدار أو قفلًا علىٰ الباب

فازداد هيمانه واشتد، ولم يزل علىٰ ذلك حتىٰ كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا. ولقد بكىٰ سفيان الثوري ليلة إلىٰ الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا؛ وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنىٰ.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمىٰ عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنىٰ.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله تعالىٰ منها- لا تكون لمن استقام



ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا ولا عُلم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقد، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذاك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويُصطلم[١] قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك، قالت: لماذا؟ قال: قد سبيت لبي، وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، وقال: أتزوجك؟ قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل. فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه.

وقال: ويروى أن رجلًا علق شخصًا فاشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه، حتى وقع ألمًا به، ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشخص عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له، فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وصرح بي، ولا أدخل مداخل الريبة، ولا أُعرِّض نفسي لمواقع التهم، فعاودته

---

(١) يُصطلم: أي يُستأصل.

فأبىٰ وانصرف، فلما سمع البائس أسقط في يده، وعاد إلىٰ أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

أسـلم يـا راحـة العليـل ويـا شـفا المـدنف النحيـل
رضـاك أشـهىٰ إلـىٰ فـؤادي مـن رحمـة الخـالق الجليـل

فقلت له: يا فلان اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتىٰ سمعت صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة. اهـ[(١)].

[من آثار التحاكم لغير الشرع]

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسُّنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلىٰ الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم، حتىٰ ربي فيها الصغير، وهرم عليها الكبير؛ فلم يروها منكرًا، فجاءتهم دولة أخرىٰ قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوىٰ مقام الرشد، والضلال مقام الهدىٰ، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نُصبت، وجيوشها قد

---

(١) «الداء والدواء» (٢٤٦- ٢٤٩).



ركبت؛ فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقُلل[١] الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس. اهـ[٢].

[أضرار الشهوة المحرمة]

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر علىٰ ما توجبه الشهوة؛ فإنها إما إن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تُضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تَثلم عِرضًا توفيره أنفع للعبد من ثَلمه، وإما أن تُذهب مالًا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تُطرِّق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تُنسي عِلمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تُشمت عدوًّا وتُحْزِن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق علىٰ نعمة مقبلة، وإما أن تُحْدِث عيبًا يبقىٰ صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق. اهـ[٣].

[آثار المعاصي]

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

---

(١) قلل الجبال: قممها.

(٢) «الفوائد» (٧٥).

(٣) «الفوائد» (٢٠٤).

فمنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور. ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأىٰ من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرىٰ الله قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

شكوتُ إلىٰ وكيع سوء حفظي … فأرشدني إلىٰ ترك المعاصي

وقال: اعلم بأنَّ العلم فضل … وفضل الله لا يُؤتاه عاصي

ومنها: حرمان الرزق؛ وفي المسند: «**إن العبد ليُحْرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١)، وكما أن تقوىٰ الله مجلبة للرزق، فترك التقوىٰ مجلبة للفقر، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلًا، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرحٍ بميت إيلام، فلو لم تُتْرك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًّا بتركها.

وشكا رجل إلىٰ بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب … فدعها إذا شئت واستأنس

وليس علىٰ القلب أمرُّ من وحشة الذنب علىٰ الذنب، فالله المستعان.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٨٢)، وابن ماجة في (الفتن)، باب (العقوبات)، (ح٤٠٢٢).



ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم؛ فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوىٰ هذه الوحشة حتىٰ تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه؛ فتراه مستوحشًا من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرىٰ ذلك في خُلق دابتي وامرأتي.

ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يتوجه لأمرٍ إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه، وهذا كما أن من اتقىٰ الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطل التقوىٰ جعل له من أمره عسرًا، ويا لله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه، وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أُتي؟

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم؛ فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره؛ فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتىٰ يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمىٰ خرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوىٰ هذه الظلمة حتىٰ تظهر في العين، ثم تقوىٰ حتىٰ تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن؛ أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتىٰ تزيل حياته بالكلية. وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه -وإن كان قوي البدن- فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلىٰ نفسه. وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

ومنها: حرمان الطاعة؛ فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله، ويقطع طريق طاعة أخرىٰ، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة، ثم رابعة، وهلم جرا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها، والله المستعان.

ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بدَّ؛ فإن البر كما يزيد في العمر، فالفجور يقصر العمر...

ومن آثار المعاصي: أنها تزرع أمثالها، وتولد بعضها بعضًا، حتىٰ يعز علىٰ العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن ثواب الحسنة الحسنة بعدها؛ فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرىٰ إلىٰ جنبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها، قالت الثالثة كذلك وهلم جرا؛ فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات. وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتىٰ تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة، وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء



حتىٰ يعاودها، فتسكن نفسه وتقر عينه. ولو عطل المجرم المعصية وأقبل علىٰ الطاعة؛ لضاقت عليه نفسه وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتىٰ يعاودها، حتىٰ إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها. كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شربت علىٰ لذة … وأخرىٰ تداويت منها بها

وقال آخر:

فكانت دوائي، وهي دائي بعينه … كما يتداوىٰ شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتىٰ يرسل الله ﷻ برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزًّا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتىٰ يرسل الله عليه الشياطين فتؤزه إليها أزًّا؛ فالأول قوَّىٰ جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أبر أعوانه، وهذا قوَّىٰ جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه. اهـ[1].

[اعتياد القلب على المعصية]

ومن آثار المعاصي أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه. وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة، حتىٰ يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها؛ فيقول: يا فلان، عملت كذا وكذا. وهذا الضرب من الناس لا

(١) «الداء والدواء» (٨٢- ٨٧).

يعافون، وتسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب؛ كما قال النبي ﷺ: **«كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرون، وإن من الإجهار: أن يستر الله علىٰ العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان، عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فهتك نفسه، وقد بات يستره ربه»**[(١)]. اهـ[(٢)].

[المعصية مهانة للعبد]

المعصية سببٌ لهوان العبد علىٰ ربه وسقوطه من عينه؛ قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد علىٰ الله لم يكرمه أحد؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وإن عظَّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتىٰ يهون عليه ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك؛ فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

وقد ذكر البخاري في صحيحه، عن ابن مسعود قال: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع؛ وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب وقع علىٰ أنفه، فقال به هكذا، فطار»[(٣)]. اهـ[(٤)].

---

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (الأدب)، (ح٦٠٦٩)، ومسلم في (الزهد والرقائق)، (ح٢٩٩٠).

(٢) «الداء والدواء» (٨٨).

(٣) الأثر رواه الترمذي في (صفة القيامة)، (ح٢٤٩٧).

(٤) «الداء والدواء» (٨٩).



[الشؤم]

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إن الحبارىٰ لتموت في وكرها من ظلم الظالم».

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السِّنة وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتىٰ الخنافس والعقارب يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم. فلا يكفيه عقاب ذنبه، حتىٰ يلعنه من لا ذنب له. اهـ(١).

[الذل]

ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بدَّ؛ فإن العز كل العز في طاعة الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فاطر: ١٠] أي: فليطلبها بطاعة الله؛ فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك.

قال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم؛ أَبَىٰ الله إلا أن يذل من عصاه.

---

(١) «الداء والدواء» (٩٠).

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها؟

. اهـ[1].

[ذهاب الغيرة]

ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن؛ فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد. وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة علىٰ نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق علىٰ الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني**»[2].

وفي الصحيح أيضًا عنه أنه قال في خطبة الكسوف: «يا أمة محمد، ما أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته»[3].

وفي الصحيح أيضًا عنه أنه قال: «لا أحد أغير من الله؛ من أجل ذلك حرم

(١) «الداء والدواء» (٩٠).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري في (الحدود)، (ح٦٨٤٦)، ومسلم في (اللعان)، (ح١٤٩٩).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري في (الكسوف)، (ح١٠٤٤)، ومسلم في (الكسوف)، (ح٩٠١).



الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه»[١]. فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، والله سبحانه -مع شدة غيرته- يحب أن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتىٰ يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان، ونهاية الكمال؛ فإن كثيرًا ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة علىٰ سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله علىٰ قبولها قلة الغيرة حتىٰ يتوسع في طرق المعاذير، ويرىٰ عذرًا ما ليس بعذر، حتىٰ يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح علىٰ الإطلاق.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله؛ فالتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة»[٢] وذكر الحديث.

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر؛ فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًّا...

---

(١) هو تتمة حديث: «**أتعجبون من غيرة سعد ...**» الوارد قبل أسطر، ولكن رواية البخاري للحديث كاملًا في كتاب (التوحيد)، (ح٧٤١٦)، كما ورد بنحوه أيضًا من حديث ابن مسعود عند مسلم في كتاب (التوبة)، (ح٢٧٦٠)، وليس فيه ذكر غيرة سعد بن عبادة.

(٢) رواه بنحوه أبو داود في (الجهاد) (ح٢٦٥٩)، والنسائي في (الزكاة)، (ح٢٥٥٨)، وأحمد (٥/ ٤٤٥).

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة علىٰ نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتىٰ لا يستقبح بعد ذلك القبيح، لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلىٰ هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك. وكثير من هؤلاء لا يقتصر علىٰ عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعىٰ له في تحصيله، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، والجنة حرام عليه، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له، فانظرْ ما الذي حملت عليه قلة الغيرة. وهذا يدلك علىٰ أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحمي القلب فتحمىٰ له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب، فتموت له الجوارح؛ فلا يبقىٰ عندها دفع ألبتة. ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلًا، ولم يجد دافعًا، فتمكن، فكان الهلاك. ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وولده، فإذا تكسرت طمع فيها عدوه. اهـ[(١)].

[ذهاب الحياء]

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «الحياء خير كله»[(٢)]. وقال: «**إن مما أدرك**

---

(١) «الداء والدواء» (١٠٢، ١٠٣).

(٢) رواه مسلم في (الإيمان)، باب (بيان عدد شعب الإيمان)، (ح٣٧).



الناس من كلام النبوة الأولىٰ: **إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[(١)]، وفيه تفسيران:

أحدهما: أنه علىٰ التهديد والوعيد؛ والمعنىٰ: من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح؛ إذ الحامل علىٰ تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح، فإنه يواقعها. وهذا تفسير أبي عبيدة.

والثاني: أن الفعل إذا لم تستح منه من الله فافعله، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحي منه من الله، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ.

فعلىٰ الأول يكون تهديدًا؛ كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، وعلىٰ الثاني: يكون إذنًا وإباحة.

فإن قيل: فهل من سبيل إلىٰ حمله علىٰ المعنيين؟

قلت: لا، ولا علىٰ قول من يحمل المشترك علىٰ جميع معانيه، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر.

والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد، حتىٰ ربما انسلخ منه بالكلية، حتىٰ إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له علىٰ ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلىٰ هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

وإذا رأىٰ إبليسُ طَلعةَ وجهه ... حيًّا وقال: فديت من لا يفلح

والحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمىٰ حيًّا -بالقصر- لأن به حياة

(١) رواه البخاري في (الأدب)، (ح٦١٢٠).

الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا، ومن استحىٰ من الله عند معصيته، استحىٰ الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح من معصيته لم يستح الله من عقوبته. اهـ[١].

[ضعف تعظيم الله تعالى]

ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جَلَّ جَلَالُهُ، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبىٰ. ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ علىٰ معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني علىٰ المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي. وهذا من مغالطة النفس؛ فإن عظمة الله تعالىٰ وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون علىٰ معاصيه ما قَدَروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المُحال، وأبين الباطل. وكفىٰ بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جَلَّ جَلَالُهُ، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عَزَّ وَجَلَّ مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم ويستخفُّون به، كما هان عليه أمره واستخفَّ به؛ فعلىٰ قدر محبة العبد لله يحبه

---

(١) «الداء والدواء» (١٠٥).

الناس، وعلىٰ قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلىٰ قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمات الله، ويطمع ألا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله علىٰ الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟ وقد أشار سبحانه إلىٰ هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطىٰ علىٰ قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالىٰ في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨] فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله؛ فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهن من أكرمه الله؟ اهـ[١].

[نسيان العبد نفسه]

ومن عقوباتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجىٰ معه نجاة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]، فأمر بتقواه ونهىٰ أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوىٰ بأن أنساه نفسه؛ أي: أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من

---

(١) «الداء والدواء» (١٠٦).

عظمته وخوفه، والقيام بأمره، فترىٰ العاصي مهملًا لمصالح نفسه، مضيعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرَّط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنىٰ ما يكون من لذة؛ إنما هي سحابة صيف، أو خيال طيف، كما قيل:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات: نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصيبها من الله، وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيَّع من لا غنىٰ له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنىٰ أو منه كل العوض:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعوض عن كل شيء ما سواه، ولا يعوض منه شيء، ويغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسىٰ ذكره ويضيع أمره حتىٰ ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه. اهـ[1].

[مغبة البعد عن المؤمنين]

من فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان، فاته حسن دفاع الله عنهم؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتبه الله في كتابه علىٰ

(١) «الداء والدواء» (١٠٧).



الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨].

ومنها: استغفار الملائكة حملة العرش لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يذل من والاه الله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

ومنها: العزة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: إعطاؤهم كفلَيْن من رحمته، وإعطاؤهم نورًا يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الود الذي يجعله سبحانه لهم؛ وهو أنه يحبهم ويحببهم إلىٰ ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلىٰ صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدىٰ لهم وشفاء: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: ٤٤].

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان، فكيف يهون علىٰ العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر علىٰ الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين علىٰ قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن هاهنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر. اهـ[1].

---

(١) «الداء والدواء» (١٠٩ – ١١١).



[زوال النعم]

ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم، وتحل النقم؛ فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة»، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فأخبر الله تعالىٰ أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها علىٰ أحد حتىٰ يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيَّر غُيِّر عليه؛ جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد. فإن غيَّر المعصية بالطاعة غيَّر الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد: ١١].

وفي بعض الآثار الإلهية، عن الرب تبارك وتعالىٰ أنه قال: **«وعزتي وجلالي، لا يكون عبد من عبيدي علىٰ ما أحب، ثم ينتقل عنه إلىٰ ما أكره، إلا انتقلت له مما يحب إلىٰ ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي علىٰ ما أكره ثم ينتقل عنه إلىٰ ما أحب، إلا انتقلت له مما يكره إلىٰ ما يحب»**.

ولقد أحسن القائل:

إذا كُنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحُطْها بطاعة ربِّ العباد ... فربُّ العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلمُ العباد شديد الوخم
وسافرْ بقلبك بين الورىٰ ... لتُبْصِر آثار مَن قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهودٌ عليهم ولا تَتَّهم
وما كان شيء عليهم أضر ... ر من الظلم وهو الذي قد قَصَم
فكم تركوا من جِنان ومن ... قصور وأخرىٰ عليهم أطَم
صلوا بالجحيم وفات النعيم ... وكان الذي نالهم كالحُلم

. اهـ(١).

[باب للمرض]

ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلىٰ مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولًا لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه؛ فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا تركها. وقد أجمع السائرون إلىٰ الله أن القلوب لا تعطىٰ مناها حتىٰ تصل إلىٰ مولاها، ولا تصل إلىٰ مولاها حتىٰ تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة

---

(١) «الداء والدواء» (١١٣، ١١٤).



سليمة حتىٰ ينقلب داؤها، فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها؛ فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد. وكما أن من نهىٰ نفسه عن الهوىٰ كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا ألبتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين، كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا. ولا تحسب أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور علىٰ نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك -أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار- فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا غير الله عُذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتىٰ يحصل، فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عودة، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتىٰ يردها الله إلىٰ أجسادها،

فحينئذ ينتقل العذاب إلىٰ نوع هو أدهىٰ وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينة بذكره؟ حتىٰ يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه، ويقول الآخر: «إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال، إنهم لفي عيش طيب»، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها»، ويقول الآخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»، ويقول الآخر: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة». فيا مَن باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرىٰ أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوِّمين.

فيا عجبًا من بضاعة معك الله مشتريها، وثمنها جنة المأوىٰ، والسفير الذي جرىٰ علىٰ يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ، وقد بعتها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه ... فمن ذا له من بعد ذلك يكرم؟

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]. اهـ[(١)].

[عمى البصيرة]

ومن عقوباتها: أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأىٰ تلك المخايل: إني أرىٰ الله

(١) «الداء والدواء» (١١٦).



تعالىٰ قد ألقىٰ عليك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوىٰ حتىٰ يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمىٰ خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب، ثم تقوىٰ تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلىٰ الجوارح، فيغشىٰ الوجه منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة؛ كما قال النبي ﷺ: «**إن هذه القبور ممتلئة علىٰ أهلها ظلمة، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم**»(١). فإذا كان يوم المعاد، وحشر العباد، علت الظلمة الوجوه علوًّا ظاهرًا يراه كل أحد، حتىٰ يصير الوجه أسود مثل الحممة، فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلىٰ آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم؟! والله المستعان. اهـ(٢).

[تقييد القلوب]

ومن عقوباتها: أنَّ العاصي دائمًا في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه؛ فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالًا من أسير أَسَرَه أعدىٰ عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوىٰ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلىٰ الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٥٠).

(٢) «الداء والدواء» (١١٨).

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا بعُد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات، وفي الحديث: «**الشيطان ذئب الإنسان**»(١). وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوىٰ؛ فهي وقاية وجُنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلىٰ الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أبعد من الراعي.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات.

والبعد عن الله مراتب، بعضها أشد من بعض؛ فالغفلة تبعد القلب عن الله، وبُعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله. اهـ(٢).

[نقصان العقل]

كيف يكون عاقلًا وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوارٍ عنه، ويستعين بنعمه علىٰ مساخطه،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٢، ٢٤٣).

(٢) «الداء والدواء» (١٢٠).

ويستدعي كل وقت غضبه عليه، ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه، وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلىٰ وجهه في زمرة أوليائه، إلىٰ أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن، علىٰ هذا النعيم المقيم، والفوز العظيم، بل هو سعادة الدنيا والآخرة؟ ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد يكون المجانين أحسن حالًا منه وأسلم عاقبة.

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيش، فلولا الاشتراك في هذا النقصان، لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا، ولكن الجائحة عامة، والجنون فنون.

ويا عجبًا لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش، إنما هو في رضاء من النعيم كله في رضاه، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرة العيون، وسرور النفوس، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأطيب النعيم، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضًا منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل علىٰ النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم

منهما، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فلا إله إلا الله، ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر، والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرًا. اهـ(١).

[القطيعة بين العبد وربه]

ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالىٰ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر، فأيُّ فلاح، وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنىٰ عنه طرفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدىٰ عدو له، فتولاه عدوه وتخلىٰ عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقىٰ بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]. يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته

(١) «الداء والدواء» (١٢٢، ١٢٣).



علىٰ غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له؛ تكريمًا له وتشريفًا، فأطاعوني، وأبىٰ عدوي وعدوه، فعصىٰ أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدىٰ عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومَن والىٰ أعداء الملك، كان هو وأعداؤه عنده سواء؛ فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال!

هذا لو لم يكن عدو الملك عدوًّا لكم، فكيف إذا كان عدوكم علىٰ الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه عدو وليه ومولاه الذي لا مولىٰ له سواه؟ ونبه سبحانه علىٰ قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ، كما نبه علىٰ قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ ، فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلىٰ معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ .

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب؛ وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة. اهـ[1].

(١) «الداء والدواء» (١٢٥، ١٢٦).

[محق البركة]

ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصىٰ الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]. وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

وفي الحديث: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب؛ فإنه لا يُنال ما عند الله إلا بطاعته، وإن الله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»(١).

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد: «أنا الله، إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهىٰ، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تدرك السابع من الولد». وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق وطول العمر بالبركة فيه.

وقد تقدم أن عُمْر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (٧/ ٧٩)، (ح٣٤٣٣٢)، وليس فيه آخر فقرة منه.



بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته؛ فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره، ومحبته، وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه. ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله، ولو تعوض عنها بما تعوض مما في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة؛ فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبتة، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحي الذي لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته ألبتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السماوات والأرض؟

وإنما كانت معصية الله سببًا لمحق بركة الرزق والأجل؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم، وحوالته علىٰ هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه، فبركته ممحوقة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالىٰ عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع؛ لما في مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة، ولا معارض له، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة؛ فإن الرب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك؛ فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه، وهي الشام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعني إلىٰ ألوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلىٰ ربوبيته وخلقه، وكل ما باعده من نفسه من

الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكل ما كان قريبًا من ذلك ففيه من البركة علىٰ حسب قربه منه.

وضد البركة اللعنة؛ فأرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة. وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان جهته فله من لعنة الله بقدر قربه واتصاله به، فمن هاهنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه، أو مال عُصي الله به، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل، فهو علىٰ صاحبه ليس له؛ فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به.

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي عنه ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها؛ إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم أو متعلم»[1].

وفي أثر آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله»، فهذا هو الذي فيه البركة خاصة، والله المستعان. اهـ[2].

---

(١) رواه الترمذي في (الزهد)، (ح٢٣٢٢)، وابن ماجة في (الزهد)، (ح٤١١٢).

(٢) «الداء والدواء» (١٢٧ - ١٢٩).



[النزول بدل الصعود]

ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السَّفلة بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العِلْية؛ فإن الله خلق خلقه قسمين: عِلْية، وسفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل المعصية الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء، كما في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار علىٰ من خالف أمري**»[١]. فكلما عمل العبد معصية نزل إلىٰ أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتىٰ يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتىٰ يكون من الأعلين.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه، والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله؛ فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة، كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض هاهنا للنفوس غلط عظيم؛ وهو أن العبد قد ينزل نزولًا بعيدًا أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، فلا يفي

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢).

صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**»(١).

فأي صعود يوازي هذه النزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلىٰ غفلة، فهذا متىٰ استيقظ من غفلته عاد إلىٰ درجته، أو إلىٰ أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم من يكون نزوله إلىٰ مباح لا ينوي به الاستعانة علىٰ الطاعة، فهذا متىٰ رجع إلىٰ الطاعة فقد يعود إلىٰ درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها؛ فإنه قد يعود أعلىٰ همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلىٰ معصية؛ إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عوده إلىٰ توبة نصوح، وإنابة صادقة.

واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلىٰ درجته التي كان فيها، بناء علىٰ أن التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجوده كعدمه فكأنه لم يكن، أو لا يعود، بناء علىٰ أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة، وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها.

قالوا: وتقرير ذلك: أنه كان مستعدًّا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصىٰ فيه لصعود آخر، وارتقاء تحمله أعماله السالفة لمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح، فقد راح عليه في

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (الرقاق)، (ح٦٤٧٧)، ومسلم في (الزهد والرقائق)، (ح٢٩٨٨).

زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعودًا من نزول، وكان قبل ذلك صاعدًا من أسفل إلىٰ أعلىٰ، وبينهما بَون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سُلمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلىٰ أسفل، ولو درجة واحدة، ثم استأنف الصعود، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين الطائفتين حكمًا مقبولًا فقال: التحقيق أن من التائبين من يعود إلىٰ أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلىٰ مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلىٰ درجته.

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشية الله؛ فقد تقوىٰ هذه الأمور حتىٰ يعود التائب إلىٰ أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة؛ فإنها نفت عنه داء العجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله، ووضعت خدَّ ضراعته وذله وانكساره علىٰ عتبة باب سيده ومولاه، وعرَّفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلىٰ حفظ سيده ومولاه له، وإلىٰ عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها، أو يرىٰ نفسه بها خيرًا من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مستحييًا منه خائفًا وجلًا، محتقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء كما قيل:

استأثر الله بالوفاء وبالحمد وولي الملامة الرجلا

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها علىٰ نفسه، ورأىٰ نفسه دونها، ولم يرها أهلًا.

وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأىٰ نفسه أهلًا لما هو أكبر منها، ورأىٰ مولاه قد أحسن إليه؛ إذ لم يعاقبه علىٰ قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنىٰ جزء منه؛ فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلًا عن هذا العبد الضعيف العاجز؛ فإن الذنب وإن صغر، فإن مقابلة العظيم -الذي لا شيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجلها- من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها؛ فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض، وملك السماوات والأرض، وإله السماوات والأرض، ولولا أن رحمته سبقت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، وإلا لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السماوات والأرض من معاصي العباد؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه هما: «الحليم، والغفور» كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السماوات والأرض.

وقد أخبر سبحانه عن كفر بعض عباده أنه: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم: ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السماوات والأرض بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقىٰ كما قيل:

نصل الذنوب إلىٰ الذنوب ونرتجي دَرَجَ الجنان لذي النعيم الخالد

ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوته الأعلىٰ بذنبٍ واحد

والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تُضْعف الخطيئة همته وتُوهن عزمه، وتُمرض قلبه، فلا يقوىٰ دواء التوبة علىٰ إعادته إلىٰ الصحة الأولىٰ، فلا يعود إلىٰ درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلىٰ مثل عمله، فيعود إلىٰ درجته.

وهذا كله إذا كان نزوله إلىٰ معصية، فإن كان نزوله إلىٰ أمر يقدح في أصل إيمانه -مثل الشكوك والريب والنفاق- فذاك نزول لا يرجىٰ لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه. اهـ[1].

[خيانة النفس لصاحبها أحوج ما يكون إليها]

ومن عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلىٰ نفسه؛ فإن كل أحد يحتاج

(١) «الداء والدواء» (١٣٠- ١٣٤).

إلىٰ معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك علىٰ التفصيل، وأقواهم وأكيسهم من قوي علىٰ نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفَّها عما يضره، وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم؛ فأعرفهم من كان عارفًا بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من آثر هذه علىٰ هذه، كما أن أسفههم من عكس الأمر. والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلىٰ نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم علىٰ الحظ الخسيس الأدنىٰ المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولىٰ به وأنفع له في الدارين. فإذا وقع في مكروه واحتاج إلىٰ التخلص منه، خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه، بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده علىٰ قائم سيفه واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به؛ كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنًا بالمرض، فإذا احتاج إلىٰ محاربة العدو لم يجد معه منه شيئًا، والعبد إنما يحارب ويصاول ويُقْدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها، فما الظن بها؟

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف؛ أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأمارة تقوىٰ وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقىٰ الحكم والتصرف للأمَّارة، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتًا لا يرتجىٰ معه حياة؛ فهذا ميت في الدنيا، ميت في الآخرة، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط.

والمقصود: أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه



وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل علىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه والجمعية عليه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبس القلب علىٰ اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينحبس القلب واللسان علىٰ الذكر، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه. وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي؛ كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهىٰ منه وأمرُّ؛ وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلىٰ الله تعالىٰ، فربما تعذَّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك، حتىٰ قيل لبعضهم: قل «لا إله إلا الله»، فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها. وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فقال: شاه، رُخ، غلبتك، ثم قضىٰ. وقيل لآخر: «قل لا إله إلا الله»، فقال:

يــا ربَّ قائلــة يومًــا وقــد تعبــتْ ... أيــن الطريــقُ إلــىٰ حمــام منجــابِ؟

ثم قضىٰ.

وقيل لآخر: «قل: لا إله إلا الله»، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تننتا، حتىٰ قضىٰ. وقيل لآخر ذلك، فقال: وما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها؟ ثم قضىٰ ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صليت لله صلاة؟ ثم قضىٰ ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، وقضىٰ.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها لساني يمسك عنها. وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله، فلس لله، فلس لله، حتىٰ قضىٰ. وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه: «لا إله إلا الله»، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترٍ جيد، هذه كذا، حتىٰ قضىٰ.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبرًا! والذي يخفىٰ عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم. فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وحال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالىٰ، وعطل لسانه عن ذكره وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟ وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته؛ فإن ذلك آخر العمل، فأقوىٰ ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترىٰ يسلم علىٰ ذلك؟ فهناك: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا، فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالىٰ، غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته، أن يوفق للخاتمة بالحسنىٰ.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾



سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ [القلم: ٣٩، ٤٠]. اهـ[1].

[عمى القلب]

ومن عقوباتها: أنها تعمي القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد، فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدىٰ وقوته علىٰ تنفيذه في نفسه وفي غيره، بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإن الكمال الإنساني مداره علىٰ أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه. وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنىٰ الله سبحانه علىٰ أنبيائه بهما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص: ٤٥]، فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم علىٰ الله تعالىٰ.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة علىٰ تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذىٰ العيون وحمىٰ الأرواح وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له علىٰ تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير

(١) «الداء والدواء» (١٣٦ - ١٣٨).

وأحب إلىٰ الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة؛ لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورمَ شحمًا، والدواء النافع سُمًّا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوىٰ القسم الأول؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر -الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين- علىٰ أن من عداهم فهو من الخاسرين؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١- ٣]. ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتىٰ يوصي بعضهم بعضًا به ويرشده إليه ويحضه عليه.

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسرًا، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد علىٰ القلب حتىٰ ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره؛ فيدرك الباطل حقًّا والحق باطلًا، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، فينتكس في سيره ويرجع عن سفره إلىٰ الله والدار الآخرة، إلىٰ سفره إلىٰ مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت لها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت داعية إلىٰ تركها والبعد منها، والله المستعان.



وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله، وتقويه وتثبته حتىٰ يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نورًا، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يَفْرُق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتىٰ إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعًا، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسي، وبه نظرة من الإنس:

فيا نظرة من قلب حُرٍّ مُنوَّر يكاد لها الشيطان بالنور يُحرق

أفيستوي هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه، مختلفة أهواؤه، قد اتخذه الشيطان وطنه وأعدَّه مسكنه، إذا تصبَّح بطلعته حياه، وقال: فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أخراه. اهـ[1].

[عون للعدو]

ومن عقوباتها: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به علىٰ حربه؛ وذلك أن الله سبحانه ابتلىٰ هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ولا ينام منه ولا يغفل عنه؛ يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر علىٰ إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس؛ فقد نصب له الحبائل، وبغىٰ له الغوائل، ومد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم

---

(١) «الداء والدواء» (١٣٩ - ١٤١).

عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرىٰ علي وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ قد فاتنا شركة صالحيهم في الجنة. وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأمرنا أن نأخذ له أهبته، ونعد له عدته. ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو، وأنه قد سُلط عليهم، أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلىٰ الآخرة كنفس واحد من أنفاسها؛ واشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقتِلون ويُقتلون، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وأخبر أنه لا أوفىٰ بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلىٰ المشتري من هو؟ وإلىٰ الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلىٰ من جرىٰ علىٰ يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا؟ وأي تجارة أربح منه؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠- ١٣]. ولم يسلط سبحانه هذا العدو علىٰ عبده المؤمن -الذي هو أحب المخلوقات إليه- إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات،



وأقربهم إليه وسيلة، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذي هو محل معرفته ومحبته، وعبوديته والإخلاص له، والتوكل عليه والإنابة إليه، فولاه أمر هذه الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، يعقب بعضهم بعضًا، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه؛ فأرسل إليه رسوله ﷺ وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلىٰ قوته، ومددًا إلىٰ مدده، وعدة إلىٰ عدته، وأمده مع ذلك بالعقل وزيرًا له ومدبرًا، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له، وبالإيمان مثبتًا له ومؤيدًا وناصرًا، وباليقين كاشفًا له عن حقيقة الأمر، حتىٰ كأنه يعاين ما وعد الله تعالىٰ به أولياءه وحزبه علىٰ جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمدَّ سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوىٰ الظاهرة والباطنة؛ فجعل العين طليعته، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتولىٰ سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال: هؤلاء حزبي، وحزب الله هم المفلحون؛ قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهؤلاء جندي: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: ١٧٣].

وعلَّم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة؛ فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو؛ وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلىٰ أمر آخر وهو المرابطة؛ وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منه. فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوىٰ الله تعالىٰ؛ فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوىٰ، ولا تقوم التقوىٰ إلا علىٰ ساق الصبر. اهـ[1].

[إزالة النعم]

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة؛ فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل؛ فإن نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استُجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا يُنال إلا بطاعته، وقد جعل الله

---

(١) «الداء والدواء» (١٤٤ - ١٤٦).



سبحانه لكل شيء سببًا وآفة: سببًا يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته علىٰ عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتىٰ عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره، وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم علىٰ معصية الله؛ كأنه مستثنىٰ من هذه الجملة، أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار علىٰ الناس لا عليه، وواصل إلىٰ الخلق لا إليه، فأي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير. اهـ[1].

[بُعْد المَلَك عن العبد]

ومن عقوباتها: أنها تباعد عن العبد وليه وأنفع الخلق له وأنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه وأغش الخلق له، وأعظمهم ضررًا له؛ وهو الشيطان؛ فإن العبد إذا عصىٰ الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتىٰ إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة:

وفي بعض الآثار: «**إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلًا من نتن ريحه**»؛ فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك، وأفحش منه؟

وقال بعض السلف: «إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلىٰ الله،

(١) «الداء والدواء» (١٥٩).

وهربت الملائكة إلىٰ ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت».

وقال بعض السلف: «إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان؛ فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله، طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان».

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتىٰ يصير الحكم والطاعة والغلبة له؛ فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]. وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم؛ فثبته وعلمه، وقوَّىٰ جنانه، وأيده؛ قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢] فيقول له الملك عند الموت: «لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالذي يسرك»، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة. فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره؛ يحارب عنه عدوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به، ويحثه علىٰ التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يُروىٰ مرفوعًا وموقوفًا: «**إن للملك بقلب ابن آدم لَمَّة، وللشيطان لمة، فلمَّة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق**»(١).

---

(١) رواه الترمذي بنحوه في (تفسير القرآن، سورة البقرة)، (ح٢٩٨٨)، وقال: حسن غريب.



وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم علىٰ لسانه، وألقىٰ علىٰ لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان، تكلم علىٰ لسانه، وألقىٰ عليه قول الزور والفحش، حتىٰ يُرَىٰ الرجل يتكلم علىٰ لسانه الملك، والرجل يتكلم علىٰ لسانه الشيطان.

وفي الحديث: «**إن السكينة تنطق علىٰ لسان عمر**»[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاه علىٰ لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما ألقاها علىٰ لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقي بالقلب الحق ويلقيه علىٰ اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه علىٰ اللسان.

فمن عقوبة المعاصي: أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتىٰ إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه؛ كما اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها علىٰ صاحبه، فقام النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، لما رددت عليه بعض قوله قمت؟ فقال: «**كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس**»[2].

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمَّن الملك علىٰ دعائه، وقال: «**ولك**

---

(١) هو أثر موقوف علىٰ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزكي به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه أحمد في «المسند» [موسوعة الكتب التسعة- قرص مدمج].

(٢) روىٰ نحوه أبو داود في (الأدب)، باب (في الانتصار)، (ح٤٨٩٦)، وفيه: أن الرجل الذي كان ينافح عنه الملك هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بمثله»[١]. وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة علىٰ دعائه، وإذا أذنب العبد الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله. وإذا نام العبد علىٰ وضوء بات في شعاره ملك؛ فملكُ المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه، ويعلمه ويثبته ويشجعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده؛ فإنه ضيفه وجاره. وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلىٰ الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟ وإذا آذىٰ العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال: لا جزاك الله خيرًا، كما يدعو له إذ أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: «إن معكم من لا يفارقكم، فاستحيوا منهم وأكرموهم».

ولا ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر، ولا يجله ولا يوقره، وقد نبه سبحانه علىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢] أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذىٰ ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد عمل مثل عمله، فما الظن بأذىٰ الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان. اهـ[٢].

---

(١) رواه مسلم في (الذكر والدعاء)، باب (فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب)، (ح٢٧٣٢).
(٢) «الداء والدواء» (١٦٠- ١٦٣).



[خسف القلب ومسخه]

ومنها: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه؛ فيخسف به إلىٰ أسفل السافلين، وصاحبه لا يشعر. وعلامة الخسف به: أنه لا يزال جوالًا حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقرَّبه إليه لا يزال جوالًا حول البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.

قال بعض السلف: «إن هذه القلوب جوالة؛ فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُش».

ومنها: مسخ القلب؛ فيمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب علىٰ قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته؛ فمن القلوب ما يمسخ علىٰ قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ علىٰ قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان ابن عيينة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] قال: منهم من يكون علىٰ أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون علىٰ أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاوس في ريشه، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم من يؤثر علىٰ نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالىٰ أهل الجهل والغي بالحمر تارة،

وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوىٰ هذه المشابهة باطنًا حتىٰ تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيًّا، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كل أحد، ولا يزال يقوىٰ حتىٰ تستشنع الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله ﷻ الصورة الظاهرة علىٰ صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر، وقلب ممسوخ وقلب مخسوف به، وكم من مفتون بثناء الناس عليه، ومغرور بستر الله عليه، ومستدرج بنعم الله عليه، وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة. اهـ[(١)].

[المعيشة الضنك]

ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤]. وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنىٰ؛ فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك علىٰ الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا

---

(١) «الداء والدواء» (١٧٦ - ١٧٨).



والرياسة، وإن لم ينضم إلىٰ ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر؛ فإنه يفيق صاحبه ويصحو وسكر الهوىٰ وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقرُّ العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل؛ فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات، والله تعالىٰ إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنىٰ يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين.

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٣٠]، ونظيرها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا علىٰ الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس، وسرور القلب، وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، وهو النعيم علىٰ الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما

نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذه الجنة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَق الذكر**»(١)، وقال: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»(٢).

ولا تظن أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأيُّ لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تبارك وتعالىٰ ومحبته، والعمل علىٰ موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنىٰ الله ﷻ علىٰ خليله عليه السلام بسلامة قلبه، فقال: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا

---

(١) رواه الترمذي في (الدعوات)، باب (عقد التسبيح باليد)، (ح٣٥١٠)، وقال: حسن غريب، وأحمد (٣/ ١٥٠).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري في مواضع منها كتاب (الحج)، (ح١٨٨٨)، ومسلم في (الحج)، (ح١٢٩٠).

بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغلِّ والحقد والحسد والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقًا حتىٰ يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السُّنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوىٰ يناقض التجريد والإخلاص. اهـ[1].

١٠♦١٠

---

(١) «الداء والدواء» (١٧٩- ١٨١).

الفصل الثاني: النظر والعشق والزنا

[الـزنـــا]

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس؛ من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر؛ ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا. وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، فأخبر عن فحشه في نفسه؛ وهو القبيح الذي قد تناهىٰ قبحه حتىٰ استقر فحشه في العقول حتىٰ عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا زنا بقردة،

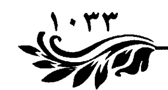
فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتىٰ ماتا»[(١)].

ثم أخبر عن غايته بأنه «ساء سبيلًا» فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة. ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبح خصه بمزيد ذم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢]، وعلق سبحانه فلاح العبد علىٰ حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلىٰ الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون: ١- ٧].

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين؛ ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

ونظير هذا: أنه سبحانه ذم الإنسان، وأنه خلق هلوعًا لا يصبر علىٰ سراء ولا ضراء، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع؛ إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ [المعارج: ٢٩- ٣١] فأمر الله تعالىٰ نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع

(١) رواه البخاري في (المناقب)، باب (القسامة في الجاهلية)، (ح٣٨٤٩).



عليها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩].

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا علىٰ حفظ الفرج؛ فإن الحوادث مبدؤها من البصر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة، ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه علىٰ هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط علىٰ ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار، ويتبر ما علا تتبيرًا. اهـ(١).

[آفات الزنا]

الزنا يجمع خلال الشر كلها من: قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة؛ فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة علىٰ صديق، ولا غيرة تامة علىٰ أهله، فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من القلب مِن شُعَبه وموجباته.

ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجل إلىٰ ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة. ومنها سوادُ الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها ظُلمة القلب وطمس نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له. ومنها الفقر اللازم، وفي أثر يقول الله تعالىٰ: «**أنا الله مهلك الطغاة، ومفقر الزناة**».

---

(١) «الداء والدواء» (٢٢٣- ٢٢٥).

ومنها: أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء؛ وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها؛ كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن؛ كما في الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(١)، فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان. وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرة في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرىٰ خارجة عنها وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنىٰ العبد خرج من هذه ولم يخرج من هذه. ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمَّىٰ مؤمنًا؛ كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمَّىٰ به عالمًا فقيهًا، ومعه جزء من الشجاعة والجود ولا يسمَّىٰ بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيء من التقوىٰ ولا يسمىٰ مُتَّقيًا، ونظائره. فالصواب إجراء الحديث علىٰ ظاهره ولا يتأول بما يخالف ظاهره، والله أعلم.

ومنها: أن يعرض نفسه لسكنىٰ التنور الذي رأىٰ النبي ﷺ فيه الزناة والزواني.

ومنها: أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: ٢٦].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في مواضع منها كتاب (المظالم والغصب)، (ح٢٤٧٥)، ومسلم في (الإيمان)، (ح٥٧).

وقد حرم الله الجنة علىٰ كل خبيث، بل جعلها مأوىٰ الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]، فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم. والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب وجعل الخبيث بعضه علىٰ بعض، ثم ألقاه وألقىٰ أهله في جهنم، فلا يدخل النار طيب، ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله ﷻ في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه؛ فالعفيف علىٰ وجهه حلاوة وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به.

ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم؛ بخلاف العفيف فإنه يرزق المهابة والحلاوة.

ومنها: أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحد علىٰ حرمته ولا علىٰ ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوح عليه يشمها كل ذي قلب سليم تفوح من فيه وجسده، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه، ولكن كما قيل:

كُلٌّ بِهِ مِثْلُ مَا بِي غَيْرَ أَنَّهُمُ ... مِنْ غَيْرَةٍ بَعْضُهُمْ لِلْبَعْضِ عُذَّالُ

ومنها: ضيقة الصدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده؛ فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلىٰ خير قط. ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش، لرأىٰ أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له، دع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنها: أنه يُعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن، وقد تقدم أن الله ﷻ إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتع بالصور المحرمة في الدنيا -بل كل ما ناله العبد في الدنيا- فإن توسع في حلاله ضيق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه، وإن ناله من حرامٍ فاته نظيره يوم القيامة.

ومنها: أن الزنا يجرئه علىٰ قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسب الحرام، وظلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسرًا إلىٰ سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها، ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصي بعدها؛ فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند بعدها، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عزَّ علىٰ الناصحين استنقاذه، وأعيىٰ الأطباء دواؤه؛ فأسيرها لا يفدىٰ، وقتيلها لا يودىٰ، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلي بها عبد فليُودع نعم الله فإنها ضيف سريع الانتقال وشيك الزوال؛ قال



الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١]. اهـ[١].

[آثار الزنا]

قال ﷺ: «**أكثر ما يدخل الناس النار: الفم والفرج**»[٢].

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدىٰ ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٣]. وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان، ونظير حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، والذي يليه؛ فالزنا أكثر وقوعًا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعًا من الردة. وأيضًا فإنه انتقال من الأكبر إلىٰ ما هو أكبر منه. ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم؛ فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار علىٰ أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رءوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن حملت علىٰ الزوج أدخلت علىٰ أهله وأهلها أجنبيًّا ليس منهم؛ فورثهم وليس منهم، ورآهم، وخلا بهم، وانتسب إليهم، وليس منهم؛ إلىٰ غير ذلك من مفاسد زناها.

---

(١) «روضة المحبين» (٣٠٧- ٣٠٩).

(٢) رواه الترمذي في (البر والصلة)، باب (حسن الخلق)، (ح٢٠٠٤)، وأحمد (٢/ ٢٩١).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري في (الديات)، (ح٦٨٧٨)، ومسلم في (القسامة والمحاربين)، (ح١٦٧٦).

وأما زنا الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمَّرت القبور في البرزخ، والنار في الآخرة، فكم في الزنا من استحلال الحرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك، ويقربه من الشيطان. فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل علىٰ أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنتْ.

وقال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصفح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**تعجبون من غيرة سعد؟ واللهِ لأنا أغير منه، واللهُ أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(١)، متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: «**إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه ص٩٨٦ هامش (٢).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري في (النكاح)، باب (الغيرة)، (ح٥٢٢٣)، ومسلم في (التوبة)، (ح٢٧٦١).

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه**»[١].

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: «**يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته. يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ثم رفع يديه، وقال: اللهم هل بلغت؟**»[٢].

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله.

وظهور الزنا من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة؛ كما في الصحيحين، عن أنس بن مالك أنه قال: لأحدثنكم حديثًا لايحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء حتىٰ يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»[٣].

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله ﷻ، ويشتد غضبه، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة؛ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما

---

(١) هو تتمة حديث: «**أتعجبون من غيرة سعد**»، وانظر: ص٩٨٦ هامش (٢).

(٢) سبق تخريجه ص ٩٨٧ هامش (١).

(٣) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في مواضع منها كتاب (النكاح)، (ح٥٢٣١)، ومسلم في (العلم)، (ح٢٦٧١).

ظهر الربا والزنا في قريةٍ إلا أذن الله بإهلاكها».

وخص سبحانه حد الزنا من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه أشنع القتلات، وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة علىٰ البدن بالجلد، وعلىٰ القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهىٰ عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم؛ فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره. وهذا -وإن كان عامًّا في سائر الحدود- ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة إلىٰ ذكره؛ فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة علىٰ الزاني ما يجدونه علىٰ السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة، وتحملهم علىٰ تعطيل حد الله.

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأرذال، وفي النفوس أقوىٰ الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة علىٰ رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر؛ فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكىٰ لنا من ذلك شيئًا كثيرًا، أكثره عن ناقصي العقول كالخدام والنساء.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالبًا ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه

من العدوان والظلم والاغتصاب ما ينفر النفوس منه، وفي النفوس شهوة غالبة له، فيصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد. وهذا كله من ضعف الإيمان. وكمال الإيمان أن يقوم به قوة يقيم بها أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربه تعالىٰ في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر. وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالىٰ لقوم لوط بالقذف بالحجارة؛ وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره؛ فإن في اللواط من المفاسد ما يفوق الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتىٰ؛ فإنه يفسد فسادًا لا يرجىٰ له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحيي بعد ذلك من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل كما يعمل السم في البدن. اهـ[١].

[النظر أصل الحوادث]

اللحظات هي رائدة الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج؛ فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات، وقال النبي ﷺ: «**لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولىٰ، وليس لك الأخرىٰ**»[٢].

---

(١) «الداء والدواء» (٢٤٠- ٢٤٤).

(٢) رواه أبو داود في (النكاح)، باب (ما يؤمر به من غض البصر)، (ح٢١٤٩)، والترمذي في (الأدب)، باب (نظرة الفجأة)، (ح٢٧٧٧)، وقال: حسن غريب.

وفي المسند عنه ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»(١)، فمن غضَّ بصره عن محاسن امرأة لله أورث اللهُ قلبه حلاوة إلىٰ يوم يلقاه. هذا معنىٰ الحديث.

وقال: «غضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم»(٢)، وقال: **«إياكم والجلوس علىٰ الطرقات. قالوا: يا رسول الله، مجالسنا ما لنا منها بدٌّ. قال: فإن كنتم لا بد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر، وكف الأذىٰ، ورد السلام»**(٣).

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة تقوىٰ فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع. وفي هذا قيل: «الصبر علىٰ غض البصر أيسر من الصبر علىٰ ألم ما بعده»، قال الشاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة بلغت من قلب صاحبها ... كمبلغ السهم بين القوس والوتر

والعبد ما دام ذا طرف يقلبه ... في أعين العِين موقوف علىٰ الخطر

يَسرُّ مقلته ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٧٣)، (ح١٠٣٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٤٩)، (ح٧٨٧٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٩٥، ١٩٦)، (ح٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٥٠٦)، (ح٢٧١)، وغيرهما.

(٣) **متفق عليه**: رواه بنحوه البخاري في (المظالم والغصب)، (ح٢٤٦٥)، ومسلم في (اللباس والزينة)، (ح٢١٢١).



ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات؛ فيرىٰ العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه. وهذا من أعظم العذاب أن ترىٰ ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك علىٰ بعضه؛ قال الشاعر:

وكنت متىٰ أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج إلىٰ شرح؛ ومراده: أنك ترىٰ ما لا تصبر عن شيء منه، ولا تقدر عليه؛ فإن قوله: «لا كله أنت قادر عليه» نفي لقدرته علىٰ الكل الذي لا ينفىٰ إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد.

وكم ممن أرسل لحظاته، فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلًا، كما قيل:

يا ناظرًا، ما أقلعت لحظاته ... حتىٰ تشحط بينهن قتيلا

ولي من أبيات:

ملَّ السلامة فاغتدت لحظاتُه ... وقفًا علىٰ طلل يظن جميلا

ما زال يمبع إثره لحظاته ... حتىٰ تشحط بينهن قتيلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلىٰ المنظور إليه، حتىٰ يتبوأ مكانًا من قلب الناظر، ولي من قصيدة:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب

يا باعث الطرف يرتاد الشفاء له ... احبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك أن النظرة تجرح القلب جرحًا، فيتبعها جرحًا علىٰ

جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها.

ولي أيضًا في هذا المعنىٰ:

مــا زلــت تتبــع نظــرة في نظــرة	في إثـــر كـــل مليحـــة ومليـــح
وتظــن ذاك دواء جرحــك وهــو في	التــحقيق تجــريح علــىٰ تجــريح
فــذبحت طرفــك باللحــاظ وبالبكــا	فالقلـــب منـــك ذبـــيح أي ذبـــيح

وقد قيل: إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات. اهـ[1].

[عشق الصور]

عشق الصور إنما تُبتلىٰ به القلوب الفارغة من محبة الله تعالىٰ، المعرضة عنه، المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلىٰ لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور؛ ولهذا قال تعالىٰ في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، فدل علىٰ أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ؛ يعني فارغًا مما سوىٰ معشوقه. قال تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠] أي: فارغًا من كل شيء إلا من موسىٰ لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به. اهـ[2].

---

(١) «الداء والدواء» (٢٢٦- ٢٢٨).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٢٦٨).



[تكرار النظر هل هو علاج؟]

سُئل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تكرار النظر للمرأة حتىٰ لا يتعلق قلبه بها، فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أوجه:

أحدها: أن الله سبحانه أمر بغض البصر، ولم يجعل شفاء القلب فيما حرَّمه علىٰ العبد.

الثاني: أن النبي ﷺ سئل عن نظر الفجأة، وقد علم أنه يؤثر في القلب، فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه صرح بأن الأولىٰ له وليست له الثانية، ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقصه، والتجربة شاهدة به، والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسن المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأىٰ ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لتتم البلية.

السابع: أنه لا يُعان علىٰ بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوىٰ بما حرمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولىٰ سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سمًّا، فكيف يتداوىٰ من السم بالسم؟

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق ﷻ في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًا تركه، فإذًا يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه، لا لله تعالىٰ، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟!

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال؛ وهو أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلىٰ درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوةً أو خطوتين فصح بها وردها إلىٰ وراء عاجلًا قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلىٰ ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتىٰ ولجت وسقتها داخلًا، ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقها إلىٰ داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب، فإن عَجِلَ الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلىٰ قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال شجرة الحب تنمىٰ حتىٰ يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أُمر به، فيخرج صاحبه إلىٰ المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن، ويُلقي القلب في التلف. والسببُ في هذا أن الناظر التذت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة؛ كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غضَّ أولًا لاستراح قلبه وسلم، وتأمل قول النبي ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من**



سهام إبليس»[(١)]، فإن السهم شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر استفرغه وإلا قتله ولا بد.

قال المروذي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلىٰ المملوكة، قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره وقلبه وذكره، وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها وقلبها وعَجُزها». اهـ[(٢)].

[دواء العشق]

دواء هذا الداء القتَّال: أن يعرف أن ما ابتلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد، إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولًا، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلىٰ الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يراجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله؛ وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه؛ فإن القلب إذا أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

---

(١) سبق تخريجه ص١٠٤٢، هامش (١).

(٢) «روضة المحبين» (٨٥، ٨٦).

أتـاني هواهـا قبـل أن أعـرف الهـوىٰ فصــادف قلبًــا خاليًــا فتمكنــا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرىٰ فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي؛ فالعلمي: طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة؛ وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالىٰ وذكره؛ فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

والثاني: عذاب قلبه به؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به ولا بد، كما قيل:

فمـا في الأرض أشـقىٰ مـن محـب وإن وجـد الهـوىٰ حلـو المـذاق

تــراه باكيًــا في كــل حــين مخافــة فرقــة أو لاشــتياق

فيبكــي إن نــأوا شــوقًا إلــيهم ويبكــي إن دنــوا خــوف الفــراق

فتســخن عينــه عنــد الفــراق وتســخن عينــه عنــد التلاقــي

والعشق، وإن استعذبه صاحبه، فهو أعظم من عذاب القلب.

الثالث: أن قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردىٰ، والطفل يلهو ويلعب، كما قال بعض هؤلاء:



ملكتَ فؤادي بالقطيعة والجفا … وأنت خلي البال تلهو وتلعب
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق … وعيش الخلي عيش المسيب
طليق برأي العين وهو أسير … غليل على قطب الهلاك يدور
وميت يُرىٰ في صورة الحي غاديا … وليس له حتىٰ النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه … فليس له حتىٰ الممات حضور

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه؛ فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور؛ أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله علىٰ الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلىٰ عشاق الصور من النار في يابس الحطب؛ وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بَعُدَ من الله؛ فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية، واستولىٰ عليه ولم يدع أذىٰ يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق علىٰ غيه وفساده، وبعد منه وليه، ومن لا سعادة له ولا فرح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه، أفسد الذهن، وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها. وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهد

بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقل مجنون ليلىٰ وأضرابه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه علىٰ جنون غيره، كما قيل:

قالوا: جننت بمن تهوىٰ، فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها؛ إما إفسادًا معنويًّا أو صوريًّا؛ أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب؛ فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرىٰ القبيح حسنًا منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعًا: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»[(١)]، فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه، فلا ترىٰ العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلىٰ العذل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب؛ فالراغب في الشيء لا يرىٰ عيوبه، حتىٰ إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه؛ فشدة الرغبة غشاوة علىٰ العين تمنع من رؤية الشيء علىٰ ما هو به، كما قيل:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرىٰ عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرىٰ عيوبه، ولا يرىٰ عيوبه إلا من دخل فيه، ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنتقض عُرىٰ الإسلام عروة عروة إذا

---

(١) رواه أبو داود في (الأدب)، باب (في الهوىٰ)، (ح٥١٣٠)، وأحمد (٥/ ١٩٤).



ولد في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وأمَّا فساد الحواس ظاهرًا؛ فإنه يُمرض البدن وينهكه، وربما أدىٰ إلىٰ تلفه، كما هو المعروف في أخبار من قتلهم العشق. وقد رفع إلىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو بعرفة شاب قد انتحل حتىٰ عاد جلدًا علىٰ عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة، بحيث يستولي المعشوق علىٰ قلب العاشق، حتىٰ لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات علىٰ البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحب أول ما يكون لجاجة ... يأتي بها وتسوقه الأقدار

حتىٰ إذا خاض الفتىٰ لجج الهوىٰ ... جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، إن لم تتداركه عناية من الله تعالىٰ، كما قيل:

وعِشْ خاليًا فالحب أوله عنا ... وأوسطه سقم، وآخره قتل

وقال الآخر:

تولع بالعشق حتىٰ عشق ... فلما استقل به لم يطق

رأىٰ لجـــة ظنهـــا موجـــة فلمـــا تمكـــن منهـــا غـــرق

والذنب له؛ فهو الجاني علىٰ نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: «يداك أوكتا، وفوك نفخ». اهـ[1].

[حب الله تعالى وعشق الصور لا يجتمعان]

لا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلىٰ وعشق الصور أبدًا، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لا بد أن يُخرج أحدهما صاحبه؛ فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلىٰ الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب علىٰ صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة له إلىٰ محبته، أو قاطعًا له عما يضاد محبته وينقصها. والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وألا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه، ويعده كاذبًا في دعوىٰ محبته، مع أنه ليس أهلًا لصرف كل قوة المحبة إليه، فكيف بالحبيب الأعلىٰ الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب علىٰ صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم، ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده، فليختر العبد إحدىٰ المحبتين، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه، بل من أعرض عن محبة الله وذكره

---

(١) «الداء والدواء» (٣١٣- ٣١٧).



والشوق إلىٰ لقائه، ابتلاه بمحبة غيره؛ فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة؛ فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصلبان، أو بمحبة المردان، أو بمحبة النسوان، أو بمحبة العشراء والإخوان، أو بمحبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان، فالإنسان عبد محبوبه كائنًا من كان، كما قيل:

أنت القتيل بكل من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوىٰ من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه، كان إلهه هواه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. اهـ[١].

[فوائد غض البصر]

في غض البصر عدة فوائد:

أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة؛ فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء علىٰ القلب إرسال البصر؛ فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه.

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرْمىٰ في الحشيش اليابس، فإن لم يُحرقه كله أحرقت بعضه، والناظر يرمي من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر؛ فهو إنما يرمي قلبه.

---

(١) «الداء والدواء» (٢٦٩، ٢٧٠).

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه.

ولهذا -والله أعلم- ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالىٰ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] عقيب قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٥]، وجاء الحديث مطابقًا لهذا حتىٰ كأنه مشتق منه وهو قوله: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نورًا**»(١) الحديث.

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفراسة؛ فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب صحت الفراسة.

وقال شجاع الكرماني: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطئ فراسته. وكان شجاع لا تخطئ له فراسة، والله ﷻ يجزي العبد علىٰ عمله بما هو من جنسه؛ فمن غض بصره عن المحارم عوَّضه الله ﷻ إطلاق نور بصيرته، فلما حبس بصره لله أطلق الله نور بصيرته، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه؛ وذلك بسبب نور القلب، ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبه وأظلم، وانسدَّ عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٤٢، هامش (١).

البصيرة مع سلطان الحجة، وفي الأثر: «إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله»، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه علىٰ رضاه، قال الحسن: «إنهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين إن ذل المعصية لفي قلوبهم؛ أبىٰ الله إلا أن يذلَّ من عصاه».

الفائدة السادسة: أنه يورث القلب سرورًا وفرحةً وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر؛ وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا فإنه لما كف لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرة نفسه الأمارة بالسوء، أعاضه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب. ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذة أكمل من لذة موافقة الهوىٰ بما لا نسبة بينهما. وهاهنا يمتاز العقل من الهوىٰ.

والفائدة السابعة: أنه يخلص القلب من أسر الشهوة؛ فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسير

ومتىٰ أسرت الشهوةُ والهوىٰ القلبَ تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار:

كعصفورة في كفِّ طفلٍ يسومها ... حياض الردىٰ والطفلُ يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم؛ فإن النظر باب الشهوة الحاملة علىٰ مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالىٰ وشرعه حجاب مانع من الوصول، فمتىٰ

هتك الحجاب ضري على المحظور ولم تقف نفسه منه عند غاية؛ فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يقنعه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا وأطيب مخبرًا، فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة: أنه يقوي عقله ويزيده ويثبته؛ فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب؛ فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب. ومرسلُ النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره؛ قال الشاعر:

وأعقل الناس من لم يرتكب سببًا ... حتى يفكر ما تجني عواقبه

الفائدة العاشرة: أنه يخلص القلب من سُكر الشهوة ورقدة الغفلة؛ فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق؛ كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢] فالنظرة كأسٌ من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر؛ فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة ... ومتى إفاقته من به سُكران؟

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعافُ أضعاف ما ذكرنا. اهـ[1].

---

(١) «روضة المحبين» (٨٨- ٩٤).



[فوائد غض البصر (٢)]

في غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله سبحانه الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده؛ فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالىٰ، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم -الذي لعل فيه هلاكه- إلىٰ قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية عليه؛ فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته، ويبعده من الله سبحانه، وليس علىٰ القلب شيء أضر من إطلاق البصر؛ فإنه يورث الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر؛ فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال إثر ذلك: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥] أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما

شئت من بدع وضلالة، واتباع هوىٰ، واجتناب هدىٰ، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة؛ فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا نفذ ذلك النور بقي صاحبه كالأعمىٰ الذي يجوس في حنادس الظلام.

السادسة: أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصادق والكاذب،وكان شجاع الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذىٰ بالحلال، لم تخطئ له فراسة. وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد علىٰ عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه؛ فإذا غض بصره عن محارم الله، عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبس بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة القلب، وضد هذا ما وصف الله به اللوطيين من العمه الذي هو ضد البصيرة، فقال تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمه الذي هو فساد البصيرة؛ فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسكر القلب؛ كما قال القائل:

سكران: سكر هوىٰ، وسكر مدامة ... ومتىٰ إفاق من به سُكرانِ

وقال الآخر:

قالوا: جننت بمن تهوىٰ؟ فقلت ... العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين



السابعة: أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة؛ فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: «الذي يخالف هواه يَفْرُق الشيطان من ظله». وضد هذا تجد في المتبع لهواه -من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها- ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه، كما قال الحسن: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية في رقابهم؛ أبىٰ الله إلا أن يذل من عصاه». وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته، والذل قرين معصيته؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]. والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن، وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر: ١٠] أي: من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح. وفي دعاء القنوت: «**إنه لا يذل مَن واليت، ولا يعز مَن عاديت**»، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسد علىٰ الشيطان مدخله إلىٰ القلب؛ فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلىٰ القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه، ويزينها ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب ثم يَعِده ويمنِّيه، ويوقد علىٰ القلب نار الشهوة، ويلقي عليها حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهب، فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات؛ فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو في

وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة: أن جعل لهم في البرزخ تنور من النار، وأودعت أرواحهم فيه إلىٰ يوم حشر أجسادهم، كما أراها الله لنبيه ﷺ في المنام في الحديث المتفق علىٰ صحته.

التاسعة: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أمره ويقع في اتباع هواه، وفي الغفلة عن ذكر ربه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنىٰ معرفة الله ومحبته والإنابة إليه، والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلىٰ بعض فوائد غض البصر تطلعك علىٰ ما وراءها. اهـ[1].

❊

(١) «الداء والدواء» (٢٦٤ - ٢٦٨).



الفصل الثالث: الوقاية من الذنوب

[تدرج الشيطان]

الشيطان يريد أن يظفر بالعبد في عَقَبة من سبع عَقَبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلىٰ ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولىٰ: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه؛ فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردتْ نارُ عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه علىٰ:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة: إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرىٰ، كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال؛ فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام؛ تضج منهم العباد والبلاد إلىٰ الله تعالىٰ.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلَص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة

المتابعة، وما مضىٰ عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحتْ به نَصَب له أهل البدع الحبائل، وبغوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه علىٰ:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر؛ فإن ظفر به فيها زيَّنها له، وحسنها في عينه، وسوف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرىٰ علىٰ لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق؛ وهي قوله: «لا يَضُر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة»، والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول علىٰ الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد علىٰ إطفاء نور السنة، وتولية مَن عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق؛ بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق علىٰ القلوب، وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلىٰ كبيرها، حتىٰ ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمىٰ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]،



فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه علىٰ:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر؛ فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمَم، أو ما علمت بأنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهون عليه أمرها حتىٰ يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالًا منه؛ فالإصرار علىٰ الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، ثم ضرب لذلك مثلًا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود، حتىٰ جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوا نارًا، وأنضجوا خبزتهم؛ فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع علىٰ العبد وهو يستهين بشأنها حتىٰ تهلكه**»[1]. فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة، طلبه علىٰ:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج علىٰ فاعلها؛ فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلىٰ ترك السنن، ثم من ترك السنن إلىٰ ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت علىٰ نفسه شيئًا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٦١)، (ح١٠٥٠٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٩).

والاستكثار منها، وقلة المقام علىٰ الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو علىٰ:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات؛ فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضىٰ له، ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرءوسها، وسيدها ومسودها؛ فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرءوسًا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «**سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت...**»[1] الحديث، وفي الحديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام الأمر**»[2]، وفي الأثر الآخر: «**إن الأعمال تفاخرت**[1] **فذكر كل عمل منها مرتبته**

---

(١) جزء من حديث سيد الاستغفار الذي رواه البخاري في كتاب (الدعوات)، باب (أفضل الاستغفار)، (ح٦٣٠٦).

(٢) هذا جزء من حديث معاذ المشهور وفي أوله: «**قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ... الحديث**»، رواه الترمذي في (الإيمان)، باب (حرمة الصلاة)، (ح٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح.



وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن»، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين علىٰ جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوىٰ واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه؛ **وهي عقبة**: تسليط جنده عليه بأنواع الأذىٰ، باليد واللسان والقلب، علىٰ حسب مرتبته في الخير، فكلما عَلَتْ مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها؛ فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلىٰ الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به؛ فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمىٰ عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلىٰ الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلىٰ هذه العبودية في مواضع من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] سمي المهاجر الذي يهاجر إلىٰ عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» بلفظ: «**إن الأعمال تباهي فتقول الصدقة: أنا أفضلكم**». عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي (١/ ٤١٦).

يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالىٰ في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان**»[(١)]، وفي رواية: «**ترغيمًا للشيطان**»، وسماها (المرغمتين)[(٢)].

فمن تعبَّد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهمٍ وافر. وعلىٰ قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حُمِدَ التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله؛ لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عَزَّلَجَلَّ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكىٰ علىٰ أيامه الأول، وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلىٰ الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرىٰ. اهـ[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في (المساجد)، باب (السهو في الصلاة)، (ح٥٧١).
(٢) رواه أبو داود في (الصلاة)، باب (إذا صلىٰ خمسًا)، (ح١٠٢٥).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٨- ٢٣٣).



[أصول المعاصي]

أصول المعاصي كلها -كبارها وصغارها- ثلاثة: تعلُّق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية، وهي: الشرك، والظلم، والفواحش؛ فغاية التعلق بغير الله شرك وأن يُدعىٰ معه إله آخر، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلىٰ بعض؛ فالشرك يدعو إلىٰ الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه؛ قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا.

وكذلك الظلم يدعو إلىٰ الشرك والفاحشة؛ فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك؛ ولهذا يجمع سبحانه بينهما؛ أما الأول ففي قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]. وأما الثاني فكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣].

والفاحشة تدعو إلىٰ الشرك والظلم، ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان، وقد جمع سبحانه بين

الزنا والشرك في قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ٣].

فهذه الثلاثة يجرُّ بعضها إلىٰ بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا وأعظم شركًا، كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها، ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٦، ٣٧]، فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ، فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ، فهذا مخالفة القوة الغضبية؛ فجمع بين التوحيد والعِفة والعدل التي هي جماع الخير كله. اهـ[1].

[العجز أصل المعاصي]

الله سبحانه يلوم علىٰ العجز، ويُحب الكيس، ويأمر به؛ والكيس: هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده؛ فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان؛ فإنه إذا عجز عما ينفعه، وصار إلىٰ الأماني الباطلة بقوله: لو كان كذا وكذا، ولو فعلت كذا، يفتح عليه عمل الشيطان؛ فإن بابه العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كل شر، ويصدر عنهما الهم، والحزن والجبن، والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال؛ فمصدرها كلها عن العجز والكسل، وعنوانها «لو» فلذلك قال النبي ﷺ: «**فإنَّ لو تفتح عمل**

(١) «الفوائد» (١٢٢، ١٢٣).



الشيطان»(١)، فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم؛ فإن التمني رأس أموال المفاليس، والعجز مفتاح كل شر. وأصل المعاصي كلها العجز؛ فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات، وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي، فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته(٢) ﷺ أصول الشر وفروعه، ومباديه وغاياته، وموارده ومصادره، وهو مشتمل علىٰ ثماني خصال، كل خصلتين منها قرينتان؛ فقال: «**أعوذ بك من الهم والحزن**»، وهما قرينان؛ فإن المكروه الوارد علىٰ القلب ينقسم باعتبار سببه إلىٰ قسمين: فإنه إما أن يكون سببه أمرًا ماضيًا، فهو يحدث الحزن، وإمَّا أن يكون توقع أمر مستقبل، فهو يحدث الهم، وكلاهما من العجز؛ فإن ما مضىٰ لا يدفع بالحزن؛ بل بالرضىٰ والحمد والصبر والإيمان بالقدر، وقول العبد: قَدَّر الله وما شاء فعل.

وما يستقبل لا يدفع أيضًا بالهم، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه، فلا يعجز عنه، وإما ألا تكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، ويتأهب له أهبته اللائقة به، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد والتوكل، والانطراح بين يدي الرب تعالىٰ، والاستسلام له والرضىٰ به ربًّا في كل شيء، ولا يرضىٰ به ربًّا فيما يحب دون ما يكره؛ فإذا كان هكذا، لم يرض به ربًّا علىٰ الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبدًا علىٰ الإطلاق، فالهم والحزن لا ينفعان العبد ألبتة، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما؛ فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين

---

(١) رواه مسلم في (القدر)، باب (في الأمر بالقوة وترك العجز)، (ح٢٦٦٤).

(٢) يقصد بذلك قوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدَّين وغلبة الرجال**». أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: كتاب (الدعوات)، (ح٦٣٦٩).

الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلىٰ وراء، أو يعوقانه ويقفانه، أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه، وجد في سيره، فهما حمل ثقيل علىٰ ظهر السائر، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته وإراداته التي تضره في معاشه ومعاده انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلط هذين الجندين علىٰ القلوب المعرضة عنه، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والأنس به، والفرار إليه، والانقطاع إليه؛ ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم، والأحزان والآلام القلبية، عن كثير من معاصيها وشهواتها المردية، وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار، وإن أريد بها الخير، كان حظها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن حتىٰ تتخلص إلىٰ فضاء التوحيد، والإقبال علىٰ الله، والأنس به، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه، بحيث يكون ذكره تعالىٰ وحبه، وخوفه ورجاؤه، والفرح به والابتهاج بذكره، هو المستولي علىٰ القلب، الغالب عليه، الذي متىٰ فقده فقد قوته، الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلىٰ خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده؛ فإنه لا يوصل إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يدل عليه إلا هو، وإذا أراد عبده لأمر هيَّأه له؛ فمنه الإيجاد، ومنه الإعدام، ومنه الإمداد، وإذا أقامه في مقام -أي مقام كان- فبحمده أقامه فيه، وبحكمته أقامه فيه، ولا يليق به غيره، ولا يصلح له سواه، ولا مانع لما أعطىٰ الله، ولا معطي لما منع، ولا يمنع عبده حقًّا هو للعبد، فيكون بمنعه ظالمًا له؛ بل إنما منعه ليتوسل إليه بمحابه ليعبده، وليتضرع إليه، ويتذلل بين يديه، ويتملقه، ويعطي فقره إليه حقه، بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته



الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه علىٰ تعاقب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، وإن لم يشهده العبد؛ فلم يمنع الرب عبده ما العبد محتاج إليه بخلًا منه، ولا نقصًا من خزائنه، ولا استئثارًا عليه بما هو حق للعبد؛ بل منعه ليرده إليه، وليعزه بالتذلل له، وليغنيه بالافتقار إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر إليه، وليلبسه خلعة العبودية، ويوليه بعزله أشرف الولايات، وليشهده حكمته في قدرته، ورحمته في عزته، وبره ولطفه في قهره، وأن منعه عطاء، وعزله تولية، وعقوبته تأديب، وامتحانه محبة وعطية، وتسليط أعدائه عليه سائقٌ يسوقه به إليه.

وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطاه، والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣] فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل، ومحال التخصيص، ومحال الحرمان، فبحمده وحكمته أعطىٰ، وبحمده وحكمته حرم، فمن رده المنع إلىٰ الافتقار إليه، والتذلل له، وتملقه، انقلب المنع في حقه عطاء، ومن شغله عطاؤه، وقطعه عنه انقلب العطاء في حقه منعًا، فكل ما شغل العبد عن الله فهو مشئوم عليه، وكل ما رده إليه فهو رحمة به، والرب تعالىٰ يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل حتىٰ يريد سبحانه من نفسه أن يعينه؛ فهو سبحانه أراد منا الاستقامة دائمًا، واتخاذ السبيل إليه، وأخبرنا أن هذا المراد لا يقع حتىٰ يريد من نفسه إعانتنا عليها، ومشيئته لنا؛ فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يعينه، ولا سبيل له إلىٰ الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها

شيئًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، فإن كان مع العبد روح أخرىٰ، نسبتها إلىٰ روحه، كنسبة روحه إلىٰ بدنه، يستدعي بها إرادة الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلًا، وإلا فمحلُّه غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء رجع بالحرمان، ولا يلومن إلا نفسه.

والمقصود أن النبي ﷺ استعاذ من الهم والحزن، وهما قرينان، ومن العجز والكسل، وهما قرينان؛ فإن تخلف كمال العبد وصلاحه عنه، إما أن يكون لعدم قدرته عليه، فهو عجز، أو يكون قادرًا عليه، لكن لا يريد، فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين فوات كل خير، وحصول كل شر. ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع ببدنه؛ **وهو الجبن**، وعن النفع بماله؛ **وهو البخل**، ثم ينشأ له بذلك غلبتان: غلبة بحق، وهي غلبة الدَّيْن، وغلبة بباطل؛ وهي **غلبة الرجال**، وكل هذه المفاسد ثمرة العجز والكسل، ومن هذا قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضىٰ عليه، فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، فقال: «**إن الله يلوم علىٰ العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**»[1] فهذا قال: حسبي الله ونعم الوكيل بعد عجزه عن الكيس الذي لو قام به، لقضي له علىٰ خصمه، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كيسًا، ثم غُلِبَ فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، لكانت الكلمة قد وقعت موقعها، كما أن إبراهيم الخليل لما فعل الأسباب المأمور بها، ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوه، وألقوه في النار، قال في تلك الحال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، فوقعت الكلمة موقعها، واستقرت في مظانها، فأثَّرَتْ أثرها، وترتب عليها مقتضاها. اهـ[2].

---

(١) رواه أبو داود في (الأقضية)، باب (الرجل يحلف علىٰ حقه)، (ح٣٦٢٧)، وأحمد (٦/ ٢٥).
(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٣٥٧- ٣٦٢).



[الثمرات الدنيوية لترك المعاصي]

سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصَوْن العِرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قِوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق علىٰ الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر علىٰ أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقىٰ له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أُوذي وظُلم، وَذَبُّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرْب الملائكة منه، وبُعْد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس علىٰ خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه علىٰ ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه علىٰ الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حَمَلة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح

وسرور لا نسبة له إلىٰ فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرىٰ من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلىٰ روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلىٰ يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحَرِّ والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين؛ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]. اهـ(١).

[وما قدروا اللّٰه حقَّ قدره]

لم يقدر الله حقَّ قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته؛ فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله، هواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله إليه، واطلاعه عليه وهو في قبضته، وناصيته بيده، ويُعظِّم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، ويستحي من الناس ولا يستحي من الله، ويخشىٰ الناس ولا يخشىٰ الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدَّمه علىٰ كثير من مصالحه، حتىٰ إذا قام في حق ربه -إن ساعد القدر- قام قيامًا

---

(١) «الفوائد» (٢٢١- ٢٢٢).



لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقًا مثله، فهل قدر الله حق قدره مَن هذا وصفه؟. اهـ[١]

[في الحلال غنية عن الحرام]

الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة، وما يسره من الدين علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، وسهله للأمة عن الدخول في الآصار والأغلال، وعن ارتكاب طرق المكر والخداع والاحتيال، كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار بما هو أنفع لنا منه من الحق والمباح النافع.

فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب، والمجوس، والصابئين، وعبدة الأصنام.

وأغنانا بوجوه التجارات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار.

وأغنانا بنكاح ما طاب لنا من النساء؛ مثنىٰ وثلاث ورباع، والتسري بما شئنا من الإماء عن الزنا والفواحش.

وأغنانا بأنواع الأشربة اللذيذة، والنافعة للقلب والبدن، عن الأشربة الخبيثة المسكرة المذهبة للعقل والدين.

وأغنانا بأنواع الملابس الفاخرة من: الكتان، والقطن، والصوف، عن الملابس المحرمة من: الحرير والذهب.

وأغنانا عن سماع الأبيات وقرآن الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن.

---

(١) «الداء والدواء» (٢١١- ٢١٣).

وأغنانا عن الاستقسام بالأزلام -طلبًا لما هو خير وأنفع لنا- باستخارته التي هي توحيد وتفويض، واستعانة وتوكل.

وأغنانا عن طلب التنافس في الدنيا وعاجلها بما أحبه لنا وندبنا إليه من التنافس في الآخرة، وما أعد لنا فيها، وأباح الحسد في ذلك، وأغنانا به عن الحسد علىٰ الدنيا وشهواتها.

وأغنانا بالفرح بفضله ورحمته -وهما القرآن والإيمان- عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع، والعقار، والأثمان؛ فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

وأغنانا بالتكبر علىٰ أعداء الله تعالىٰ، وإظهار الفخر والخيلاء لهم، عن التكبر علىٰ أولياء الله تعالىٰ، والفخر والخيلاء عليهم؛ فقال صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم لمن رآه يتبختر بين الصفين: «**إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ إِلا في هذَا المَوْطِنِ**»[1].

وأغنانا بالفروسية الإيمانية، والشجاعة الإسلامية التي تأثيرها في الغضب علىٰ أعدائه ونصرة دينه، عن الفروسية الشيطانية التي يبعث عليها الهوىٰ وحمية الجاهلية.

وأغنانا بالخلوة الشرعية حال الاعتكاف، عن الخلوة البدعية التي يترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة.

وكذلك **أغنانا** بالطرق الشرعية عن طرق أهل المكر والاحتيال.

فلا تشتد حاجة الأمة إلىٰ شيء إلا وفيما جاء به الرسول صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم ما يقتضي إباحته وتوسعته، بحيث لا يحوجهم فيه إلىٰ مكر

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١٠٤)، (ح٦٥٠٨).



واحتيال، ولا يلزمهم الآصار والأغلال، فلا هذا من دينه، ولا هذا. اهـ[١].

[الوقاية من الذنب بحفظ الخواطر]

طريق قريب يوصل إلىٰ الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال؛ بحراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها والاسترسال معها؛ فإن أصل الفساد كله من قِبَلها يجيء؛ لأنها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرىٰ حتىٰ تصير إرادات، ثم يسقيها حتىٰ تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتىٰ تثمر الأعمال.

ولا ريب أنَّ دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم؛ فيجد العبد نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرِّط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف؛ كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلىٰ حفظ الخواطر؟ قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالىٰ ونظره إلىٰ قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرىٰ مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه لمعرفته ومحبته.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٤٤٥ - ٤٤٧).

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته. **السادس**: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَبِّ الذي يُلقىٰ للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حَبَّة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعىٰ المحبة والإنابة أصلًا، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلًا؛ فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقىٰ وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت علىٰ القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانه وأفسدت عليه رعيته، وألقته في الأسر الطويل.

وكما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فإن الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله؛ فإنَّ أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة



والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها المُلك في سلطانه، واستقامت له رعيته؛ ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت علىٰ حفظ الخواطر، فكان ذلك هو سيرها وجل عملها. وهذا نافع لصاحبه بشرطين: **أحدهما**: ألا يترك به واجبًا ولا سُنة، **الثاني**: ألا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرِّغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها، وإلا فمتىٰ عمل علىٰ تفريغه منهما معًا كان خاسرًا، فلا بد من التفطن لهذا. ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا علىٰ إلقاء الخواطر وإزالتها جملة، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات، فظنوها تحقيقًا وفتحًا رحمانيًّا، وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالات شيطانية، والميزان هو الكتاب الناطق والفطرة السليمة والعقل المؤيد بنور النبوة، والله المستعان. اهـ[١].

[الوقاية من الذنوب بصدق التأهب للقاء الله]

صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته؛ فإنَّ من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلىٰ الله، وعكفت همته علىٰ الله وعلىٰ محبته وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أخرىٰ وعلومًا أخر، وولد ولادة أخرىٰ تكون نسبة قلبه فيها إلىٰ الدار الآخرة كنسبة جسمه إلىٰ هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه، فيولد قلبه ولادة حقيقية

---

(١) «طريق الهجرتين» (١٧٥، ١٧٦).

كما ولد جسمه حقيقة، وكما كان بطن أمه حجابًا لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزًا إلىٰ الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزًا إلىٰ هذه الدار، وهذا معنىٰ ما يذكر عن المسيح أنه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتىٰ تولدوا مرتين»، ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها -فضلًا عن أن يصدقوا بها- فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير أو كيف يولد القلب، لم يكن لهم إليها همة ولا عزيمة؛ إذ كيف يعزم علىٰ الشيء من لا يعرفه ولا يصدقه؟ ولكن إذا كشف حجاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك وعلم أنه لم يولد قلبه بعد. والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلىٰ الله ومنازل السائرين إليه، من: اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح؛ فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه. اهـ(١).

[أقرب الطرق وأسهلها للجنة]

هلمَّ إلىٰ الدخول علىٰ الله ومجاورته في دار السلام، بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها؛ وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضىٰ وما يستقبل؛ فالذي مضىٰ تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق؛ إنما هو عمل قلب.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١٧٦، ١٧٧).



وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب؛ وامتناعك ترك وراحة، وليس هو عملًا بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونيَّة جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك.

فما مضىٰ تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك -وهو وقتك الذي بين الوقتين- فإنْ أَضَعْتَه أَضَعْتَ سعادتك ونجاتك، وإنْ حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكرت نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده؛ فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولىٰ بها وأنفع لها وأعظم تحصيلًا لسعادتها.

وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت؛ فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك: إما إلىٰ الجنة، وإما إلىٰ النار؛ فإن اتخذت إليها سبيلًا إلىٰ ربك بلغت السعادة العظمىٰ والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلىٰ الأبد، وإن آثرتَ الشهوات والراحات واللهو واللعب، انقضت عنك بسرعة، وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر علىٰ طاعته ومخالفة الهوىٰ لأجله. اهـ(١).

[كيف نصبر عن المعصية؟]

الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهىٰ

---

(١) «الفوائد» (١٧٠، ١٧١).

عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل علىٰ تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

والسبب الثاني: الحياء من الله سبحانه؛ فإن العبد متىٰ علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأىٰ منه ومسمع -وكان حييًّا- استحىٰ من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك؛ فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتىٰ تسلب النعم كلها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها.

وقال بعض السلف: أذنبت ذنبًا فحرمت قيام الليل سنة. وقال آخر: أذنبت ذنبًا فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذًا بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه؛ وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوىٰ بالعلم واليقين ويضعف بضعفهما؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال بعض السلف: كفىٰ بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا.



السبب الخامس: محبة الله؛ وهي من أقوىٰ الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوىٰ، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفرق بين من يحمله علىٰ ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته، وبين من يحمله علىٰ ذلك حبه لسيده، وفي هذا قال عمر: «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه»، يعني أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته. فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرىٰ قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه...

السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقرها، وتسوي بينها وبين السفلة.

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها والضرر الناشيء منها، من: سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمه، وحزنه وألمه، وانحصاره، وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه.

السبب الثامن: قصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع علىٰ الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها، فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص علىٰ ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه، حريص علىٰ الانتقال بخير ما بحضرته؛ فليس للعبد أنفع من قصر الأمل،

ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

السبب التاسع: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس؛ فإن قوة الداعي إلىٰ المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات؛ فإنها تطلب لها مصرفًا فيضيق عليها المباح فتتعداه إلىٰ الحرام. ومن أعظم الأشياء ضررًا علىٰ العبد بطالته وفراغه؛ فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

السبب العاشر -وهو الجامع لهذه الأسباب كلها-: ثبات شجرة الإيمان في القلب؛ فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه؛ فكلما كان إيمانه أقوىٰ كان صبره أتم، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له، وتحريمه لما حرم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله، وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار، وامتنع من ألا يعمل بموجب هذا العلم. ومن ظن أنه يقوىٰ علىٰ ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإذا قوي سراج الإيمان في القلب، وأضاءت جهاته كلها به، وأشرق نوره في أرجائه، سرىٰ ذلك النور إلىٰ الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائعة مذللة غير متثاقلة ولا كارهة، بل تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلىٰ محل كرامته، فهو كل وقت يترقب داعيه، ويتأهب لموافاته، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. اهـ[١].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٧٠- ٢٧٥).



الفصل الرابع: حِكَم قضاء السيئات وتقدير المعاصي

[أولًا: محبة الله تعالى للعفو]

الله سبحانه يجب أن يتفضل علىٰ عباده، ويتم عليهم نعمه، ويريهم مواقع بره وكرمه، فلمحبته الإفضال والإنعام ينوِّعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة.

ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلىٰ من أساء، ويعفو عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب علىٰ من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه. وقد ندب عباده إلىٰ هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة -وهو أولىٰ بها منهم وأحق- وكان له في تقدير أسبابها من الحِكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول، فسبحانه وبحمده.

وحكىٰ بعض العارفين أنه قال: طفت في ليلة مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف، وطابت نفسي، فوقفت عند الملتزم ودعوت الله، فقلت: اللهم اعصمني حتىٰ لا أعصيك، فهتف بي هاتف: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألوني العصمة، فإذا عصمتهم فعلىٰ من أتفضل؟ ولمن أغفر؟ قال: فبقيت ليلتي إلىٰ الصباح أستغفر الله حياءً منه. اهـ[1].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٥٩).

[ثانيًا: أنه يُعرِّف العبد حاجته لربه]

ومنها: أنه يُعرِّف العبد حاجته إلىٰ حفظه له ومعونته وصيانته، وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلىٰ من يحفظه ويصونه، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد، وقد مدت الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله، وإفساد شأنه كله، وأن مولاه وسيده إن وكله إلىٰ نفسه وكله إلىٰ ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط، فهلاكه أدنىٰ إليه من شراك نعله.

فقد أجمع العلماء بالله علىٰ أن التوفيق ألا يكل الله العبد إلىٰ نفسه، وأجمعوا علىٰ أن الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه. اهـ[(١)].

[ثالثًا: الاستعانة والالتجاء إلى الله]

ومنها: أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له؛ من استعاذته واستعانته به من شر نفسه وكيد عدوه، ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف، وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة، ومنها ما لا تُدركه العبارة، وإنما يدرك بوجوده، فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب، ويجد العبد من نفسه كأنه ملقىٰ علىٰ باب مولاه بعد أن كان نائيًا عنه، وهذا الذي أثمر له: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وهو ثمرة: «لله أفرح بتوبة عبده...».

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٦٤).



فكم بين عبادة مدل صاحبها علىٰ ربه بعبادته، شامخ بأنفه؛ كلما طلب منه أوصاف العبد قامت صور تلك الأعمال في نفسه، فحجبته عن معبوده وإلهه، وبين عبادة من قد كَسَرَ الذلُّ قلبَه كل الكسر، وأحرق ما فيه من الرعونات والحماقات والخيالات، فهو لا يرىٰ نفسه إلا مسيئًا، كما لا يرىٰ ربه -إليه- إلا محسنًا، فهو لا يرضىٰ أن يرىٰ نفسه طرفة عين إلا قد كسر إزراؤه علىٰ نفسه قلبه، وذلل لسانه وجوارحه، وطأطأ منه ما ارتفع من غيره، فقلبه واقف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس، خاضع، غاض البصر، خاشع الصوت، هادئ الحركات، قد سجد بين يديه سجدة إلىٰ الممات، فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكفىٰ به حكمة، والله المستعان. اهـ(١).

[رابعًا: معرفة مقدار النفس]

ومنها: أن العبد يعرف حقيقة نفسه، وأنها الظالمة، وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه؛ إذ الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدىٰ وإنابة وتقوىٰ فهو من ربها تعالىٰ؛ هو الذي زكاها به وأعطاها إياه، لا منها، فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي ظلمه وجهله، فهو تعالىٰ الذي يزكي من يشاء من النفوس، فتزكو وتأتي بأنواع الخير والبر، ويترك تزكية من يشاء منها فتأتي بأنواع الشر والخبث.

وكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم آت نفسي تقوها، وزكها أنت خير من**

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٦٥، ٢٦٦).

زكاها، أنت وليها ومولاها»[١]. فإذا ابتلىٰ الله العبد بالذنب عرف به نفسه ونقصها، فرتب له علىٰ ذلك التعريف حِكَم ومصالح عديدة، ومنها أنه يأنف من نقصها ويجتهد في كمالها.

ومنها أنه يعلم فقرها دائمًا إلىٰ من يتولاها ويحفظها.

ومنها أنه يستريح ويريح العباد من الرعونات والحماقات التي ادعاها أهل الجهل في أنفسهم من قدم! أو اتصال بالقديم! أو اتحاد به! أو حلول فيه! أو غير ذلك من المحالات، فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتها لم يقعوا فيما وقعوا فيه. اهـ[٢].

[خامسًا: بيان عدل الله تعالى]

ومنها: إقامة حجة عدله علىٰ عبده ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقل: أنىٰ هذا؟ ولا: من أين أتيت؟ ولا: بأي ذنب أصبت؟ فما أصاب العبد من مصيبة قط -دقيقة ولا جليلة- إلا بما كسبت يداه، وما يعفو الله عنه أكثر، وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة.

ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفِّر بها من خطاياهم؛ فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم، ولا يدري العبد أي النعمتين عليه أعظم: نعمته عليه فيما يكره؟ أو نعمته عليه فيما يحب؟

---

(١) رواه مسلم في (الذكر والدعاء والتوبة)، (ح٢٧٢٢).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٠).

و«**ما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذىٰ، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه**»[(١)]، وإذا كان للذنوب عقوبات ولا بد، فكل ما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهل بكثيرٍ. اهـ[(٢)].

[سادسًا: التفات العبد لمعاملته مع الناس]

ومنها: أن يعامل العبد بني جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به في اساءته وزلاته وذنوبه؛ فإن الجزاء من جنس العمل؛ فمن عفا عفا الله عنه، ومن سامح أخاه في إساءته إليه سامحه الله في إساءته، ومن أغضىٰ وتجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصىٰ استقصىٰ عليه.

ولا تنس حال الذي قبضت الملائكة روحه فقيل له: هل عملت خيرًا؟ هل عملت حسنة؟ قال: ما أعلمه، قيل: تذكر، قال: كنت أبايع الناس فكنت أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، أو قال: كنت آمر فتياني أن يتجاوزوا في السِّكَّة، فقال الله: «**نحن أحق بذلك منك، وتجاوز الله عنه**»[(٣)]، فالله ﷻ يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم. فإذا عرف العبد ذلك كان في ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ما هو أنفع الأشياء له. اهـ[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في (المرضىٰ)، باب (كفارة المرض)، (ح٥٦٤٢).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٤).

(٣) رواه النسائي في (البيوع)، (ح٤٦٩٤)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، وأصله في الصحيحين: البخاري (ح٢٠٧٨)، ومسلم (ح١٥٦٢).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٥).

[سابعًا: مقابلة إساء الناس بالإحسان]

ومنها: أنه إذا عرف هذا فأحسن إلىٰ من أساء إليه، ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالىٰ، وأنه سبحانه يقال إساءته وذنوبه بإحسانه، كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه، والله أوسع فضلًا وأكرم وأجزل عطاء؛ فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان، ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه. فليتأمل هو حاله مع الله كيف هي؟ مع فرط إحسانه إليه وحاجته هو إلىٰ ربه، وهكذا هو له.

فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة؟!. اهـ[(١)].

[ثامنًا: عدم احتقار الناس]

ومنها: أنه يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم، ويتفرج بطانه، ويزول عنه ذلك الحصر والضيق والانحراف وأكل بعضه بعضًا، ويستريح العصاة من دعائه عليهم، وقنوطه منهم، وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء؛ فإنه حينئذ يرىٰ نفسه واحدًا منهم، فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه، وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه؛ فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه، ويخاف علىٰ نفسه أكثر مما يخاف عليهم، فأين هذا من حاله الأولىٰ وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٦).



والازدراء، لا يجد في قلبه رحمة لهم ولا دعوة، ولا يرجو لهم نجاة؟ فالذنب في حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمته، ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحسانًا إليهم؛ إذ هو عين مصلحتهم، لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة. اهـ(١).

[تاسعًا: معرفة نعمة المعافاة والتوفيق]

ومنها: أن يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له وحفظه إياه؛ فإنه من تربىٰ في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلىٰ، ولا يعرف مقدار النعمة، فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة، وأن لله عليهم من الشكر أضعاف ما علىٰ غيرهم -وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصىٰ- فهم أهل النعمة المطلقة، وأن من خلىٰ الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه وهان عليه، وأن ذلك ليس من كرامته علىٰ ربه؛ وإن وسع الله عليه في الدنيا ومد له من أسبابها، فإنهم أهل الابتلاء علىٰ الحقيقة.

فإذا طالبتِ العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه في بلية وضائقة، تداركه الله برحمته وابتلاه ببعض الذنوب، فرأىٰ ما كان فيه من المعافاة والنعمة، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلىٰ ما طلبته نفسه من الحظوظ، فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلىٰ حاله، وأن يمتعه الله بعافيته. اهـ(٢).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٨١).

[عاشرًا: آثار التوبة]

ومنها: أن التوبة توجب للتائب آثارًا عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها؛ فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر؛ فإنه إذا تاب إلىٰ الله قَبِلَ الله توبته، فرتب له علىٰ ذلك القبول أنواعًا من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها. اهـ[(١)].

[حادي عشر: الفرح بالتوبة]

ومنها: أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح، وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل؛ فلا ينسىٰ الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح.

وتأمل كيف تجد القلب حيًّا فرحًا وأنت لا تدري سبب ذلك الفرح ما هو، وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب؛ وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب، ولا يعرف فرحًا غيره.

فوازن إذًا بين هذين الفرحين، وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب؛ فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبد؟

وانظرْ ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش، ووازن بين هذا وهذا، ثم اختر ما يليق بك ويناسبك!

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٨٢).



وكلٌّ يعمل علىٰ شاكلته، وكل امرئ يصبو إلىٰ ما يناسبه. اهـ(١).

[ثاني عشر: استقلال العمل واستكثار النعم]

ومنها: أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه، ولا قليل منه؛ لعلمه أن الواصل إليه فيها كثير علىٰ مسيء مثله، واستقل الكثير من عمله؛ لعلمه بأن الذي ينبغي أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما يأتي به، فهو دائمًا مستقل لعلمه كائنًا ما كان، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت.

وقد تقدم التنبيه علىٰ هذا الوجه، وهو من ألطف الوجوه، فعليك بمراعاته، فله تأثير عجيب. ولو لم يكن في فوائد الذنب إلا هذا لكفىٰ به، فأين حال هذا مِن حال مَن لا يرىٰ لله عليه نعمة إلا ويرىٰ أنه كان ينبغي أن يعطىٰ ما هو فوقها وأجل منها! وأنه لا يقدر أن يتكلم؟ وكيف يعاند القدر وهو مظلوم من الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته؟ بل هو مغرىٰ بمعاندته لفضله وكماله، وأنه كان ينبغي له أن ينال الثريا ويطأ بأخمصه هنالك، ولكنه مظلوم مبخوس الحظ!

وهذا الضرب من أبغض الخلق إلىٰ الله، وأشدهم مقتًا عنده، وحكمة الله تقتضي أنهم لا يزالون في سفال؛ فهم بين عتب علىٰ الخالق، وشكوىٰ له، وذل لخلقه، وحاجة إليهم، وخدمة لهم؛ أشغل الناس قلوبًا بأرباب الولايات والمناصب، ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوساخهم، وأفرغ الناس قلوبًا عن معاملة الله والانقطاع إليه، والتلذذ بمناجاته، والطمأنينة بذكره، وقرة العين بخشيته والرضا به. فعياذًا بالله من زوال نعمته

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٨٣).

وتحول عافيته، وفجأة نقمته، ومن جميع سخطه. اهـ[١].

[ثالث عشر: الإفاقة واستجماع القوة للعدو]

ومنها: أن القلب يكون ذاهلًا عن عدوه معرضًا عنه، مشتغلًا ببعض مهماته، فإذا أصابه سهم من عدوه استُجْمِعتْ له قوته وحاسته وحميته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرًّا كريمًا؛ كالرجل الشجاع إذا جرح؛ فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجًا طالبًا مقدامًا، والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولىٰ هاربًا والجراحات في أكتافه، وكذلك الأسد إذا جُرح فإنه لا يطاق.

فلا خير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثأره من أعدىٰ عدوه، فما شيء أشفىٰ للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدو أعدىٰ له من الشيطان، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جد في أخذ الثأر، وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه، كما جاء عن بعض السلف: إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره. اهـ[٢].

[رابع عشر: معرفة نعمة الأنس بعد الوحشة]

ومنها: أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبُعد وزوال ذلك الأنس والقرب؛ ليمتحن عبده، فإن أقام علىٰ الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله بل اطمأنت وسكنت إلىٰ غيره: علم أنه لا يصلح، فوضعه في مرتبته

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٨٧).



التي تليق به، وإن استغاث استغاثة الملهوف وتقلق تقلق المركوب، ودعا دعاء المضطر، وعلم أنه قد فاتته حياته حقًّا فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه: علم أنه موضع لما أهل له، فرد عليه أحوج ما هو إليه، فعظمت به فرحته وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حينئذ مقداره، فعض عليه بالنواجذ وثنىٰ عليه الخناصر، وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك.

فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده!

ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر.

فقل لغليظ القلب: ويحك ليس ذا ... بعشك فادرج طالبًا عشك البالي

ولا تك ممن مد باعًا إلىٰ جنىٰ ... فقصر عنه قال ذا ليس بالحالي

فالعبد إذا بلي بعد الأنس بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد اشتاقت نفسه إلىٰ لذة تلك المعاملة، فحنت وأنت وتصدعت وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدًا، ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه؛ فإن هذه الذكرىٰ تمنعها القرار وتهيج منها البلابل. وإن استمر إعراضها ولم تحن إلىٰ مجدها الأول، ولم تحس بفاقتها الشديدة وضرورتها إلىٰ مراجعة قربها من ربها؛ فهي ممن إذا غاب لم يطلب، وإذا أبق لم يسترجع، وإذا جنىٰ لم يستعتب.

وهذه هي النفوس التي لم تؤهل لما هنالك.

وبحسب المعترض هذا الحرمان؛ فإنه يكفيه، وذلك ذنب عقابه فيه. اهـ[(١)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٩٠، ٢٩١).

[خامس عشر: نسيان الحسنات وتذكر السيئات]

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد بعبده خيرًا أنساه رؤية طاعاته، ورفعها من قلبه ولسانه، فإذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه، ونسي طاعاته، وجعل همه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد أو غدا أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه؛ كما قال بعض السلف: «إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكىٰ وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب الىٰ الله وذل له وانكسر، وعمل لها أعمالًا؛ فتكون سبب الرحمة في حقه، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ويعتدُّ بها علىٰ ربه وعلىٰ الخلق، ويتكبر بها، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتىٰ تقوىٰ عليه آثارها فتدخله النار».

فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه، وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره، والله المستعان. اهـ[1].

[سادس عشر: التواضع للناس والإمساك عن عيوبهم]

ومنها: أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه توجب له ألا يرىٰ لنفسه علىٰ أحد

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٩٤، ٢٩٥).



فضلًا، ولا له علىٰ أحد حقًّا؛ فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه، فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله، ويحرم ما حرم الله ورسوله، فإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها علىٰ الناس حقوقًا من الإكرام يتقاضاهم إياها ويذمهم علىٰ ترك القيام بها؛ فإنها عنده أخس قدرًا وأقل قيمة من أن يكون لها علىٰ عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها، أو له -لأجله- فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها، فيرىٰ أن من سلَّم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه، وبذل له ما لا يستحقه، فاستراح هذا في نفسه، وأراح الناس من شكايته وغضبه علىٰ الوجود وأهله، فما أطيب عيشه! وما أنعم باله! وما أقرعينه!

وأين هذا ممن لا يزال عاتبًا علىٰ الخلق، شاكيًا ترك قيامهم بحقه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخط؟!

فسبحان من بهرت حكمته عقول العالمين. اهـ(١).

[سابع عشر: العفو عن الناس]

ومنها: أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئًا خاطئًا مفرطًا، مع فرط إحسان الله إليه في كل طرفة عين، وبره به، ودفعه عنه، وشدة حاجته إلىٰ ربه، وعدم استغنائه عنه نفسًا واحدًا، وهذه حاله معه، فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب، وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد ولا يعصونه لا يُخلون بحقوقه، وهو مع ربه ليس كذلك؟ وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئهم، ويعفو عنه ويسامحه،

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٩٦).

ويغضي عن الاستقصاء في طلب حقه. فهذه الآثار ونحوها متىٰ اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه، ومن اجتنىٰ منه أضدادها وأوجبت له خلاف ما ذكرنا، فهي والله علامة الشقاوة، وأنه من هوانه علىٰ الله وسقوطه من عينه خلىٰ بينه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدله، فيعاقبه باستحقاقه.

وتتداعىٰ السيئات في حق مثل هذا، وتتألف، فيتولد من الذنب الواحد ما شاء الله من المتالف والمعاطب التي يهوي بها في دركات العذاب؛ فالمصيبة كل المصيبة الذنب الذي يتولد من الذنب، ثم يتولد من الاثنين ثالث، ثم تقوىٰ الثلاثة فتوجب رابعًا، وهلم جرّا.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك من حيث لا يشعر؛ فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض، يتلو بعضها بعضًا، ويثمر بعضها بعضًا؛ قال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها».

وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد، والله المستعان. اهـ[١].

***

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣٠٠، ٣٠١).



الفصل الخامس: متفرقات

[احذر الغرور]

يا مغرور بالأماني: لُعِنَ إبليس، وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها، وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها [أي الجنة] بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأمر بإيساع الظهر سياطًا [أي بالجلد] بكلمة قذف، أو بقطرة مُسْكر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم، فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٥].

دخلت امرأة النار في هرة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار، فالعمر بآخره والعمل بخاتمته.

من أحدث قبل السلام بطل ما مضىٰ من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه، ولو قدمت لقمة وجدتها، ولكن يؤذيك الشره.

كم جاء الثواب يسعىٰ إليك، فوقف بالباب، فرده بوابُ «سوفَ ولعلَّ وعسىٰ». كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طبيب له ولا

عائد، وهوىٰ مستيقظ، وعقل راقد ساهٍ في غمرته، عَمِهٍ في سكرته، سابح في لجة جهله، مستوحش من ربه، مستأنس بخلقه، ذِكرُ الناس فاكهته وقوته، وذِكرُ الله حبسه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره...

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليها العذل

. اهـ(١).

[المنتكس]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] فشبه سبحانه من آتاه كتابه وعلَّمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله علىٰ رضاه، ودنياه علىٰ آخرته، والمخلوق علىٰ الخالق؛ بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدىٰ بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض، يتشمم ويستروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته؛ وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة

---

(١) «الفوائد» (٩٦، ٩٧).

أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوىٰ، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا ينال منها شيئًا إلا هَرَّ عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأىٰ ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه، وكأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأىٰ ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها علىٰ الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر بديع؛ وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه علىٰ الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة؛ فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنىٰ.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له؛ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدىٰ لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله علىٰ الصبر وترك اللهث؛ وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله علىٰ الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف علىٰ الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء، وإذا عطش أكل الثرىٰ من العطش، وإن كان فيه صبر علىٰ الجوع، وعلىٰ كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا؛ يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا؛ وذلك لشدة حرصه؛ فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه: شدة

الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف؛ فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلىٰ خير؛ كالكلب إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت علىٰ الحق، دُعي أو لم يُدع، وُعِظَ أو لم يوعظ؛ كالكلب يلهث طُرد أو تُرك.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب؛ فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلًا لمن كذَّب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال كالكلب؛ إن طردته لهث، وإن تركته علىٰ حاله لهث.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ [الأعراف: ١٩٣]، وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنىٰ.

فمنها قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته؛ فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلىٰ نفسه.

ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي: خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه



منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلىٰ انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: ٦٠]، وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا علىٰ غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف عملهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦] فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم؛ فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله؛ فإن هذا كله من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأسًا؛ فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه.

والمعنىٰ: لو شئنا فضلناه وشرفناه، ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها، وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ عائد علىٰ الكفر، والمعنىٰ: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا؛ قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه؛ وهذا المعنىٰ حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد.

وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما يُنَبهون علىٰ لازم معنىٰ الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال سعيد بن جبير: ركن إلىٰ الأرض، وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا، وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ، والمخلد من الرجال: هو الذي يبطئ مشيته، ومن الدواب: التي تبقىٰ ثناياه إلىٰ أن تخرج رباعيته، وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود؛ وهو الدوام والبقاء، ويقال: أخلد فلان بالمكان، إذا أقام به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

قلت: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ١٧] أي: قد خلقوا للبقاء؛ لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم علىٰ سن واحد أبدًا؛ وقيل: هم المقرطون في آذانهم والمسورون في أيديهم. وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها، وذلك أمارة التخليد علىٰ ذلك السن، فلا تنافي بين القولين.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور وترك معاليها.

وقال أبو ورق: اختار الدنيا علىٰ الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وقال ابن دريد: كان هواه مع القوم؛ يعني: الذين حاربوا موسىٰ وقومه، وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته علىٰ ما فعل. اهـ[١].

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٧٩- ١٨٤).



[المؤمن إذا أذنب ثم تاب، هل يعود إلى مكانه أم لا؟]

العبد إذا كان له حال أو مقام مع الله، ثم نزل عنه إلىٰ ذنب ارتكبه، ثم تاب من ذنبه هل يعود إلىٰ مثل ما كان؟ أو لا يعود، بل إن رجع رجع إلىٰ أنزل من مقامه وأنقص من رتبته؟ أو يعود خيرًا مما كان؟ **فقالت طائفة**: يعود بالتوبة إلىٰ مثل حاله الأولىٰ؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا مُحي أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه؛ فكأنه لم يكن، فيعود إلىٰ مثل حاله. قالوا: ولأن التوبة هي الرجوع إلىٰ الله بعد الإباق منه؛ فإن المعصية إباق العبد من ربه، فإذا تاب إلىٰ الله فقد رجع إليه، وإذا كان مسمىٰ التوبة هو الرجوع، فلو لم يعد إلىٰ حالته الأولىٰ مع الله لم تكن توبته تامة، والكلام إنما هو في التوبة النصوح. **قالوا**: ولأن التوبة كما ترفع أثر الذنب في الحال بالإقلاع عنه، وفي المستقبل بالعزم علىٰ ألا يعود، فكذلك ترفع أثره في الماضىٰ جملة، ومن أثره في الماضىٰ انحطاط منزلته عند الله ونقصانه عنده، فلا بد من ارتفاع هذا الأثر بالتوبة، وإذا ارتفع بها عاد إلىٰ مثل حاله. **قالوا**: ولأنه لو بقي نازلًا من مرتبته منحطًّا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها لم تكن التوبة قد محت أثر الذنب، ولا أفادت في الماضىٰ شيئًا، وإن عاد إلىٰ دون منزلته ولم يبلغها فبلوغه تلك الدرجة إنما كان بالتوبة، فلو ضعف تأثير التوبة عن إعادته إلىٰ منزلته الأولىٰ لضعف عن تبليغه تلك المنزلة التي وصل إليها، وإن لم تكن التوبة ضعيفة التأثير عن تبليغه تلك المنزلة، لم تكن ضعيفة التأثير عن إعادته إلىٰ المنزلة الأولىٰ.

قالوا: وأيضًا ربط سبحانه الجزاء بالأعمال ربط الأسباب بمسبباتها؛ فالجزاء

من جنس العمل، فكما رجع التائب إلىٰ الله بقلبه رجوعًا تامًّا رجع الله عليه بمنزلته وحاله، بل ما رجع العبد إلىٰ الله حتىٰ رجع الله بقلبه إليه أولًا، فرجع الله إليه وتاب عليه ثانيًا؛ فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله: توبة منه إذنًا وتمكينًا فتاب بها العبد، وتاب الله عليه قبولًا ورضىٰ. فتوبة العبد بين توبتين من الله، وهذا يدل علىٰ عنايته سبحانه وبره ولطفه بعبده التائب، فكيف يقال: إنه لا يعيده مع هذا اللطف والبر إلىٰ حاله؟ **قالوا**: وأيضًا فإن التوبة من أجل الطاعات وأوجبها علىٰ المؤمنين، وأعظمها غناء عنهم، وهم إليها أحوج من كل شيء، وهي من أحب الطاعات إلىٰ الله؛ فإنه يحب التوابين، ويفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، وإذا كانت بهذه المثابة فالآتي بها آت بما هو أفضل القربات وأجل الطاعات، فإذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاط ونزول مرتبة فبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة، فإن لم تكن درجته بعد التوبة أعلىٰ فإنها لا تكون أنزل. **قالوا**: وأيضًا فإنا إذا قابلنا بين جناية المعصية والتقرب بالتوبة وجدنا الحاصل من التوبة أرجح من الأثر الحاصل من المعصية، والكلام إنما هو في التوبة النصوح الكاملة، وجانب الفضل أرجح من جانب العدل، ولهذا كان في جانب العدل آحاد بآحاد، وجانب الفضل آحاد بعشرات إلىٰ سبعمائة إلىٰ أضعاف كثيرة، وهذا يدل علىٰ رجحان جانب الفضل وغلبته، وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة؛ فإن رحمة الرب تغلب غضبه.

قالوا: وأيضًا فالذنب بمنزلة المرض، والتوبة بمنزلة العافية، والعبد إذا مرض ثم عوفي وتكاملت عافيته رجعت صحته إلىٰ ما كانت، بل ربما رجعت أقوىٰ وأكمل مما كانت عليه؛ لأنه ربما كان معه في حال العافية آلام وأسقام كامنة، فإذا اعتل ظهرت تلك الأسقام ثم زالت بالعافية جملة، فتعود قوته خيرًا



مما كانت وأكمل، وفي مثل هذا قال الشاعر:

لعـــل عتبـــك محمـــود عواقبـــه وربمـــا صـــحت الأجســـام بالعلـــل

وقالت طائفة: لا يعود إلىٰ مثل ما كان، بل لا بد أن ينقص حاله، فاحتجوا بأن الجناية توجب الوحشة وزوال المحبة ونقص العبودية بلا ريب. فليس العبد الموفر أوقاته علىٰ طاعة سيده كالعبد المفرط في حقوقه، وهذا مما لا يمكن جحده ومكابرته، فإذا تاب إلىٰ ربه ورجع إليه أثرت توبته ترك مؤاخذته بالذنب والعفو عنه، وأما مقام القرب والمحبة فهيهات أن يعود.

قالوا: ولأن هذا في زمن اشتغاله بالمعصية قد فاته فيه السير إلىٰ الله، فلو كان واقفًا في موضعه لفاته التقدم، فكيف وهو في زمن المعصية كان سيره إلىٰ وراء وراء؟ فإذا تاب واستقبل سيره، فإنه يحتاج إلىٰ سير جديد وقطع مسافة حتىٰ يصل إلىٰ الموضع الذي تأخر منه. **قالوا:** ونحن لا ننكر أنه قد يأتي بطاعات وأعمال تبلغه إلىٰ منزلته، [وإنما أنكرنا أن يكون بمجرد التوبة النصوح يعود إلىٰ منزلته وحالته]، وهذا مما لا يكون؛ فإنه بالتوبة قد وجه وجهه إلىٰ الطريق، فلا يصل إلىٰ مكانه الذي رجع منه إلا بسير مستأنف يوصله إليه، ونحن لا ننكر أن العبد بعد التوبة يعمل أعمالًا عظيمة لم يكن ليعملها قبل الذنب توجب له التقدم.

قالوا: وأيضًا فلو رجع إلىٰ حاله التي كان عليها أو إلىٰ أرفع منها لكان بمنزلة المداوم علىٰ الطاعة أو أحسن حالًا منه، فكيف يكون هذا؟ وأين مسير صاحب الطاعة في زمن اشتغال هذا بالمعصية؟ وكيف يلتقي رجلان أحدهما سائر نحو المشرق والآخر نحو المغرب؟ فإذا رجع أحدهما إلىٰ طريق الآخر والآخر مجد علىٰ

سيره، فإنه لا يزال سابقه ما لم يَعْرِض له فتور أو توان؟ هذا ما لا يمكن جحده ودفعه.

قالوا: وأيضًا فمرض القلب بالذنوب علىٰ مثل مرض الجسم بالأسقام، والتوبة بمنزلة شرب الدواء، والمريض إذا شرب الدواء وصح، فإنه لا تعود إليه قوته قبل المرض، وإن عادت فبعد حين.

قالوا: وأيضًا فهذا في زمن معالجة التوبة ملبوك في نفسه، مشغول بمداواتها ومعالجتها، وفي زمن الذنب مشغول بشهواتها، والسالم من ذلك مشغول بربه قد قرب منه في سيره، فكيف يلحقه هذا؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة لقولها. وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أن من التائبين من يعود إلىٰ مثل حاله، ومنهم من يعود إلىٰ أكمل منها، ومنهم من يعود إلىٰ أنقص مما كان؛ فإن كان بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأشد حذرًا وأعظم تشميرًا وأعظم ذلًّا وخشية وإنابة عاد إلىٰ أرفع مما كان، وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها؛ عاد إلىٰ أنقص مما كان عليه، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلىٰ مثل منزلته. هذا معنىٰ كلامه. اهـ[1].

[أقسام الذنوب]

الذنوب تنقسم إلىٰ أربعة أقسام: ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٢١- ٢٣٢).



فالذنوب الملكية: أن يتعاطىٰ ما لا يصح له من صفات الربوبية؛ كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذلك. ويدخل في هذا الشرك بالله تعالىٰ، وهو نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرىٰ معه، وشرك به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره. وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول علىٰ الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب، فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه، وجعل له ندًّا، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

وأما الشيطانية: فالتشبه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله، وتحسينها، والنهي عن طاعته وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلىٰ البدع والضلال. وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

وأما السبعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب علىٰ الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذىٰ النوع الإنساني، والجرأة علىٰ الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشره، والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج؛ ومنها يتولد الزنا، والسرقة، وأكل أموال اليتامىٰ، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، وغير ذلك. وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلىٰ سائر الأقسام؛ فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلىٰ الذنوب السبعية، ثم إلىٰ الشيطانية، ثم إلىٰ منازعة الربوبية، والشرك في الوحدانية.

ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته. اهـ[(١)].

[أيسر وأضر حركات الجوارح]

وأما اللفظات: فحفظها بألا يخرج لفظة ضائعة؛ بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح، نظر: هل تفوته بها كلمة أربح منها، فلا يضيعها بهذه؟ وإذا أردت أن تستدل علىٰ ما في القلب، فاستدل عليه بحركة اللسان؛ فإنه يطلعك علىٰ ما في القلب، شاء صاحبه أم أبىٰ.

قال يحيىٰ بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها»، فانظر إلىٰ الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه؛ أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدور بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: «**لا يستقيم إيمان عبد حتىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتىٰ يستقيم لسانه**»[(٢)]. وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفَرْج**»[(٣)]، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

---

(١) «الداء والدواء» (١٨٤ - ١٨٦).

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٩٨).

(٣) رواه الترمذي في (البر والصلة)، باب (حسن الخلق)، (ح٢٠٠٤)، وأحمد (٢/ ٢٩١).



وقد سأل معاذ رَضِوَاللهُعَنهُ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره النبي ﷺ برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلىٰ يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: كف عليك هذا، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس علىٰ وجوههم -أو علىٰ مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟**»(١)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتىٰ ترىٰ الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالًا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترىٰ من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه، من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: من ذا الذي يَتألىٰ علي أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك**»(٢)، فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده، أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة رَضِوَاللهُعَنهُ نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»(٣).

---

(١) سبق تخريجه ص٤٦٦.

(٢) رواه مسلم في (البر والصلة)، باب (النهي عن تقنيط الإنسان) ... (ح٢٦٢١).

(٣) رواه أبو داود في (الأدب)، باب (النهي عن البغي)، (ح٤٩٠١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا؛ يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا؛ يهوي بها في نار جهنم»**، وعند مسلم: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»**(١). وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني، عن النبي ﷺ: **«إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلىٰ يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها سخطه إلىٰ يوم يلقاه»**(٢)، وكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس قال: تُوفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: **«وما يدريك؟ لعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»**(٣)، قال: حديث حسن. وفي لفظٍ: أن غلامًا استشهد يوم أُحد، فوجد علىٰ بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئًا لك يا بني الجنة، فقال النبي ﷺ: **«وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره»**(٤).

وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرفعه: **«من كان يؤمن بالله**

---

(١) رواه البخاري في (الرقاق)، باب (حفظ اللسان)، (ح٦٤٧٨)، ومسلم في (الزهد والرقائق)، (ح٢٩٨٨).
(٢) رواه الترمذي في (الزهد)، باب (في قلة الكلام)، (ح٢٣١٩)، وقال: حسن صحيح.
(٣) رواه الترمذي في (الزهد)، باب (فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس)، (ح٢٣١٦)، وقال: غريب.
(٤) رواه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٧/ ٨٤)، (ح٤٠١٧).



واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[١]. وفي لفظ لمسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت»[٢]. وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٣].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»، قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»[٤]، والحديث صحيح.

وعن أمِّ حبيبة زوج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه لا له؛ إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو ذكر الله ﷻ»[٥]، قال الترمذي: حديث حسن. وفي حديث آخر: «إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا؛ فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[٦].

وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد.

ولقد رئي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسئل عن حاله، فقال: أنا موقوف علىٰ كلمة قلتها؛ قلت: ما أحوج الناس إلىٰ غيث، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي. وقال بعض الصحابة لجاريته يومًا: هاتي السفرة نعبث بها، ثم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواضع منها كتاب (الرقاق)، (ح٦٤٧٥)، ومسلم في (الإيمان)، (ح٤٧).

(٢) رواه مسلم في (الرضاع)، باب (الوصية بالنساء)، (ح١٤٦٨).

(٣) رواه الترمذي في (الزهد)، باب (فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس)، (ح٢٣١٧، ٢٣١٨).

(٤) رواه بنحوه أحمد في «المسند» (٣/ ٤١٣، ٤/ ٣٨٥).

(٥) رواه الترمذي في (الزهد)، (ح٢٤١٢)، وقال: حسن غريب.

(٦) رواه الترمذي في (الزهد)، باب (حفظ اللسان)، (ح٢٤٠٧).

قال: أستغفر الله، ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها؛ إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام، أو كما قال. وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها علىٰ العبد.

واختلف السلف والخلف: هل يكتب جميع ما يلفظ به، أو الخير والشر فقط؟ علىٰ قولين، أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من الله وما والاه، وكان الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يمسك علىٰ لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد، والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره، والله عند لسان كل قائل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرىٰ: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرىٰ في وقتها؛ فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف علىٰ نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته؛ فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط -وهم أهل الصراط المستقيم- كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة؛ فلا ترىٰ أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به. اهـ[1].

---

(١) «الداء والدواء» (٢٣٤- ٢٣٩).



[تعميم إبليس للشياطين للاهتمام بثغر اللسان]

قوموا علىٰ ثغر اللسان؛ فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من: ذكر الله تعالىٰ، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع. ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل؛ فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم، ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق؛ فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم؛ أما سمعتم قول الناصح: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس»؟

فالرباط الرباط علىٰ هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أُهلك منه بني آدم، وأكبهم منه علىٰ مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر؟

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم علىٰ لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر علىٰ لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعوانًا علىٰ الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد؛ أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث

قلت: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]. اهـ[1].

[الكلمة الخبيثة]

قال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار؛ فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جنىٰ، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق ولا أعلاها مورق، ولا جنىٰ لها، ولا تعلو بل تُعلىٰ.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك؛ فالخسران كل الخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلًا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيرًا ولا يقوله، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ -وهي الشرك- ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: الكفار، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملًا؛ فلا يقبل عمل المشرك، ولا يصعد إلىٰ الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا

(١) «الداء والدواء» (١٥٠، ١٥١).



فرع في السماء؛ يقول: ليس له عمل صالح في الدنيا والآخرة.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر؛ ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلًا لقي رجلًا من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا في السماء مصعدًا، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة.

وقوله: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ أي: استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين -وهم المشركون- عن القول الثابت؛ فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبّت المؤمنين بفضله لإيمانهم. اهـ[1].

[توجيه إبليس للشياطين]

امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا ألا تُدْخِلوا منه إلا الباطل؛ فإنه خفيف على النفس تستحليه وتستحسنه، تخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفس مزجًا، وألقوا الكلمة، فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزجوه بأخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٩١، ١٩٢).

النصحاء، فإن غلبتم علىٰ ذلك ودخل من ذلك شيء، فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به؛ إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به، ونحو ذلك، وإمَّا بإرخاصه علىٰ النفوس، وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلىٰ عند الناس، وأعز عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القابلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه للعداوة، والرابح بين الناس أولىٰ بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه، وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه. وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلىٰ إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس، ونحو ذلك. اهـ[1].

[إنفاق المال لكسب الثناء والصد عن سبيل الله]

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٦، ١١٧]، هذا مثل ضربه الله تعالىٰ لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته؛ فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر، وكسب الثناء وحسن الذكر، لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو

(١) «الداء والدواء» (١٤٨، ١٤٩).

نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جدًّا، يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته.

واختلف في الصِّرِّ؛ فقيل: البرد الشديد، وقيل: النار؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها صِرٌّ لتصريتها عند الالتهاب. وقيل: الصر: الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها.

والأقوال الثلاثة متلازمة؛ فهو برد شديد محرق بيبسه للحرث، كما تحرقه النار، وفيه صوت شديد. وفي قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ تنبيه علىٰ أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم؛ فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتىٰ أهلكت زرعهم وأيبسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها. اهـ[١].

[آفات الخمر]

نفىٰ الله تعالىٰ عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من: الصداع، والغَوْل، واللغو، والإنزاف وعدم اللذة؛ فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا: يغتال العقل، ويكثر اللغو علىٰ شربها، بل لا يطيب لشرابها ذلك إلا باللغو، وتنزف المال، وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، وهي رجس من عمل الشيطان؛ توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذِكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلىٰ الزنا، وربما دعت إلىٰ الوقوع علىٰ البنت والأخت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والندامة

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

والفضيحة، ويلحق شاربها بأنقص نوع للإنسان، وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته أو إهلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قيامًا له، ولمن تلزمه مئونته، وتهتك الأستار، وتظهر الأسرار، وتدل علىٰ العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أهاجت من حرب وأفقرت من غنىٰ، وأذلَّت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وفسخت مودة، ونسجت عداوة، وكم فرقت بين رجل وحبِّه فذهبت بقلبه وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة وأجرت من عَبْرة، وكم أغلقت في وجه شاربها بابًا من الخير، وفتحت له بابًا من الشر، وكم أوقعت في بلية وعجلت من منيته، وكم أورثت من خزية، وجرت علىٰ شاربها من محبة، وجرت عليه من سَفَلة؛ فهي جماع الإثم، ومفتاح الشر، وسلابة النعم، وجالبة النقم، ولو لم يكن من رذائلها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد؛ كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**»[(١)] لكفىٰ.

وآفات الخمر أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وكلها منتفية عن خمر الجنة. اهـ[(٢)].

[أقسام اللذات]

فأقسام اللذات ثلاثة: لذة جثمانية، ولذة خيالية وهمية، ولذة عقلية روحانية.

فاللذة الجثمانية: لذة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذة يشترك فيها مع

---

(١) رواه مسلم في (الأشربة)، (ح٢٠٠٣)، وبنحوه البخاري في (الأشربة)، (ح٥٥٧٥).

(٢) «حادي الأرواح» (٢٣٧، ٢٣٨).



الإنسان الحيوان البهيم؛ فليس كمال الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها، ولأنها لو كانت كمالًا لكان أفضل الإنسان وأشرفهم وأكملهم أكثرهم أكلًا وشربًا وجماعًا، وأيضًا لو كانت كمالًا لكان نصيب رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكمل من نصيب أعدائه، فلما كان الأمر بالضد تبين أنها ليست في نفسها كمالًا، وإنما تكون كمالًا إذا تضمنت إعانة علىٰ اللذة الدائمة العظمىٰ.

وأما اللذة الوهمية الخيالية: فلذة الرئاسة والتعاظم علىٰ الخلق والفخر والاستطالة عليهم.

وهذه اللذة وإن كان طلابها أشرف نفوسًا من طلاب اللذة الأولىٰ، فإن آلامها وما توجبه من المفاسد والمضار أعظم من التذاذ النفس بها؛ فإن صاحبها منتصب لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه. ولهذا شروط وحقوق تفوت علىٰ صاحبها كثيرًا من لذاته الحسية، ولا يتم إلا بتحمل مشاق وآلام أعظم منها. فليست هذه في الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفس وسرت بحصولها، وقد قيل: إنه لا حقيقة للذة في الدنيا، وإنما غايتها دفع آلام كما يدفع ألم الجوع والعطش وألم الشهوة بالأكل والشرب والجماع، ولذلك يدفع ألم الخمول وسقوط القدر عند الناس بالرئاسة والجاه، والتحقيق أن اللذة أمر وجودي يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضاد.

وأما اللذة العقلية الروحانية: فهي كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من: الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والمروءة وغيرها؛ فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات، وهو لذة النفس الفاضلة العلوية الشريفة، فإذا انضمت اللذة بذلك إلىٰ لذة معرفة الله تعالىٰ ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، والرضا به عوضًا

عن كل شيء، ولا يتعوض بغيره عنه؛ فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة نسبتها إلىٰ لذات الدنيا كنسبة لذة الجنة إلىٰ لذة الدنيا؛ فإنه ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلىٰ ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به، والأنس بقربه، والشوق إلىٰ لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا؛ ولذلك كان مثقال ذرة من إيمان بالله ورسوله يخلص من الخلود في دار الآلام، فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها؟ قال بعض العارفين: من قرَّت عينه بالله قرَّت به كل عين، ومن لم تقر بالله تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات. ويكفي في فضل هذه اللذة وشرفها أنها تخرج من القلب ألم الحسرة علىٰ ما يفوت من هذه الدنيا، حتىٰ إنه ليتألم بأعظم ما يلتذ به أهلها، ويفر منه فرارهم من المؤلم. وهذا موضع الحاكم فيه الذوق لا مجرد لسان العلم. وكان بعض العارفين يقول: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها، فيقال له: وما هو؟ فيقول: «محبة الله والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته».

وقال آخر: «أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة».

وقال آخر: والله إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: «إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال إنهم لفي عيش طيب»... وقال بعض المحبين: «إن حبَّه ﷻ شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره؛ فليس لهم في الدنيا مع حبه ﷻ لذة تداني محبته، ولا يؤملون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلىٰ وجه محبوبهم».

وقال بعض السلف: «ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا،



وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة؛ فإذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وعد به مَن لا أصدق منه حديثًا، وإذا أراد به غير ذلك تركه علىٰ ما هو عليه، ثم قرأ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعرض عن ذكره العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خلق له لكفىٰ بذلك عقوبة». اهـ(١).

[استيفاء الطيبات في الدنيا]

قال سليمان التيمي، عن أبي مجلز: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس: ٥٥]، ما شغلهم؟ قال: افتضاض الأبكار.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبد الوهاب، حدثنا يزيد بن زريع، عن سليمان التيمي، عن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قال: «في افتضاض العذارىٰ».

حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيىٰ بن يمان، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد بن جبير: إنَّ شهوته لتجري في جسده سبعين عامًا يجد اللذة ولا يلحقهم بذلك جنابة فيحتاجون إلىٰ التطهير، ولا ضعف ولا انحلال قوة، بل وطؤهم وطء التذاذ ونعيم، لا آفة فيه بوجه من الوجوه.

وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام، فكما أن من

---

(١) «روضة المحبين» (١٤٢ - ١٤٤).

شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «**إنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة**»(١).

فمن استوفىٰ طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حُرِمها هناك، كما نعىٰ ﷻ علىٰ من أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها، ولهذا كان الصحابة -ومن تبعهم- يخافون من ذلك أشد الخوف، وذكر الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله: أنه رآه عمر ومعه لحم قد اشتراه لأهله بدرهم فقال: «ما هذا»، قال: لحم اشتريته لأهلي بدرهم، فقال: أو كلما اشتهىٰ أحدكم شيئًا اشتراه؛ أما سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جرير بن حازم قال: حدثنا الحسن قال: قدم وفد أهل البصرة مع أبي موسىٰ علىٰ عمر، فكنا ندخل عليه كل يوم وله خبز يُلتُّ، وربما وافقناها مأدومة بالسمن، وربما وافقناها مأدومة باللبن، وربما وافقنا القدائد اليابسة قد دقت ثم أغليي بماء، وربما وافقنا اللحم الغريض وهو قليل، فقال ذات يوم: إني والله قد أرىٰ تقذيركم وكراهيتكم لطعامي، إني والله لو شئت لكنت من ألينكم طعامًا، وأرقكم عيشًا؛ ولكني سمعت الله تعالىٰ عير قومًا بأمر فعلوه؛ فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ .

فمن ترك اللذة المحرمة لله استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون، ومن استوفاها هنا حرمها هناك أو نقص كمالها، فلا يجعل الله لذة من أوضع في

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري في (الأشربة)، (ح٥٦٣٣)، ومسلم في (اللباس والزينة)، (ح٢٠٦٧).



معاصيه ومحارمه كلذة مَن ترك شهوته لله أبدًا، والله أعلم. اهـ[(١)].

[الفرح بالذنوب]

الفرح بالمعصية دليل علىٰ شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر مَن عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها؛ ففرحه بها غطَّىٰ عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سُكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتىٰ خلىٰ قلبه من هذا الحزن، واشتدت غِبطته وسروره فلْيَتَّهِم إيمانه، وليبكِ علىٰ موت قلبه؛ فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك؛ فحيث لم يُحِس به فما لجُرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها، وهي موضع مَخوف جدًّا، مترام إلىٰ هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة، وندم علىٰ ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه. اهـ[(٢)].

[فروق بين المبتدع والمذنب]

لما كانت البدع المضلة جهلًا بصفات الله وتكذيبًا بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله ﷺ عنادًا وجهلًا، كانت من أكبر الكبائر، وإن قصرت عن

---

(١) «حادي الأرواح» (٣١٠، ٣١١).

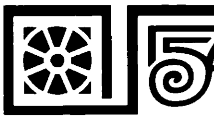
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٧).

الكفر، وكانت أحب إلىٰ إبليس من كبائر الذنوب؛ كما قال بعض السلف: «البدعة أحب إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يُتاب منها والبدعة لا يتاب منها». وقال إبليس: «أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا».

ومعلوم أنَّ المذنب إنما ضرره علىٰ نفسه؛ وأما المبتدع فضرره علىٰ النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قد قعد للناس علىٰ صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع يقطع علىٰ الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه. اهـ[١].

ﮥ♦ﮤ

(١) «الداء والدواء» (٢١٥).







الباب السادس: الرقائق

وفيه:

الفصل الأول: حقيقة الدنيا.

الفصل الثاني: الزهد.

الفصل الثالث: نعيم الجنة.

الفصل الرابع: متفرقات.










الفصل الأول: حقيقة الدنيا

[مثال جميل لأهل الدنيا]

الدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة، وما يعقبهم من الحسرات؛ مَثَلُ أهلها في غفلتهم مَثَلُ قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلىٰ جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضىٰ بعضهم حاجته وبادر إلىٰ السفينة، فصادف المكان خاليًا فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلىٰ أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حُسْن أحجارها، ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا فجلس فيه، وأكب بعضهم علىٰ تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حملة، فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكانًا ضيقًا وزاده حمله ضيقًا، فصار محموله ثقلًا عليه ووبالًا، ولم يقدر علىٰ نبذه، بل لم يجد من حمله بدًّا، ولم يجد له في السفينة موضعًا، فحمله علىٰ عنقه وندم علىٰ أخذه فلم تنفعه الندامة، ثم ذبلت الأزهار وتغيرت أراييحها وآذاه نتنها، وتولج بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة وأبعد في نزهته، حتىٰ إن الملاح نادىٰ بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه؛ فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم تلك الأنوار، وتارة يعجب من حسن الأشجار،

وهو علىٰ ذلك خائف من سبع يخرج عليه غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته، أو صوت هائل يفزعه، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات علىٰ الساحل، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات، ومنهم من تاه فهامَ علىٰ وجهه حتىٰ هلك.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تَغُرَّه أحجار ونبات يصير هشيمًا؛ قد شغل باله وعَوَّقه عن نجاته ولم يصحبه. اهـ[1].

[النذير العريان]

أهل الدنيا مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهليهم، فمروا بواد مُعْشِبٍ كثير المياه والفواكه، فنزلوا به وضربوا خيمهم، وبنوا هنالك الدور والقصور، فمرَّ بهم رجل يعرفون نُصْحَه وصِدْقَه وأمانته، فقال: إني رأيت بعيني هاتين الجيش خلف هذا الوادي وهو قاصدكم، فاتبعوني أسلك بكم علىٰ غير طريق العدو فتَنْجُوا منه، فأطاعته طائفة قليلة، فصاح فيهم: يا قوم! النجاة النجاة أُتِيتُم أُتيتم، وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم، فقالوا: كيف نرحل من هذا الوادي وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه؟ فقال لهم الناصح: لِيَنْجُ كلُّ واحد منكم بنفسه مما خفَّ عليه من متاعه، وإلا فهو مأخوذ، وماله

(١) «عدة الصابرين» (٣١٦).

مُجْتَاح، فثقل علىٰ أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدَّعة، وقال كل أحمق: لي أسوة بالقاعدين؛ فهم أكثر مني مالًا وأهلًا، فما أصابهم أصابني معهم ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة، وصبح الجيش أهل الوادي فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا المثل بعينه في الحديث المتفق علىٰ صحته، من حديث أبي بردة، عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتىٰ قومه فقال: يا قوم! إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذيرُ العريان فالنجاةَ النجاةَ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا علىٰ مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مَثَلُ من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق**»[١]. اهـ[٢].

[نحن ضيوف مرتحلون]

رجل هيَّأ دارًا وزينها ووضع فيها من جميع الآلات، ودعا الناس إليها، فكلما دخل داخلٌ أجلسه علىٰ فراش وثير، وقدم إليه طبقًا من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوانٍ مُفْتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه، فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده،

(١) متفق عليه: رواه بنحوه البخاري في (الاعتصام)، (ح٧٢٨٣)، ومسلم في (الفضائل)، (ح٢٢٨٣).
(٢) «عدة الصابرين» (٣٢٤).



فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة مقامه في الدار، ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف؛ يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدَّمه له، ولا يسأله عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه، فدخل الدار كريمًا وتمتع فيها كريمًا، وفارقها كريمًا، وربُّ الدار غير ذَامٍّ له. وأما الأحمق فحَدَّث نفسه بسُكنىٰ الدار وحوز تلك الآلات إلىٰ ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته، فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلىٰ مكان في الدار يخبؤها فيه، وكلما قدَّم إليه ربها شيئًا أو آلة حدَّث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، ورَبُّ الدار يشاهد ما يصنع، وكَرَمُه يمنعه من إخراجه من داره، حتىٰ إذا ظن أنه استبدَّ بتلك الآلات وملك الدار وتصرف فيها وفي آلاتها تصرف المالك الحقيقي، واستوطنها واتخذها دارًا له، أرسل إليه مالكها عبيده فأخرجوه منها إخراجًا عنيفًا، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل علىٰ مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، فإنه مطابق للحقيقة، والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كل أحد في هذه الدنيا ضيفٌ، وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة».

وفي الصحيحين، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدِّثوا أبا طلحة حتىٰ أكون أنا أحدِّثه، فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب وقال، ثم تصنعتُ له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك؛



فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب، قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب قال: تركتيني تلطخت ثم أخبرتيني بابني، فانطلق حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منه، فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما في ليلتكما**»[1] وذكر الحديث». اهـ[2].

[خُطَّاب الدنيا وخُطَّاب الآخرة]

ملكٌ بنىٰ دارًا لم ير الراءون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقًا وبعث داعيًا يدعو الناس إليها، وأقعد علىٰ الطريق امرأةً جميلة قد زُيِّنتْ بأنواع الزينة، وأُلبست أنواع الحلي والحلل، وممر الناس كلهم عليها، وجعل لها أعوانًا وخدامًا تحت يدها ويد أعوانها زادًا للمارين السائرين إلىٰ الملك في تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عني وابتغىٰ منك زادًا يوصله إلي فاخدميه وزوديه، ولا تعوقيه عن سفره إلي، بل أعينيه بكل ما يبلغه في سفره، ومن مد إليك عينيه ورضي بك وآثرك علي، وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب وأوليه غاية الهوان واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش، ومن يأكل منك فاخدعيه به قليلًا، ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله، وسلِّطي عليه

(١) رواه بهذا الطول بنحوه أحمد (٣/ ١٠٦، ١٠٧)، وأصله في الصحيحين: البخاري في (العقيقة)، (ح٥٤٧٠) وغيرها، ومسلم في (اللباس والزينة)، (ح٢١١٩).

(٢) «عدة الصابرين» (٣٢٥، ٣٢٦).

أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قلىٰ وإهانة وهجرًا، حتىٰ تتقطع نفسه عليك حسرات.

فتأملْ هذا المثال وحال خطاب الدنيا وخطاب الآخرة، والله المستعان، وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروي عن الله ﷻ: يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك. اهـ[(١)].

[لماذا أُنزل المال؟]

الله ﷻ خلق الغنىٰ والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به؛ كما في «المسند» عنه ﷺ قال: يقول الله تعالىٰ في الحديث القدسي: **«إنَّا نزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغىٰ إليه ثانيًا، ولو كان له ثانٍ لابتغىٰ له ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب»**[(٢)].

فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليُسْتَعان به علىٰ إقامة حقه بالصلاة وإقامة حق عباده بالزكاة، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام، فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين، فإن الغرض والحكمة التي أُنْزِل لها كان التراب أولىٰ به، فرجع هو والجوف الذي امتلأ به بما خُلِقَ له من الإيمان

---

(١) «عدة الصابرين» (٣٢٨).

(٢) رواه بنحوه أحمد في «المسند» (٥/ ٢١٩) من حديث أبي واقد الليثي، وأصله مختصرًا في «الصحيحين»: رواه البخاري من حديث ابن عباس في (الرقاق)، (ح٦٤٣٦)، ومسلم من حديث أنس في (الزكاة)، (ح١٠٤٨).

والعلم والحكمة؛ فإنه خُلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره، وأنزل عليه من المال ما يستعين به علىٰ ذلك، فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له وملأه بمحبة المال الفاني الذاهب -الذي هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس- وجمعه والاستكثار منه، ومع ذلك فلم يمتلئ بل ازداد فقرًا وحرصًا، إلىٰ أن امتلأ جوفه بالتراب الذي خلق منه، فرجع إلىٰ مادته الترابية التي خُلق منها هو وماله، ولم تتكمَّل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذي بهما كماله وفلاحه وسعادته في معاشه ومعاده.

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضرَّه ولا بد، وكذلك العلم والملك والقدرة؛ كل ذلك إن لم ينفعه ضَرَّه؛ فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يُتَوَسَّل بها إليها في الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلىٰ المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلىٰ أضدادها.

فأربح الناس من جعلها وسائل إلىٰ الله والدار الآخرة، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده. وأخسر الناس من توسل بها إلىٰ هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد -ولو جعلها كذلك لكان خاسرًا- لكنه جعلها وسائل إلىٰ ضد ما جعلت له؛ فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلىٰ أعظم الآلام وأدوائها. اهـ[1].

---

(١) «عدة الصابرين» (٢٢٣، ٢٢٤).

[ألهاكم التكاثر]

قوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ١-٨].

أخلصت هذه السورة للوعد الوعيد والتهديد، وكفىٰ بها موعظة لمن عقلها؛ فقوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شغلكم علىٰ وجه لا تعذرون فيه؛ فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: «**إنها ألهتني آنفًا عن صلاتي**»(١) كان صاحبه معذورًا، وهو نوع من النسيان. وفي الحديث: «**فلها ﷺ عن الصبي**»(٢) أي: ذهل عنه، ويقال: لها بالشيء؛ أي: اشتغل به، ولها عنه: إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح؛ ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ أبلغ في الذم من (شغلكم)؛ فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاهٍ به... فاللهو هو ذهولٌ وإعراض.

والتكاثر: تفاعل من الكثرة؛ أي مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن ذكر

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (الصلاة)، (ح٣٧٣)، ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة)، (ح٥٥٦).

(٢) لم أجده.

المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره سوىٰ طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر؛ فالتكاثر في كل شيء من: مال، أو جاه، أو رياسة، أو نسوة، أو حديث، أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف، وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلىٰ الله؛ فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير: أنه انتهىٰ إلىٰ النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ ، قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟**»[(١)]. اهـ[(٢)].

[مَن كانت الدنيا همه]

إذا أصبح العبد وأمسىٰ وليس همُّه إلا الله وحده تحمَّل اللهُ سبحانه حوائجه كلها، وحَمَل عنه كل ما أهمه، وفَرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته.

وإنْ أصبح وأمسىٰ والدنيا همُّه حمَّله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلىٰ نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم؛ فهو يكدح كدح الوحش

(١) رواه مسلم في (الزهد والرقائق)، (ح٢٩٥٨).
(٢) «الفوائد» (٥٤، ٥٥).

في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره.

فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلِي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]. اهـ.[1].

---

(١) «الفوائد» (١٢٦).



الفصل الثاني: الزهد

[زهد المشمرين]

المشمرون في السير إلىٰ الله نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفرًا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده.

فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهدًا فيها. ومن هذا الأثر المشهور -وقد روي مرفوعًا وموقوفًا-: «**ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك**».

والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله تعالىٰ فيها: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ

غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]، وسماها سبحانه: «متاع الغرور»، ونهىٰ عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين، وحذرنا مثل مصارعهم، وذم من رضي بها واطمأن إليها، وقال النبي ﷺ: **«ما لي وللدنيا؛ إنما أن كراكب قال[1] في ظل شجرة ثم راح وتركها»**[2]. وفي المسند عنه ﷺ حديث معناه: **«أن الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلًا للدنيا؛ فإنه وإن قوّحه وملحه فلينظر إلىٰ ماذا يصير، فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دنية، وعقل حقير، وقدر خسيس»**.

الثاني: علمه أن وارءها دارًا أعظم منها قدرًا، وأجل خطرًا؛ وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع»**[3]، فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده

(١) من القيلولة، وهي النوم في الظهيرة.

(٢) رواه بنحوه ابن ماجة في (الزهد)، باب (مثل الدنيا)، (ح٤١٠٩)، والترمذي في (الزهد)، (ح٢٣٧٧)، وأحمد (١/ ٤٤١).

(٣) رواه بنحوه الترمذي في (الزهد)، (ح٢٣٢٣)، وابن ماجة في (الزهد)، (ح٤١٠٨)، وأصله عند مسلم في (الجنة وصفة نعيمها)، (ح٢٨٥٨).

درهم زغل قيل له: اطرحه فلك عوضه مائة ألف دينار مثلًا، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها زهد فيها.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها؛ فمتىٰ تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها؛ فإنه متىٰ تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعًا، والعاقل لا يرضىٰ لنفسه بذلك. فهذه الأمور الثلاثة تسهل علىٰ العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه، والله الموفق لمن يشاء.

النوع الثاني من زهد المشمرين: الزهد في نفسك، وهو أصعب الأقسام وأشقها، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يَلِجوه؛ فإن الزاهد يسهل عليه الزهد في الحرام لسوء مغبته وقبح ثمرته، وحماية لدينه وصيانة لإيمانه، وإيثارًا للذة والنعيم علىٰ العذاب، وأنفة من مشاركة الفساق والفجرة، وحمية من أن يستأثر لعدوه، ويسهِّل عليه الزهد في المكروهات وفضول المباحات علمه بما يفوته بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم، ويسهِّل عليه زهده في الدنيا معرفته بما وراءها وما يطلبه من العوض التام والمطلب الأعلىٰ. وأما الزهد في النفس فهو ذبحها بغير سكين، وهو نوعان: **أحدهما**: وسيلة وبداية؛ وهو أن تميتها فلا يبقىٰ لها عندك من القدر شيء، فلا تغضب لها ولا ترضىٰ لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها؛ قد سبَّلت عرضها ليوم فقرها وفاقتها، فهي أهون عليك من أن تنتصر لها، أو تنتقم لها، أو تجيبها إذا دعتك، أو تكرمها إذا عصتك، أو تغضب لها إذا ذُمت؛ بل هي عندك أخس مما قيل فيها، أو ترفهها عما فيه حظك وفلاحك، وإن كان صعبًا عليها. وهذا

وإن كان ذبحًا لها وإماتة عن طباعها وأخلاقها فهو عين حياتها وصحتها، ولا حياة لها بدون هذا ألبتة. وهذه العقبة هي آخر عقبة يشرف منها على منازل المقربين...

وهذا الزهد هو أول نقدة من مهر الحب، فيا مفلس تأخر.

والنوع الثاني: غاية وكمال؛ وهو أن يبذلها للمحبوب جملة، بحيث لا يستبقي منها شيئًا، بل يزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبة محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبة في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه؛ قد خرج عنها وسلمها لربه، فهو يبذلها له دائمًا بتعرض منه لقبولها. وجميع مراتب الزهد المتقدمة مباد ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا يصح إلا بتلك المراتب، فمن رام الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمتعن متمن؛ كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سلم.

قال بعض السلف: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، فمن ضيع الأصول حرم الوصول. اهـ[١].

[الزهد في الدنيا]

قال الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الزهد في الزهد؛ وهو بثلاثة أشياء: باستحقار ما زهدت فيه، واستواء الحالات فيه عندك، والذهاب عن شهود الاكتساب، ناظرًا إلى وادي الحقائق».

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٢- ٢٥٤).



وقد فسر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء:

أحدها: احتقاره ما زهد فيه؛ فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرىٰ أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قربانًا؛ لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة؛ فالعارف لا يرىٰ زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له، فيستحي مَن صحَّ له الزهد أن يجعل لما تركه لله قدرًا يلاحظ زهده فيه، بل يفنىٰ عن زهده فيه كما فني عنه، ويستحي من ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأمَّا استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرىٰ ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده؛ إذ ليس له عنده قدر، وهذا من دقائق فقه الزهد، فيكون زاهدًا في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه؛ إذ همته أعلىٰ عن ملاحظته أخذًا وتركًا، لصغره في عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه: أن من استصغر الدنيا بقلبه، واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده؛ لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة ألبتة؛ لأنها أصغر في عينه من أن يرىٰ أنه اكتسب بتركها الدرجات.

وفيه معنىٰ آخر: وهو أن يشاهد تفرد الله ﷻ بالعطاء والمنع، فلا يرىٰ أنه ترك شيئًا ولا أخذ شيئًا، بل الله وحده هو المعطي المانع، فما أخذه فهو مجرىٰ لعطاء الله إياه، كمجرىٰ الماء في النهر، وما تركه لله فالله ﷻ هو الذي منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفَعَّال وحده عن شهود كسبه وتركه؛ فإذا نظر إلىٰ الأشياء بعين الجمع، وسلك في وادي الحقيقة، غاب عن شهود اكتسابه، وهو معنىٰ قوله: «ناظرًا إلىٰ

وادي الحقائق»، وهذا أليق المعنيين بكلامه، فهذا زهد الخاصة؛ قال الشاعر:

إذا زهدتني في الهوىٰ خشية الردىٰ جلت لي عن وجه يُزَهِّد في الزهد

. اهـ(١).

[أقسام الزهد]

الزهد أقسام: زهد في الحرام؛ وهو فرض عين. وزهد في الشبهات؛ وهو بحسب مراتب الشبهة؛ فإن قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبًّا. وزهد في الفضول، وزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره. وزهد في الناس، وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في الله، وزهد جامع لذلك كله، وهو الزهد فيما سوىٰ الله، وفي كل ما شغلك عنه.

وأفضلُ الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحظوظ...

والفرق بينه وبين الورع: أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يُخشىٰ ضرره في الآخرة. والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع.

قال يحيىٰ بن معاذ: عجبت من ثلاث: رجل يرائي بعمله مخلوقًا مثله ويترك أن يعمله الله، ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئًا، ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودتهم، والله يدعوه إلىٰ صحبته ومودته. اهـ(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧، ٢٨).

(٢) «الفوائد» (١٧٢، ١٧٣).



[كيف تكون زاهدًا؟]

لا تتمُّ الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: نظر في الدنيا، وسرعة زوالها، وفنائها، واضمحلالها، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخرُ ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفكُّ من هَمٍّ قبل حصولها، وهمٍّ حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها... فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة، وإقبالها، ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينها وبين ما هاهنا؛ فهي كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٧] فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تمَّ له هذان النظران آثرَ ما يقتضي العقلُ إيثاره، وزَهِدَ فيما يقتضي الزهد فيه؛ فكلُّ أحد مطبوع علىٰ ألا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلىٰ النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبين له فضل الآجل علىٰ العاجل، وقويتْ رغبته في الأعلىٰ الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكلٌّ واحد من الأمرين يدل علىٰ ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة؛ فإن الراغب في الدنيا، الحريص عليها، المؤْثِر لها، إما أن يصدِّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقىٰ، وإما ألا يصدِّق؛ فإن لم يصدِّق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإنْ صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسدَ العقل سيئ الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاصر ضروري، لا ينفك العبدُ من أحد القسمين منه؛ فإيثار الدنيا علىٰ الآخرة: إما من فسادٍ في الإيمان، وإما من فسادٍ في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدُّوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلىٰ كل مرغوب؛ فقد عُرِضت عليه مفاتيح كنوزها فردَّها، وفاضت علىٰ أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعَلِموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتمَّ الزيارة حتىٰ آذن بالرحيل.

قال النبيُّ ﷺ: «ما لي وللدنيا؛ إنما أنا كراكب قال في ظلِّ شجرة ثم راح وتركها». اهـ[(١)].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤ وَٱللَّهُ

(١) سبق تخريجه ص١١٤٠.

يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥]، فأخبر عن خِسَّة الدنيا وزَهَّدَ فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها...

وقد توعَّد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا، واطمأنَّ بها، وغفل عن آياته، ولم يَرْجُ لقاءه؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧، ٨]...

وعَيَّر سبحانه مَن رضي بالدنيا من المؤمنين؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

وعلىٰ قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها، يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في بالزهد في الدنيا قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]. اهـ(١).

---

(١) «الفوائد» (١٤٠- ١٤٣).

[قوادح في الزهد]

النقص في الزهد يكون من أحد وجوه:

أولها: أن يزهد فيما ينفعه من الدنيا، ويكون قوة له علىٰ سيره، ومعونة له علىٰ سفره، فهذا نقص؛ فإن حقيقة الزهد هي أن تزهد فيما لا ينفعك، والورع أن تتجنب ما قد يضرك. فهذا الفرق بين الأمرين.

الثاني: أن يكون زهده مشوبًا إما بنوع عجز أو ملالة وسآمة، وتأذيه بها وبأهلها، وتعب قلبه بشغله بها، ونحو هذا من المزهدات فيها؛ كما قيل لبعضهم: ما الذي أوجب زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها. فهذا زهد ناقص؛ فلو صفت للزاهد من تلك العوارض لم يزهد فيها؛ بخلاف من كان زهده فيها لامتلاء قلبه من الآخرة، ورغبته في الله وقربه؛ فهذا لا نقص في زهده ولا علة من جهة كونه زهدًا.

الثالث: أن يشهد زهده ويلحظه ولا يفنىٰ عنه بما زهد لأجله، فهذا نقص أيضًا؛ فالزهد كله أن تزهد في رؤية زهدك وتغيب عنه برؤية الفضل ومطالعة المنة، وألا تقف عنده فتنقطع، بل أعرض عنه جادًّا في سيرك، غير ملتفت إليه، مستصغرًا لحاله بالنسبة إلىٰ مطلوبك. اهـ[1].

❀◆❀

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥١).



الفصل الثالث: نعيم الجنة

[أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟]

لما علم الموفقون ما خُلقوا له، وما أريد بإيجادهم رفعوا رءوسهم، فإذا عَلَمُ الجنة قد رفع لهم، فشمَّروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، في أبد لا يزول، ولا ينفذ بصبابة عيش، إنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنغص، ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلًا أبكىٰ كثيرًا، وإن سر يومًا أحزن شهورًا، آلامه تزيد علىٰ لذاته، وأحزانه أضعاف أضعاف مسراته، أوله مخاوف وآخره متآلف، فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ عاقل آثر الحظ الفاني الخسيس علىٰ الحظ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السماوات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات، والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها الخراب والبوار، وأبكارًا عرابًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان بقذرات دنسات سيئات الأخلاق مسافحات، أو متخذات أخدان، وحورًا مقصورات في الخيام بخبيثات سيئات بين الأنام، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين، ولذة النظر إلىٰ وجه العزيز الرحيم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف والغناء والألحان، والجلوس علىٰ منابر اللؤلؤ والياقوت

والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد، ونداء المنادي: يا أهل الجنة، إن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا، وتحيوا فلا تموتوا، وتُقيموا فلا تظعنوا، وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين:

وقف الهوىٰ بي حيث أنت فليس لي ... متــأخر عنــه ولا متقــدم

أجــد الملامــة في هــواك لذيــذة ... حبًّــا لــذكرك، فلْيلمنــي اللــوم

وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسرة والندامة؛ إذا حُشر المتقون إلىٰ الرحمن وفدًا، وسيق المجرمون إلىٰ جهنم وردًا، ونادىٰ المنادي علىٰ رءوس الأشهاد: ليعلمن أهل الموقف من أولي بالكرم من بين العباد، فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد الله لهم من الإكرام، وادُّخِرَ لهم من الفضل والإنعام، وما أُخفي لهم من قرة أعين لم يقع علىٰ مثلها بصر، ولا سمعته أذن ولا خطر علىٰ قلب بشر، لعلم أي بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته، وهو معدود من سقط المتاع، وعلم أن القوم قد توسطوا ملكًا كبيرًا لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال.

فهم في روضات الجنة يتقلبون، وعلىٰ أسرتها تحت الحجال يجلسون، وعلىٰ الفرش -التي بطائنها من إستبرق- يتكئون، وبالحور العين يتنعمون، وبأنواع الثمار يتفكهون، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة: ١٧- ٢٤]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا

خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ [الزخرف: ٧١]. تالله، لقد نُودي عليها في سوق الكساد فما قلب ولا استام إلا أفراد من العباد، فواعجبًا لها كيف نام طالبها؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟ وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها؟ وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟ وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟اهـ[1].

[من أوصاف الجنة]

وكيف يُقْدَرُ قَدْرُ دارٍ غرسها الله بيده، وجعلها مقرًّا لأحبابه، وملأها من رحمته وكراماته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهَّرها من كل عيب وآفة ونقص.

فإن سألت عن أرضها وتربتها، فهي المسك والزعفران.

وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن.

وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر.

وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر.

وإن سألت عن بنائها فلبنةٌ من فضة ولبنة من ذهب.

وإن سألت عن أشجارها، فما فيها شجرة واحدة إلا وساقها من ذهب

(١) «حادي الأرواح» (٢٦- ٢٩).



وفضة لا من الحطب والخشب.

وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلىٰ من العسل.

وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكن من رقائق الحُلَل.

وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمُه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفىٰ.

وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون.

وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور.

وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها، فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها.

وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجد السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها.

وإن سألت عن سعتها فأدنىٰ أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام.

وإن سألت عن خيامها وقبابها، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة، طولها ستون ميلًا من جملة الخيام.



وإن سألت عن علاليها وجواسقها، فهي غرف من فوقها غرف مبنية، تجري من تحتها الأنهار.

وإن سألت عن ارتفاعها، فانظر إلىٰ الكوكب الطالع، أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب.

وإن سألت عن فرشها فبطائنها من إستبرق مفروشة في أعلىٰ الرتب.

وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة عليها البشخانات، وهي: الحجال مُزَررة بأزرار الذهب، فما لها من فروج ولا خلال.

وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاثة وثلاثين علىٰ صورة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبي البشر.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم، فعلىٰ صورة القمر.

وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلىٰ منه سماع أصوات الملائكة والنبيين، وأعلىٰ منهما خطاب رب العالمين.

وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها، فنجائب إن شاء الله مما شاء تسير بهم حيث شاءوا من الجنان.

وإن سألت عن حُليهم وشارتهم، فأساور الذهب واللؤلؤ علىٰ الرءوس ملابس التيجان.

وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون. اهـ[١].

---

(١) «حادي الأرواح» (٣٥٥- ٣٥٧).

[نساء الجنة]

إن سألت عن عرائسهم وأزواجهم (أي أهل الجنة)، فهُنَّ الكواعب الأترابُ، اللاتي جرىٰ في أعضائهن ماء الشباب، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، واللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللدقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت حِبَّها فقل ما شئت في تقابل النيرين، وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين، وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين، يرىٰ وجهه في صحن خدها، كما يرىٰ في المرآة التي جلاها صيقلها، ويرىٰ مخ ساقها من وراء اللحم، ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حُلَلها، لو اطلعت علىٰ الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحًا، ولاستنطقت أفواه الخلائق تهليلًا وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن من علىٰ وجهها بالله الحي القيوم، ونصيفها علىٰ رأسها خير من الدينا وما فيها، ووصاله أشهىٰ إليه من جميع أمانيها، لا تزداد علىٰ طول الأحقاب إلا حسنًا وجمالًا، ولا يزداد لها طول المدىٰ إلا محبة ووصالًا، مبرأة من الحبل والولادة والحيض والنفاس، مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يفنىٰ شبابها، ولا تبلىٰ ثيابُها، ولا يخلق ثوب جمالها، ولا يُمل طيبُ وصالها، قد قصرت طرفها علىٰ زوجها، فلا تطمح لأحد سواه، وقصر طرفه عليها فهي غاية أمنيته وهواه؛ إن نظر إليها سرته، وإن أمرها



أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو معها في غاية الأماني والأمان، هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جان، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورًا، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤًا منظومًا ومنثورًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورًا.

وإن سألت عن السنِّ، فأتراب في أعدل سن الشباب.

وإن سألت عن الحسن، فهل رأيت الشمس والقمر؟!

وإن سألت عن الحدق، فأحسن سواد في أصفىٰ بياض، في أحسن حَوَر.

وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان؟!

وإن سألت عن النهود، فهنَّ الكواعب نهودهن كألطف الرمان.

وإن سألت عن اللون، فكأنه الياقوت والمرجان.

وإن سألت عن حسن الخلق فهنَّ الخيرات الحسان اللاتي جُمِعَ لهن بين الحسن والإحسان، فأعطين جمال الباطن والظاهر، فهن أفراح النفوس، وقرة النواظر.

وإن سألت عن حُسن العشرة ولذة ما هنالك، فهن العُرُبُ المُتَحَبِّبات إلىٰ الأزواج بلطافة التبعلِ التي تَمتزج بالرُّوح أيَّ امتزاج.

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها، وإذا انتقلت من قصر إلىٰ قصر، قلت: هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها، وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة:

وحـديثها السـحرُ الحـلال لـو أنـه ... لـم يَجـنِ قتـل المسـلم المتحـرّز
إنْ طـال لـم يُملـل وإن هـي حـدثت ... ودَّ المحـدَّث أنهـا لـم تُـوجِز

إن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع، وإن آنستْ وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع، وإن قبَّلت فلا شيء أشهىٰ إليه من ذلك التقبيل، وإن نوَّلت فلا ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل. اهـ(١).

[يوم المزيد]

وإن سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترىٰ الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر، كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه، وذلك موجود في الصِّحاح، والسنن، والمسانيد، من رواية جرير، وصهيب، وأنس، وأبي هريرة، وأبي موسىٰ، وأبي سعيد، فاستمع(٢) يوم ينادي المنادي: يا أهل الجنة، إن ربكم تبارك وتعالىٰ يستزيركم فحيَّ علىٰ زيارته، فيقولون: سمعًا وطاعة، وينهضون إلىٰ الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم، فيستوون علىٰ ظهورها مسرعين، حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ الوادي الأفيح الذي جُعِلَ لهم موعدًا، وجُمِعوا هناك، فلم يغادر الداعي منهم أحدًا، أمر الرب تبارك وتعالىٰ بكرسيه فنصب هناك ثم نصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، وجلس أدناهم -وحاشاهم من

---

(١) «حادي الأرواح» (٣٥٧، ٣٥٨).

(٢) قوله: (فاستمع) هو جواب (إن) الشرطية التي بدأ بها الكلام.



الدنيا أن يكون فيهم دنيء- علىٰ كثبان المسك، وما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا، حتىٰ إذا استقرت بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم، فنادىٰ المنادي: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار، فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار جل جلاله، وتقدست أسماؤه، قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلىٰ لهم الرب تبارك وتعالىٰ يضحك إليهم، ويقول: يا أهل الجنة، فيكون أول ما يسمعون منه تعالىٰ: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني؟ فهذا يوم المزيد، فيجتمعون علىٰ كلمة واحدة: أن قد رضينا، فارض عنا، فيقول: يا أهل الجنة، إني لو لم أرض عنكم لم أُسْكِنْكم جنتي، هذا يوم المزيد، فسلوني، فيجتمعون علىٰ كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليه، فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب، ويتجلىٰ لهم، فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله تعالىٰ قضىٰ ألا يحترقوا لاحترقوا، ولا يبقىٰ في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالىٰ محاضرة، حتىٰ إنه ليقول: يا فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا، يذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: يا رب، ألم تغفر لي؟ فيقول: بلىٰ بمغفرتي بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلىٰ وجه الكريم في الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٥].

فحـــيَّ علـــىٰ جنـــات عـــدنٍ فإنهـــا   منازلـــك الأولـــىٰ وفيهـــا المخـــيم
ولكننـــا سَـــبْيُ العـــدو فهـــل تـــرىٰ   نَعـــود إلـــىٰ أوطاننـــا ونســـلَّم

. اهـ[1].

٭♦٭

(١) «حادي الأرواح» (٣٥٨- ٣٦٠).



الفصل الرابع: متفرقات

[حمدٌ وابتهالٌ]

الحمدُ لله الذي أغنانا بشريعته التي تدعو إلىٰ الحكمة والموعظة الحسنة، وتتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ فله المنَّة والفضل علىٰ ما أنعم به علينا، وآثرنا به علىٰ سائر الأمم، وإليه الرغبة أن يُوْزِعنا شكر هذه النعمة، وأن يفتح لنا أبواب التوبة والمغفرة والرحمة؛ فأحب الوسائل إلىٰ المحسن التوسل إليه بإحسانه، والاعتراف له بأن الأمر كله محض فضله وامتنانه، فله علينا النعمة السابغة، كما له علينا الحجة البالغة، نبوء له بنعمه علينا، ونبوء بذنوبنا وخطايانا، وجهلنا وظلمنا، وإسرافنا في أمرنا، فهذه بضاعتنا التي لدينا، لم تُبْقِ لنا نعمة وحقوقها وذنوبنا حسنة نرجو بها الفوز بالثواب والتخلص من أليم العقاب، بل بعض ذلك يستنفد جميع حسناتنا، ويستوعب كل طاعتنا؛ هذا لو خلصت من الشوائب، وكانت خالصة لوجهه، واقعة علىٰ وفْقِ أمره، وما هو والله إلا التعلق بأذيال عفوه، وحسن الظن به، واللجاية إليه والاستعانة به منه، والاستكانة والتذلل بين يديه، ومد يد الفاقة والمسكنة إليه بالسؤال، والافتقار إليه في جميع الأحوال؛ فمن أصابته نفحة من نفحات رحمته، أو وقعت عليه قطرة من قطرات رأفته انتعش بين الأموات، وأناخت بفنائه وفود الخيرات، وترحَّلت عنه جيوش الهموم والغموم والحسرات.

وإذا نظـــرت إلـــيَّ نظـــرة راحـــم   في الـــدهر يومًـــا إننـــي لســـعيد

. اهـ[١].

[المقصود من زيارة القبور]

زيارة الموحدين للقبور مقصودها ثلاثة أشياء:

أحدها: تذكر الآخرة، والاعتبار والاتعاظ، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ ذلك بقوله: «**زوروا القبور؛ فإنها تُذكركم الآخرة**»[٢].

الثاني: الإحسان إلىٰ الميت، وألا يطول عهده به، فيهجره، ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه، فإذا زار الحي فرح بزيارته وسر بذلك، فالميت أولىٰ؛ لأنه قد صار في دار قد هجر أهلها إخوانهم وأهلهم ومعارفهم، فإذا زاره وأهدىٰ إليه هدية من: دعاء، أو صدقة، أو أهدىٰ قربة، ازداد بذلك سروره وفرحه، كما يسر الحي بمن يزوره ويهدي له. ولهذا شرع النبي ﷺ للزائر أن يدعو لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعو بهم، ولا يصلي عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلىٰ نفسه باتباع السُّنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ؛ فيحسن إلىٰ نفسه وإلىٰ المزور. اهـ[٣].

---

(١) «هداية الحيارىٰ» (٢٣٠، ٢٣١).

(٢) رواه بهذا اللفظ ابن ماجة في (الجنائز)، باب (زيارة القبور)، (ح١٥٦٩)، ولمسلم في (الجنائز) نحوه، (ح٩٧٦). وكذا في العديد من دواوين السنة.

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢٢٣).



[حياة الأرواح بعد مفارقة الأبدان]

من مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه؛ فإن من ورائه فضاء وروحًا وريحانًا وراحة، نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلىٰ هذه الدار، أو أدنىٰ من ذلك، قال بعض العارفين: لتكُنْ مبادرتك إلىٰ الخروج من الدنيا كمبادرتك إلىٰ الخروج من السجن الضيق إلىٰ أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة؛ قال الله تعالىٰ في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

ويكفي في طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلىٰ، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلًا عن مخالطته وعِشْرته، إلىٰ الرفيق الأعلىٰ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمن الرحيم.

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأسرفوا: في الموت ألفُ فضيلة لا تُعرفُ
منها أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاشر لا يُنْصِفُ

ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلىٰ هذه الحياة، وجِسْر يُعْبَر منه إليها، لكفىٰ به تحفة للمؤمن.

جزىٰ الله عنا الموت خيرًا فإنه أبرُّ بنا من كل برٍّ وألطف
يُعجِّل تخليص النفوس من الأذىٰ ويُدْني إلىٰ الدار التي هي أشرف

فالاجتهاد في هذا العمر القصير، والمدة القليلة، والسعي والكدح، وتحمل الأثقال، والتعب والمشقة، إنما هو لهذه الحياة، والعلوم والأعمال وسيلة إليها، وهي يَقَظَة، وما قبلها من الحياة نوم، وهي عين وما قبلها أثر، وهي حياة جامعة بين فقد المكروه، وحصول المحبوب في مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب؛ حيث الطمأنينة والراحة، والبهجة والسرور، حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها؛ لأنها في بلد لا عهد لنا به، ولا إلف بيننا وبين ساكنه؛ فالنفس -لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زمانًا طويلًا- تكره الانتقال منه إلىٰ ذلك البلد، وتستوحش إذا استشعرت مفارقته. وحصول العلم بهذه الحياة إنما وصل إلينا بخبر إلهي علىٰ يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ، فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان، حتىٰ صارت لهم بمنزلة العيان، ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة في هذه الحياة، وشوقًا إلىٰ ذلك الملكوت، ووجدًا بهذا السرور، وطربًا علىٰ هذا الحد، واشتياقًا لهذا النسيم الوارد من محل النعيم المقيم. ولعمر الله، إن من سافر إلىٰ بلد العدل والخِصب، والأمن والسرور صبر في طريقه علىٰ كل مشقة وإعواز وجدب، وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب المنادي إذا نادىٰ به: حي علىٰ الفلاح، وبذل نفسه في الوصول بذل المحب بالرضا والسماح، وواصل السير بالغُدو والرَّوَاح، فحمد عند الوصول مَسْراه، وإنما يحمد المسافر السُّرىٰ عند الصباح.

عنـد الصـباح يَحمـد القـومُ السُّـرَىٰ   وفي الممـات يحمـدُ القـومُ اللُّقـا[1]

❀♦❀

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢٤، ٢٢٥).



الخاتمة

أيها القارئ الكريم:

بعد أن عشتَ قلبًا وقالبًا مع الكلام النُّوراني للإمام ابن القيم يرحمه الله، أود الإشارة للأمور التالية:

* إن مئات الصفحات التي قرأتها في هذا الكتاب في الدعوة والتربية وأعمال القلوب لابن القيم- هي امتداد لاهتمام مَن سبقه من أئمة السلف بهذه الموضوعات المهمة رحمهم الله، وخاصة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله رُوحه- وهي تُبرز بوضوح العناية الفائقة التي يوليها السلف لأمور التربية والدعوة وأعمال القلوب التي كانت واضحة في معاملاتهم مع بعضهم البعض، وفي غزارة إنتاجهم وبركة مؤلفاتهم. وفي هذا دعوة للعلماء والمربين للعناية بتلك الموضوعات وتدريسها في حلقات العلم، وطرحها في المجالس والمنتديات، وتربية النشء عليها.

* إن غالب ما يحدث اليوم بين بعض أرباب الساحة الدعوية من تشاحن وتلاسن، وجفاء وبغضاء مردُّه إلىٰ ضعف تربية النفس والقصور في تنقيتها من حظوظ الدنيا ودواعي الهوىٰ.

وقد نبَّه الله جل وعلا إلىٰ أن ما يصيبنا من مصائب -ومنها مصيبة الفرقة والخلاف- سببه ما اقترفناه من خطايا القلوب والجوارح؛ قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ويجيء هذا الكتاب محاولة لعلاج هذا الجانب، وليكون بعد توفيق الله من أسباب تقارب القلوب وتلاحم الصفوف، مما سيعزز من العمل الدعوي إن شاء الله.

* لأن العمر واحد والمشاغل كثيرة والأوقات قصيرة، فإن الأخيار علىٰ وجه الخصوص يحتاجون إلىٰ ترتيب الأولويات عندهم؛ سواء في العبادات أو في المعاملات، وقد قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لمن عرف شرف الوجود أن يُحصِّل أفضل الموجود»، وقال: «فينبغي للمستيقظ ألا يطلب إلا الأنفس»[1].

ومن ضمن ما يجب العناية به وتقديمه: عبادات القلوب التي جاء هذا الكتاب ليلفت الانتباه إليها ويدعو للعمل بها، كما أنه يربي الفرد ويُعوِّده علىٰ تنميتها وزيادتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- عن أعمال القلوب إنها: «من أصول الإيمان وقواعد الدين» و«إنها واجبة علىٰ الخلق باتفاق أئمة الدين» و«إن الناس فيها ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان علىٰ ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات»[2].

وأشار رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن: «أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها»[3].

* رغم اشتغال طلبة العلم بالفقه والحدث ونحوهما من العلوم الشرعية،

---

(١) «صيد الخاطر» (٣٠٢).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٥، ٦).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٥).



فإن البعض منهم – وغيرهم من باب أولىٰ - يعاني من قسوة في القلب تصرف عن تأمل الذات والتفتيش في دواخلها.

ويشير ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ **إلىٰ ذلك الحال بقوله:** «رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي لصلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين»، ويعلل سبب ذلك فيقول: «لأنهم تناولوا مقصود الفعل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلىٰ ذوق معانيها والمراد بها»، ثم يقول: «وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق؛ لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل ما يغالب به الخصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء؟»[١].

ولعل هذا الكتاب يساعد في تلبية حاجة القلب والروح لما يزكيها ويسمو بها.

وأخيرًا -أخي القارئ الكريم- إن كنت انتفعت بما قرأت، فإن المأمول منك -وأنت الداعية لكل خير- أن تدعو غيرك لقراءة كلام ابن القيم وغيره من السلف في أبواب الدعوة والتربية وأعمال القلوب؛ فإن الحاجة لها أشد من حاجة الزرع للمطر، وخاصة في هذا الزمان.

زوَّدكَ الله التقوىٰ، وغفر ذنبكَ، ويسَّر لك الخير حيثما كان.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد الرءوف بأمته، المبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين، وعلىٰ صحابته الكرام الميامين، ومَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) «صيد الخاطر» (٢٢٤).

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

* كتب الإمام ابن القيِّم يرحمه الله:

- أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤م.
- أسماء مؤلفات ابن تيمية، لم أجده.
- إعلام الموقعين، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٩هـ.
- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، تحقيق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الحديث.
- اجتماع الجيوش الإسلامية، تحقيق: رضوان جامع رضوان، المكتبة التجارية، ١٤١٥هـ.
- بدائع الفوائد، تحقيق: معروف زريق وآخرون، دار الخير، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ.
- التبيان في أحكام القرآن، تحقيق: محمد زهري النجار، المكتبة السعيدية.
- تحفة المودود في أحكام المولود، بتحقيق: شير محمد عيون، دار البيان الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ خير الأنام، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.



- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق: سعيد محمد اللحام، مكتبة المعارف، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٧هـ.
- حادي الأرواح، تحقيق: علي الشربجي وقاسم النوري، مؤسسة الرسالة.
- حكم تارك الصلاة، دار ابن كثير ودار التراث، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩هـ.
- الرسالة التبوكية، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، مكتبة الخراز، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ.
- الرُّوح، مطبعة المدني ودار المدني، ١٤١٣هـ.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الخير، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- شفاء العليل، تحقيق: عمر بن سليمان الحفيان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.
- الصواعق المرسلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.
- الطُّرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبعة الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار الوطن.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق: عصام فارس الحرستاني، دار الجيل، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

- الفروسية، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، دار التراث، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ.
- الفوائد، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- الكافية الشافية، تحقيق: عبد الله بن محمد العمير، دار ابن خزيمة، الأولىٰ، ١٤١٦هـ.
- مختصر سنن أبي داود، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة.
- مدارج السالكين، تحقيق: بشير محمد عيون، دار البيان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.
- مفتاح دار السعادة، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ.
- المنار المنيف، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيىٰ المعلمي، دار العاصمة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- هداية الحيارىٰ، تحقيق: محمد أحمد الحاج، دار القلم، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

مراجع التخريج:

وقد اعتُمِدَ فيها أساسًا علىٰ الأقراص المدمجة:

١- قرص موسوعة الحديث الشريف «الكتب التسعة»، من إصدار شركة حرف.
٢- قرص الموسوعة الذهبية للحديث النبوي الشريف وعلومه، من إصدار مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، الإصدار (٢)، عام ١٤٢٢هـ.



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات